العرب

مجلة تُعنى بتاريخ العرب وآدابهم وتراثهم الفكري

ج٧ و٨ س ٥٧

محرّم وصفر ١٤٤٣ هـ

آب-أيلول/أغسطس-سبتمبر ٢٠٢١ م

تصدر عن: دار اليمامة للبحث والنشر والتوزيع ـ الرياض ـ المملكة العربية السعودية

في هذا العـــــــــدد

- السفّاح التّغلبيّ من شعراء الجاهليّة المنسيّين
  محمد القوصي
- التّمثّل بالشّعر: دراسة نقديّة
  د.عبدالحميد شعيب
- سيل العرم وسد مأرب: تساؤلات عن الانهيار الكبير
  توفيق السامعي
- أبجديات منهجية غائبة في الدراسات التراثية المعاصرة.
  أميرة الشناوي
- أعلام العرب: يوسف الشيخ يعقوب
  محمد القشعمي

arab@hamadaljasser.com

العرب

مجلة تُعنى بتاريخ العرب
وآدابهم وتراثهم الفكري

أسسها حمد الجاسر سنة ١٣٨٦هـ (١٩٦٦م)

صاحب الامتياز المسؤول: معن بن حمد الجاسر

الجزء السابع والثامن - السنة ٥٧

محرم وصفر ١٤٤٣هـ

آب - أيلول/أغسطس - سبتمبر ٢٠٢١م

رئيس التحرير

د. عبدالعزيز بن عبدالله الخراشيّ

أعضاء هيئة التحرير

أ. د. أسعد بن سليمان بكر عبده

أ. د. عبدالعزيز بن صالح الهلابي

أ. د. عبدالعزيز بن ناصر المانع

أ. د. محمد بن عبدالرحمن الهدلق

مدير التحرير

أ. هارون بن فهد العتيبي

العنوان:

التحرير: واصل ٢٧٩٢ - طريق الإمام سعود بن عبدالعزيز - حي الشهداء

الرياض ١٢٤٣٢ - ٦٧٥٢

ص. ب: ٦٦٢٢٥ الرياض ١١٥٧٦، المملكة العربية السعودية

هاتف: ٢٦٩٠٥١٢ (٠٠٩٦٦١١) - **مباشر**: ٢٢٥٣٦٨٣ (٠٠٩٦٦١١)

الاشتراكات: ٦٩٧٨ شارع حمد الجاسر - حي الورود - الرياض.

ص . ب ١٣٧ الرياض ١١٤١١ - المملكة العربية السعودية

هاتف: ٤٦٠٤٦٦٤ (٠٠٩٦٦١١) - **لاقط**: ٤١٩٤٥٠٣ (٠٠٩٦٦١١)

الصفحة الإلكترونية: www.hamadaljasser.com

للمراسلة: arab@hamadaljasser.com

ضوابط النشر في المجلة

١. أن يكـون البحث داخـلاً ضمن اهتمامات المجلة، وهي الموضوعـات المتعلقة بتاريخ العرب، وآدابهم، ولغتهم، وتراثهم الفكري.

٢. ألا يكون البحث مقدمًا للنشر في مجلة أخرى، وأن يكون في نسخته الأصلية.

٣. أن يتأكـد الكاتب من سلامة اللغة، وحسـن الترقيم والتوثيق، وضبط الألفاظ غير المألوفة بالشكل الصحيح.

٤. أن يتسم النقد بالأسلوب العلمي الخالي من الإساءة إلى شخصية المؤلف أو الباحث.

٥. لا تُعاد البحوث إلى أصحابها سواء أنشرت أم لم تُنشر.

٦. ترتيب البحوث داخل المجلة يخضع لاعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الكاتب.

٧. الموضوعات التي تُنشر في المجلة تعبّر عن آراء كاتبيها وليس بالضرورة عن رأي المجلة.

٨. المكاتبات توجه إلى رئيس التحرير.

٩. تُرسل المادة في ملف (word) إلى عنوان المجلة:

arab@hamadaljasser.com

الاشتراك السنوي:

٦٠ ريالاً للأفراد و٢٠٠ ريال لغيرهم

ثمن الجزء ١٠ ريالات

بسم الله الرحمن الرحيم
١٤١٨

رد مد (ISSN) : ۲۶۷۱- ۱۳۱۹

الفهرس

السّفّاح التَّغلبيّ من شعراء الجاهليّة المنسيّين	أ.محمد عبدالشّافي القوصي	٥٣١
التّمثّل بالشّعر: دراسة نقديّة	د.عبدالحميد محمد شعيب	٥٥٧
سيل العرم وسد مأرب: تساؤلات عن الانهيار الكبير	أ. توفيق السّامعيّ	٦١٣
أبجديات منهجية غائبة في الدراسات التراثية المعاصرة	أ.أميرة الشنّاوي	٦٧١
أعلام العرب: يوسف الشّيخ يعقوب	أ. محمد القشعمي	٦٨١

السـفَّاح التَّغلبـيّ
من شعراء الجاهلية المَنسيِّين

محمد عبد الشافي القُوصِـي

مـا مِـن عصـرٍ مـن العصـور إلَّا ويوجد بـهِ شعـراء حالفهم حـظ الشهرة والذيوع والانتشار؛ وشعراء آخَـرون جفاهم الحظ؛ وسقطوا من سلسلة الشعراء الذهبية، وغابوا عن تاريخ الأدب، وضاعت قصائدهم، وأهملهم النقّاد، ونَسيَهم الدارسون!

ويُعدُّ «السفَّاح التَّغلبيّ» (٠٠ – ٦٩ ق.هـ/ ٠٠ – ٥٥٥م)، أحد الشعراء الذين لمْ يحالفهم حظ الشهرة، كغيرهِ من مجايليه؛ الذين طبّقت شُهرتهم الآفاق!

فمن هو السفَّاح التَّغلبيّ؟ وإلى أيّ الحقب ينتمي؟ وما هي المصادر التاريخية التـي أشارت إليـه؟ وما هي قضايـاه الشِّعرية؟ وما هو موقعـه في ميزان النقد؟ ولماذا اختفتْ أشعاره وقصائده؟!

تقـول بطاقـة أحواله الاجتماعية: إنـه شاعر جاهليّ فـذ، وفارس جرّار من فوارسـ عصره! ينحـدِر من (تغلب)، وهي من أعظم قبائـل ربيعة شأنًا في بلاد العرب؛ التي تنتسب إلى: تغلب بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفْصى بن دُعميّ بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان. أيْ: أنها من عرب الشمال.

وأشهَـر بطْنَيْن من تغلب بنو جشم بن بكر، وبنو مالك بن بكر؛ رهط السفاح التغلبيّ، وقبيلته الأقربون. ومنازلهم كانت بالجزيرة الفُراتية.

أمَّا عن ديانة تغلب: فيؤكد ابنُ قتيبة أنَّ النصرانية كانت «في ربيعة، وغثان، وبعض قضاعة ...»[١]. ويشير ابن حزم الأندلسي إلى ديانات العرب في الجاهلية، فيقـول[٢]: «إنَّ إيادًا كلها، وربيعة كلّها، وبكرًا، وتغلب، والنمر، وعبد القيس كلهم نصارى».

أمَّا عـن حياتها السياسية فهـي مفعمة بالقتال والغـزوات والغارات، شأنها شـأن قبائل شمال الجزيرة العربية؛ لأنَّ هذه القبائل «أكثر بداوة وأعرابية، ومِن طبعها: الخصومة، والتنازع، والتحاسد. ولم تجتمع معدٌّ كلها إلاَّ على ثلاثة رهط من رؤساء العرب، وهم[٣]:

١. عامـر بن الظّـرب: قائد معدّ (يوم البيـداء) وهـي أول وقعة كانت بين تهامة واليمن.

٢. ربيعـة بن الحارث بن مرّة: والد كليْب، وقائد معدّ يوم السَّلان، وهو يوم بين تهامة واليمن أيضًا.

٣. كليـب بن ربيعة: قائـد معدّ (يـوم خزاز)،وهو اليوم الـذي أظهرت لنا المصـادر شخصيـة السفّاح التغلبيّ مشيدة بدوره فيـه. ومن شِعر كليب نفسه الذي يذكر فيه وقعة (خزاز)[٤]قوله:

لَقَد عَرَفَت قَحطانُ صَبري وَنَجدَتي غَـــداةَ خَـــزازٍ وَالحُـــقـــوقُ دوان

غَداةَ شَفَيتُ النَّفسَ من ذُلِّ حميَرٍ وَأَورَثـتُـهـا ذُلّاً بِصـدقِ طِعـاني

زَلَفتُ إِلَيهِم بِالصَّفائِحِ وَالقَنا على كـلّ لَـيـثٍ مِـن بَـنـي غَـطَـفـانِ

وَوائِـلُ قَـد جَـذَّت مَـقـادِمَ يَـعـرُبٍ فَصَـدَّقَـهـا في صَـخـرِهـا الـثَـقَـلانِ

وقـد خرج من تغلب عدد من مشاهير شعـراء الجاهلية، منهم – كما يقول لويس شيخو[٥]:

كُلَيْـب وائـل، المهلهل أخو كُلَيْـب، الأخنس بن شهاب، جابر بـن حُنَيّ، أُفنون (صـيريم بن معشـر)، عَميرة بن جُعيل، عمرو بن كلثـوم، والسَّفَّاح التغلبيّ؛ وهو موضوع هذا البحث.

حياة «السَّفَّاح» وأخباره:

«السفـاح» هـو سلمة بن خالد بـن كعب بن زهير، من بنـي مالك بن بكر بن حبيـب التغلبـيّ. جدّه كعب بن زهـير، المشهور: بـ(ذو البرة)[٦] الذي يفتخر به عمرو بن كلثوم في مُعلّقته:

وَذو الـبُرَةِ الَّـذي حُـدِّثتَ عَنهُ ... بِـهِ نُحمَى وَنَحـمِي المُلْجَئينا

وقـد لُقِّبَ بالسفاح (يوم الكُلاب الأول)؛ «لأنـه لمَّا دنا من الكُلاب -وهو ماء بين البصرة والكوفة- عمد إلى مزاد أصحابه، فشقَّها وسفح ماءها، وقال: لا ماءَ لكم إلا ما القوم؛ فقاتلوا، وإلاَّ فموتوا عطشا»، وإلى هذا يشير الأخطل وهو يمدح قومه، ويهجو جريرًا:

أَبَـنـي كُـلَـيـبٍ إنَّ عَـمَّـيَّ الـلَـذا ... قَـتَـلا المُـلـوكَ وَفَـكَّـكـا الأَغـلالا
وَأَخـوهُـمـا السَـفَّـاحُ ظَـمَّـأَ خَـيلَهُ ... حَـتّـى وَرَدنَ جِـبـى الـكُـلابِ نِـهالا

كان «السفاح» أحد خُطباء تغلب في حرب البسوس؛ وفارسًا مقدامًا، يقال له: فارس (نُباك) –ونُباك فرسه– الذي يفتخر به في قوله لعمرو بن لأْي[٧] ساخرًا من بني الزمان، قائلاً:

فَـإنِّي لَـنْ يُـفَـارِقَـنـي نُـبـاكٌ ... يـرى الـتّـعـداءَ والـتّـقـريـبَ دِينـا

وكان –أيضًـا– جـرّار قومه «يوم كاظمة». وكانت العرب تقول للرجل إذا قاد ألفًا: جرَّارًا.

ولم تمدُّنا المصادر بكثيرٍ من أخبار السفاح، سوى ما يتصل بدوره في بعض حروب تغلب، وهذه في الحقيقة معلومات دون حجمه بكثير؛ إذ إنه كان قائدًا مظفرًا ثقة في (يوم خزاز)، ودوره في (يوم الكُلاب الأول)، وبينهما ما يربو على نصف القرن بكثير، وإنْ كان الشمشاطي التغلبيّ قد ذكر أيامه في كتابه "الأنوار ومحاسن الأشعار"؛ والتي تبرز مواقفه الحربية، وتجلي منزلته في قومه وفي غيرهم، وبخاصة أعداؤهم بنو بكر بن وائل.

هذا، أمَّا عن (يوم خزاز)[٨] الذي خرجت فيه قبيلتا بكر وتغلب، يَشدّ من أزرهما قبائل أخرى من معدّ، بقيادة كليب بن وائل، لترفع عن كاهليها النِّير اليمني، واستطاعتا أن تهزما جموع مَذْحج مِن عرب الجنوب –فقد جعل كليْب السفاح التغلبي على مقدمته في ذلك اليوم، «وأمرهم أن يوقدوا على خزار نارًا؛ ليهتدوا بها. وقال له: إنْ غشيك العدو فأوقد ناريْن».

فلمَّا وصلت «مذحج» بجموعها إلى خزاز ليلا؛ صدع السفاح بما أمر به «فلما رأى كُليْب الناريْن أقبل إليهم بجموعه، فصبّحهم ... واقتتلوا قتالاً شديدًا، أكثروا فيه من القتل، فانهزمت مذحج، وانفضت جموعها». وفي ذلك اليوم يقول السفاح التغلبي مفتخرًا[٩]:

وَلَيلةَ بتُّ أُوقِدُ في خَزازي ... هَديْتُ كتائبًا متحيِّرات
ضُلِلْن من السُّهاد وكُنَّ لولا ... سُهادُ القومِ –أَحْسَبُ– هادِيات
فمِلْن معَ الصَّباحِ على جُذامٍ ... ولَخْمٍ بالسُّيوفِ مُشهّرات

ويقول أيضًا:

شفينا النّفس من أوْلاد عادٍ ... وأوْردناهُمُ حَوْضَ الحِمامِ
وسُقنا الخيلَ ملجمةً إليهم ... بفُرسانٍ غطارفةٍ كرامِ

وقد افتخر بهذا اليوم بعض شعراء تغلب، منهم عمرو بن كلثوم في قوله[١٠]:

ونحنُ غداةَ أُوْقِدَ في خزازي رَفَدْنا فوقَ رفدِ الرَّافدينا
بنا اهتدتِ القبائلُ مِن معدٍّ بنارَيْنَا وكُنَّا المُوقدينا

ومنهم الفرزدق في قوله من قصيدة يخاطب بها جريرًا، ويهجوه[١١]:

لولا فوارسُ تغلبَ ابنةِ وائلٍ دخلَ العدوُّ عليك كلَّ مكانِ
ضربوا الصَّفائحَ والملوكَ وأوقدوا ناريْن أشرفتا على النِّيرانِ

هذا، وقد صور أبو عبيدة معمر بن المثنى في روايته لـ«يوم الكُلاب الأول» مدى إصرار السفاح التغلبيّ على الانتقام من عدوه، فيقول[١٢]:

«... ثم ورد سلمة ببني تغلب، سوعد، وجماعة الناس. قال: وعلى بني تغلب السفاح؛ وهو: سلمة بن خالد بن زهير بن كعب بن أسامة بن مالك بن بكر بن حبيب، وهو يقول:

إنّ الكُلابَ ماؤُنَا فخَلُّوهْ وسَاجِرًا واللهِ لَنْ تَحُلُّوهُ

ثمَّ يضمن روايته بعض ما قاله السفاح بعد انتصاره في هذا اليوم، فيقول:

«وقال السفاح في ذلك (مخاطبا إحدى نسائه):

هَلاّ سَأَلت وَرَيبُ الدّهرِ ذُو غِيَرٍ أَن كيفَ صَفقَتْنا ذُهْلَ بنَ شَيبانا
أَما بَنو الحصنِ إذ شالَت نَعامَتُهُم فَيَخرُجُ المَرءُ مِن ثَوبَيهِ عُريانا
أَما الرِبابُ فَوَلَّونا ظُهورَهُمُ وَأَجزَرونا أَبا سَلمى وَسُفيانا

وقال السفاح في ذلك أيضًا:

وردنا الكُلابَ على قومنا بأحسنِ وِرْدٍ لهيجا شعارا
وقد جَمعُوا جمعَهمْ كلَّه وجمعَ الرِّباب لنا مستعارا

أمَّا عن وفاة السفاح التغلبي، فقد قيل إنه قُتِل في أُخَر يوم الكلاب نحو ٥٥٥م. ويؤكد هذا التاريخ «منذر الجبوري» الذي انتهى من خلال الحوادث التي

كان ذكرها ثمّة إلى إمكانية القول: «بأن الكُلاب الأول يعود في تاريخه إلى أواخر النصف الأول من القرن السادس الميلادي»[١٣].

أغراض السفاح الشّعرية:

قليلة هي المصادر التي تناولت شِعر السفاح والأيام التي شارك فيها. واكتفى بعضها بإيراد بعض الأبيات أو المقطوعات له. وأقدم هذه المصادر هو كتاب (نقائض جرير والأخطل) المنسوب لأبي تمام؛ الذي يتضمن أحد عشر بيتًا من شِعره، جاءت في مقطوعتيْن؛ الأولى: ستة أبيات، والثانية: خمسة أبيات.

أمَّا أكثر هذه المصادر اهتمامًا بشعر السفاح فهو (كتاب الأنوار ومحاسن الأشعار) لأبي الحسن على بن محمد بن المطهر العدوي المعروف بالشمشاطي –من رجال القرن الرابع الهجري، ولعلَّ سِر هذا الاهتمام هو أن المؤلف من بني عدي من تغلب، كما أنه كان في خدمة بني حمدان (الحمدانيين)، وهم بطن من بطون تغلب؛ فلا غرابة أن يجمع في عهدهم ما يُعلي مِن قدرهم، ويشيد بمحتدهم– ومظهر هذا الاهتمام أن الكتاب قد احتوى على (٤٤) بيتًا من شعر السفاح موزعة في ثلاث مقطعات، وقصيدتين[١٤].

أمَّا حَظُّ شعر السَّفَّاح في العصر الحديث، فقد نلتمسه في ثلاث تجارب[١٥]:

التجربة الأولى: قام بها «لويس شيخو» في مُصنفه (كتاب شعراء النصرانية في الجاهلية)، حيث جعل السَّفَّاح ممن يدينون بالنصرانية، وترجم له ترجمة وجيزة، وسجّل من شِعره عشرة أبيات فقط، جاءت في عدة مقطعات، وبيت مفرد.

التجربة الثانية: قام بها «أيمن ميدان» في جمعه (شعراء تغلب) وتحقيقه. وكان حَظُّ السَّفَّاح منه اثنين وعشرين بيتًا فقط.

أمَّا التجربة الثالثة: فقد قام بها الدكتور «علي أبو زيد» في كتابه (شعراء تغلب في الجاهلية: أخبارهم وأشعارهم)، وها هو ذا يقول في ترجمته للسفاح:

وليس للسفاح ديوان شعر معروف، ولم يصل إلينا من شعره إلاَّ ما تناثر في ثنايا أخبار الأيام التي شارك فيها، ولم نقف له إلاَّ على عدد من المقطعات مجموع أبياتها ثلاثة وستون بيتًا.

وعلى الرغم من قلة هذا العدد الذي وصل إلينا من شعره؛ فإننا نستطيع أن نقف على أهم أغراضه، وأبرز سماته الفنية؛ حيث يدور شعر السفاح الذي بين أيدينا –مهما تعددت أغراضه: وصفًا، وفخرًا، ومدحًا، وقدحًا، وعتابًا، وتهديدًا، وحكمة– يدور هذا الشعر في دائرة المعارك والحروب، ولا يخرج منها.

فها هو ذا الشمشاطي التغلبي يُحدِّثنا عن (يوم أقطان ساجرا)[١٦]. فيقول: كان سبب هذا اليوم أن كثيف بن حبيّ التغلبي أغار على بكر بن وائل، في خيل من تغلب فظفر بهم، وأكثر القتل والأسر فيهم، وغنم سبْيًا ونَعمًا كثيرة.

ولحقه من بني ذُهل بن ثعلبة في خيل من بكر بن وائل؛ مالك بن الصامت – «وأُمُّه كَومةُ بنت ضليع، وبها كان ينسب» وعمرو بن الزّبان، فحميَ الوطيسُ بينهم، وأُسِر كثيف؛ أسره مالك وعمرو ثم اختلفا في أمره؛ حيث ادَّعى كلٌّ منهما أنه هو الذي أسره. وأخيرًا احتكما إلى كثيف نفسه، فشهد لمالك بن كومة؛ مما أغضب عمرًا على كثيف، ولطم وجهه. وهنا ثار مالك، وأنكر على عمرو فعلته، واشترى نصيبه بمائة من الإبل، وأعتق كثيفًا للطمة عمرو إياه.

فقال كَثيفٌ: يا مالكُ، أَمَا وديـن آبائك لا أُحلُّ حَـلَالاً ولا أُحرِّم حَرامًا، ولا يَمسُّ رأسي غِسْـلٌ، حتى أُدرِكَ ما صنَعَ بي عمرٌو، وأمّا أنتَ فقد استَوجَبْتَ المِنّةَ عليَّ. وقال كَثيفٌ:

حَلَفْتُ بما لَبَّي له كُلُّ مُحْرِم	له لِمّةٌ حُفَّتْ من الشَّعرِ الجَثْلِ
يَمينًا أَرَى مِنْ آلِ زَبَّانَ وَاتِرًا	لِيَطْلُبَ مِنّي دُونَ قَاطِعَةِ الحَبْلِ
جَزَاءً بما أَسْدَى إليَّ أَخوهُمُ	لِيعْلَمَ أَنّ الحِلْمَ أَدْنَى من الجَهْلِ
وأَجْزِي بِمَا أَسْدَى من الخَيْرِ مالِكًا	أُكَافِئُ ذَوِي الأَحْسابِ والفَضْلِ بالفَضْلِ

وظل كثيفٌ بعد ذلك مدة؛ منتظرًا الفرصة التي واتته حين خرج ستةُ نفرٍ من بنـي الزبان فيهم عمرو؛ لطلب إبلٍ نـدّت منهم، حين وجدوها، نحروا ولد واحدة منهـا قد نتجت لوقتهـا، وبينما هم يأكلـون؛ إذ رآهم (خوتعـة) –وهو رجل من غفيلـة بـن قاسط– الذي ضربت العرب المثل به، فقيـل: «أشأم من خوتعة»؛ ففرَّ مسرعًـا؛ وعرّف كثيفًا خبرهـم. فركب توًّا في أربعين فارسًـا، فأخذهم مقتدرًا، وقتلهـم «وجعـل رءوسهـم في غـرارة (مخلاة) وعلقهـا في عنـق الدُّهيم –ناقة لعمـرو بن الزبان– وفيها يقول العرب «أشأم من الدُّهيم» مثلا، و«أثقل من حَمْلِ الدُّهيم».

وحين وصلت الناقة إلى الزبان، ونظر رؤوس أبنائه، صرخ مستنجدًا بقومه، فهُرعـوا إليه من كل صوْب، بيد أنهم ظلـوا جميعًا حينًا من الدهر لا يعرفون عن الجُناة شيئًا، حتى وقف عمرو بن لأْي على الحقيقة كاملة، بدءًا من الغفلي الذي دلَّ عليهـم، ونهاية بمـن قتلهم ومثّل بهم. حينئذٍ آلى الزبـان على نفسه ألاَّ يحرِّم "دم غُفلـيٍّ أبـدًا، حتى يدلّوه على عدوّه، كما دلّوا على بنيه، ويدرك ثأره من بني تغلب". وأنشد في ذلك شعرًا، منه قوله مصوِّرًا، مُحرِّضًا، مهددًا:

إنّـنـي قـدْ أتَـتْ إليَّ قَـلُوصـي ... بـأُمـورٍ يَـطِـيـحُ فـيـهـا الـكـبـارُ
عُضْلَة تَحْمِلُ الدَهيَّ مِنَ الأَمْـرِ ... وفـيـهـا تَـشَـدُّدٌ ونـفَـارُ
قَـتَـلُـوا سِـتَّـةً بـغَـيْرِ قَـتِـيـلٍ ... ذلـكَ الـذُّلُّ بَـعْـدهُـمْ والـصَّـغارُ
إن نَجـتْ نَجْـوَةً بتَغلبَ أو نَجَّـ ... ـتْ عـلَـى نَـأْيـهـا غُـفَـيـلَـةَ دارُ
قَـبْـلَ أن نَـثْـأَرَ الـقـتِـيـلَ بقَـتْـلَـي ... بـعْـدَ قَـتْـلَـى وتُـنْـقَـضَ الأَوْتَـارُ
فـلَـقـدْ نَـالَـنَـا بِـذلـك عـارٌ ... وكَـفَـانَـا بِـذي الـرَّزِيَّـةِ عـارُ

هـذا، وقد قال السّفاح التغلبيّ في شأن هـذه المغاورة، وما صنعه كثيف ببني الزبان، مُعَرِّضًا بهم، متهكمًا بعمرو بن لأْي:

أَلاَ يـا لـلـظَّـعَـائـنِ لـوْ سَـرِيْـنَـا ... لَـعـلَّ الخَـيْـلَ يـقْـضِـيـهـنّ دَيْـنَـا

فلَمّا أَنْ أَتَيْنَ على ثَميل تَأَزَّرْنَ المَجاسِدَ وارْتَدَيْنَا
أَلاَ من مُبْلِغٌ عَمْرو بنَ لأْيٍ بأَنَّ بَنَانَ ولَدته لَدَيْنَا
فلَم نَقْتُلْهُمُ بدَمٍ ولكِنْ هَوانُهُمُ ولُومُهمُ علَيْنَا

ويشير الشمشاطي أن الزّبان ظل عشر سنين لم يدرك ثأره، حتى جاءه (وقشٌ) –وهو رجل من غُفيلة– فأسرَّ إليه أن بعضًا من أعدائه (بالأقَاطن)؛ فنهض الزبان فورًا، ونادى: يالَبكر، فهُرع إليه بنو ثعلبة وسار بهم، وفاجأ أعداءه وقتل منهم ثلاثة عشر رجلا؛ منهم «أبو محيّاة بن زهير؛ عمّ السفاح»، وغيره ممن ورد في قول عمرو بن لأي شامتًا، مفتخرًا:

ألا مَن مُبلغُ السفّاح أنّا قَتَلْنَا عن زُهير ما ابْتَغَيْنَا
قَتَلْنَا مالكًا وأَخاه عَمْرًا وحَيَّ بني أُسَامَةَ واشْتَفَيْنَا
وأنا لَن يُقَوِّمَنا ثقافٌ ولا ضَرْبٌ إذا نحْنُ الْتَقَيْنَا
قَتَلْنَاكُمْ بقَتْلَانا، وزِدْنَا ورأْسَ أَبي مُحَيّاةَ اخْتَلَيْنَا

وتقول الرواية: «فقالت بنو تَغلب للسّفاح أَجِبْ عَمْرًا فقال: لا، أَوَ تَفْعلوا كما فعَلَ القومُ». ويبدو أن الشّمشاطيّ بحكم تعصّبه لقومه بني تغلب، لمْ يُشِر إلى ما صنعه الزبان بجثث القتلى... من حيث تفيد رواية أبي تمام[١٧] أن الزّبان قتلهم، وقذف جيفهم بالأقطانتين، وهي ركية – أي بئر، وهذا ما أكّده السفاح التغلبيّ بقوله منصفًا، معاتبًا، مهددًا خصمه:

أَبني أَبي سَعد وَأَنتُم إخوَةٌ وَعِتابُ بَعد اليَوم شَيءٌ أَفقَمُ
هَلا بِخَيركُمُ كَفَفتُم شَرَّكُم عَنّي وَلَم يُهتَك لَكُم بي مَحرَمُ
هَلا خَشيتُم أَن أُصادِفَ مِثلَها مِنكُم فَتَترككم كَمَنْ لا يَعلَمُ
مَلأوا مِن الأَقطانَتَين رَكِيَّةً مِنّا وَآبُوا سالِمين وَغُنِّمُوا
قَتَلوا تَعَنِّيَةً بِظَنَّةِ واحِدٍ تِلكَ المُقطِّرُ مِن أَسِرَّتِها الدَّمُ
فيدي لَكُم رَهنٌ بِيَومٍ مُفسِدٍ وَبِوَقعَةٍ فيها عِقابٌ صَيلَمُ

هـذا وتتصـل أحداث (يوم بطن حنين) بأحداث ما قبلـه، إذْ إن السفاح قد رحـل ببنـي مالك وبني جشم؛ فظنـت بكر بن وائل أن بني تغلـب قد رحلت خوفًا منهم «فأمنوا، وقالوا: لا ترجع تغلب إلى عزها، أو يرجع إليها كليب».

وكان الزبـان بعد أن أدرك ثأره، قد أطلق سراح (وقّش الغُفليّ) وجماعةً من الغُفَليّين معه. وتصادف –وهمْ في طريقهم إلى أهاليهم– خروج السفاح التغلبيّ يريـد بكر بن وائل، فأخذهم «وقال: هـذا أول الظّفر، هؤلاء أحبُّ إليَّ من ظفري ببني ثعلبة بن عكابة، فقتلهم».

وتحسّـس السفاح طريقـه إلى بكر بن وائـل، وأرسل طلائعـه وعيونه إليهم فحـزروا بيوتهـم «فإذا هي نيّف وستـون بيتًا». ولمَّا قرب السفـاح منها عند طلوع الفجْـر «سمع غلامًا يمْتـح دلوًا ليسقيَ نَعمـه، وهو ينادي برفيق لـه: أوْرِدْهُنَّ يا عـوف. فقال السفـاح: لبيك لبيك وصـب عليهم الخيل، فلم ينهـض القوم حتى واسطهـم البيوت، فقتل منهـم ثمانية وخمسين رجلا، وأفلـت نفر في سواد الليل وأخذ رؤوسهم على الإبل. وقالت بنو تغلب للسَّفاح: أجب الآن عمرو بن لأْي، فقال: أمَّـا اليوم فنعم». وقالوا صفًا مسيرته إلى عدوه، متهكمًا بهم، مفتخرًا بدرْك ثأره منهم[١٨]:

جَلبنَا الخيلَ من قَنَوَيْنِ قُبًّا ... فـأَوْرَدْنَـا نَـوَاحِيَـهَـا حُنَيْنَا
ولَمّـا صَـاحَ صَـائحُـهمْ جِـهَـارًا ... أَلاَ يـا عَـوْفُ أَوْرِدْهـا عَلَيْنَا
فَلَبَّيْتُ الصَّـرِيخَ ولمْ يَـرَوْنَـا ... ولا حَسُّـوا بنـا حَتَّـى اعْتَلَيْنَا
فنلْتُ الثَّأْرَ واسْتَضْعَفْتُ منهمْ ... مِـنَ القَتْلَى بما أَسْـدَوْا إِلَيْنَا
ومِـنْ حَيَّيْ غُفَيْلَةَ قَدْ شَفَيْنَا ... نُفُوسَ بَنِـي أَبِـيـنَـا واشْتَفَيْنا
أَلاَ يَـا آلَ ثَعْلَبَةَ بنِ ذُهْـلٍ ... أَجُـرْنَـا في العِقَاب أَم اهْتَدَيْنَا؟!

ويبـدو أن السّفـاح كان مزهُوًّا سعيدًا بما حقّق (يـوم بطن حنين)؛ إذ إنه لمَّا رجـع إلى قومـه طفق يعزف على قيثارة شعره؛ واصفًـا معركته؛ مشيدًا بشجاعة

جنوده وبسالتهم وأصالتهم وخبرتهم، واكتمال أدواتهم؛ مفتخرًا بقوته وشجاعته وبلائه، قائلا:

وكَتيبةٍ لَفَّفْتُهَا بكَتيبةٍ ... شَهْبَاءَ باسلةٍ يُخَافُ رَدَاهَا
خَرْسَاءَ ظاهرَةِ الأَدَاةِ كأَنّها ... نَارٌ يُشَبُّ سَعيرُهَا بلَظَاهَا
فيها الكُمَاةُ بَنُو الكُمَاةِ كأَنهُمْ ... والخَيْلُ تَعْثُرُ في الوَغَى بقَنَاهَا
شُهُبٌ بأَيْدي القَابسينَ إذَا بَدتْ ... بأَكُفِّهِمْ بَهَرَ الظَّلامَ سَنَاهَا
مِنْ كُلِّ أَرْوَعَ مَاجِدٍ ذي مِرَّةٍ ... أَنَّى إذَا لَحِقَتْ خُصىً بكُلاَهَا

ومنها قوله مفتخرًا ببلائه:

وغَشيتُ قَيْسًا في القَليبِ غُدَيّةً ... وطَعَنْتُ أَوَّل فارسٍ أُولاَهَا
وضَرَبْتُ في أَبْطَالِهِمْ فتَجَدَّلُوا ... وحَمَلْتُ مُهْرِى وَسْطَهَا فحَمَاهَا

ومنها قوله متهكمًا بعمرو بن لأُي، ومفتخرًا بنفسه وقومه:

قُلْ لابْنِ لأْيٍ هَلْ ثَأَرْتُ بمَعْشَرِي؟! ... أَمْ هَل مُغَاوَرَةٌ ولا أَغْشَاهَا
للهِ درُّ بَني زُهَيْرٍ في الوَغَى ... يَوْمَ الطِّعَانِ إذَا انْتَمَى قِرْنَاهَا

ويبدو كذلك أن السّفاح التغلبيّ لا همَّ له في حياته إلاَّ تأريث الحروب، وإشعال المعارك، والخروج من معركة إلى أخرى؛ فها هو ذا الشمشاطي يمدنا بأحداث يوم آخَر، نرى السفاح فيه ملجأ لمن يستغيث به، وحماية لمن يلجأ إليه –مما يؤكد بُعد صيته، وسمو منزلته فارسًا مغوارًا– كما نراه في هذا اليوم قائدًا مظفرًا، ومُنصفًا، هذا اليوم هو (يوم لتغلب على هوازن) – يوم أن خرج السفاح في خيل غفيرة من بني تغلب ناشدًا الغارة على بني تميم، بَيْد أنه لم يجاوز بيوت الحيّ، حتى التقى في حلك الليل براكب يتغنّى قائلا[١٩]:

هلْ من رَسُولٍ إلى السَّفّاحِ يُخْبِرُه ... أَنَّ القَبِيلَيْنِ مِنْ نَصْرٍ ومن جُشَمِ

سَارُوا إلى الخَيْف أَنْصَارًا لإِخْوَتِهِمْ ... فالدَّارُ تنْعشُ بالنِّسْوانِ والنَّعَم
إمّا تَنَلْهُمْ بأَمْرٍ كُنْتَ تَأْمُلُه ... أَو يَسْبِقُوا تَنْهَسِ الكَفَّيْنِ مِنْ نَدَمِ
إنّي إذَا ذَكَرَتْ نَفْسِي غَنِيمَتَهمْ ... جَاشتْ إليَّ ولَيْس الأَمْرُ بالأَمَم
لَسْنَا إلى جُشَم نَهْدِي رِيَاسَتَها ... يَا ابْنَ الكِرَام ولاَ عَمْرٍو ولا عُصَم

وعلِمَ السفاحُ منه أنه رجل من خثعم كان جارًا لبني جُشم، وأنهم خرجوا لينصروا هوازن على قومه... وهنا يقول الخثعمي مخاطبًا السفاح:

«فعاهدت اللّهَ أن أقود إليهم فرسان تغلب، فكنتُ رئيسها وزمامها. فقال: ما أردنا غير تميم، وإنَّ عهدنا بهوازن لقريب، ولكن مُشَفّعوك بحاجتك، فسِر أمامنا».

وساروا حتى صبَّحوا القومَ على ماءٍ لهم، «وقد اجتمع كعبٌ وكلاب ونصر وجُشم وغدانة؛ مخافة الغارة عليهم ورئيس القوم عُمارة بن مالك، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، وحمل عُمارة على السفاح فطعنه فصرعه. ولكن بنو زهير قد حاموا حوله، واستنقذوه، فركب فرسه مغضبًا، وشدَّ على عُمارة فقتله، وقُتل كثيرٌ ممن معه على رأسهم عبدالله بن كعب بن ضباب، فانهزموا هزيمة منكرة، وغنم السَّفاحُ ما في دارهم من نَعَم، وسبى سبْيًا كثيرًا.

هذا، وقد قال السفاح في قتله عامرة ومحاماة بني زهير عليه. وفي قوله إنصاف للخصم؛ قوته وعدته؛ واعتراف بجميل قومه والتفافهم حوله، وإنقاذهم له، وإشادةٌ بشجاعتهم وخبرتهم؛ ووصفٌ لمعركته؛ وفخرٌ بقوته وظفره:

لقد حامَتْ عليَّ بَنُو زُهيْرٍ ... ببِيضِ الهِنْدِ والأَسَلِ الحِرَارِ
غَدَاةَ عُمَارَةُ الجُشَميُّ يَسْمُو ... سُمُوَّ الفَحْلِ في ضَبَعِ البكَارِ
علَى قبَّاءَ تَخْفِقُ أَيْطَلاَهَا ... سنُون المَتْنِ كالمَسَدِ المُغَارِ
فيَطْعُنُني وأَطْعُنُه خِلاَسًا ... كخَطْفِ الصَّقْرِ أَعْشَاشَ القِفَارِ

مَـلِـيًّـا ثُـمَّ أَضْـرِبُـهُ بِـعَـضْـبٍ تُـطِـيرُ ظُـبَـاتُـهُ لَـهَـبَ الـشَّـرارِ
فَـخَـرَّ لِـوَجْـهِـهِ يَـكْبُـو صَـرِيـعًـا كَـأَنَّ شِـئُـونَـهـا فِـلَـقُ الـنُّـجـارِ

ولَمَّـا رجع السّفّاح إلى قومه «أقبل عليه بعض نسائه تلومُه على كثرة غزواته، ومباشـرة الحـرب بنفسه، فقال» –وفي قوله إشادة بعدَّتـه: سيفه وفرسه؛ وفخر بنفسـه وبلائه في المعارك وبخاصة يوم هوازن؛ وفيـه كذلك التغنِّي بفرسان بني تغلب مبداهم ومحضرهم–:

تَقُولُ ابنَةُ العَمْرِيِّ مَالَكَ لا نَرَى لَـك الـدَّهْـرَ إلاَّ هَـمَّ حَـرْبٍ تَسَعَّرُ
عَـتَـادُك مِـنـهـا لأْمَـةٌ تُـبَّـعِـيَّـةٌ وأَبْـيَـضُ مِـن مَـاءِ الحَـدِيـدِ ومِغْفَرُ
وأَسْـمَـرُ خَـطِّـيٌّ كَـأَنَّ كُـعُـوبَـه نَـوَى القَسْبِ فيه كالذُّبَالَةِ يَزْهَرُ
وأَجْـرَدُ مِـثْـلُ الـقِـدْحِ جَـأْبٌ كأَنَّـه ظَـلِـيمٌ بِـأَعْـلَـى الـرَّقْـمَـتَـيْنِ مُـنَـفَّـرُ

ومنها قوله:

وإنَّـك لـو أَبْـصَـرْتَـنـي يـوْمَ صَـبَّـحتْ هَـوَازِنَ أَمْـثَـالُ الـسَّـرَاحِـينِ ضُـمَّـرُ
عَلَيْهَا الأُلَى مِنْ تَغْلِبَ ابْنَةِ وَائِلٍ لهُمْ في قَدِيمِ المَجْدِ مَبْدًى ومَحْضَرُ
لأَيقَنْتِ أَنّي فَارِسُ الخَيْلِ والَّذي إلـيـه الـعَـوَالي والـصَّـفِـيحُ المُـذَكَّـرُ
كَـيَـوْمَـيَّ في حَـيَّـيْ فُـقَـيْـمٍ ونَـهْـشَـل ولا مِـثْـلَ مـا لاَقـى الـضِّـبَـابُ وجَـعفَـرُ

هذا؛ وقد يبدو طابع الفخر واضحًا جليًّا عند السفّاح، في حين جاءت الحكمة قليلـةً سطحية فيمـا وصلنا من شعره، منها قوله مخاطبًـا زوجه ابنة العمريّ في القصيدة السابقة:

فقلتُ لَـها: لا الـغَـزْو يُـدْنِي منيّةً وَلَـنْ يَـدْفَـعَ الإشْـفَـاقُ مـا كُـنْتُ أَحْـذَرُ

وقوله من شعر بعد انتصاره (يوم الكلاب الأول) مخاطبًا زوجه:

هـلاَّ سألتِ وريـبُ الـدَّهـر ذو غِـيَـرٍ أن كيفَ صفقتنا ذُهْـلَ بن شيبانا؟!

شاعرية السفاح في ميزان النقد:

أ) اللغة والأسلوب :

شاعرية «السفاح التغلبيّ» صورة من حياته التي لا تعرف الراحة والاستقرار، ولا تسمح له بفرصة للتأمل في اختيار ألفاظه، أو صياغة معانيه، أو تصوير أفكاره؛ كما لم تُهيِّئ له أمر مراجعتها وإعادة النظر فيها لتنقيحها شأن أصحاب الحوليّات من الشعراء، بلْ جاء شعره ابن اللحظة الخاطفة، صادرًا في ألفاظه ومعانيه وصوره عن بيئته العامة، ومهمته الخاصة في حياته –قائدًا حربيًّا، يعشق الحروب، ويطرب لصليل السيوف، ويلذُّ له منظر الدماء– ومن ثَمَّ نرى خفّة في الألفاظ، وسهولة في الأسلوب، وقُربًا في التصوير وتدفّقًا في الموسيقى»، والمنظوم الجيّد ما خرج مخرج المنثور في سلاسته، وسهولته، واستوائه، وقلة ضروراته»[٢٠].

لم يخرج السفاح التغلبي عن الواقعية في شعره، وقد التزم بعرض الأحداث والظروف والملابسات التي أحاطت بها أو دفعت إليها فقط، دون النظرة المثالية إليها، كما اعتمد على الوقائع، وعُني بالتعبير عنها تعبيرًا صادقًا أمينًا، لا تكلُّف فيه ولا تهويل.

ومن مظاهر التزامه بتلك الواقعية: كثرةُ ورود أسماء القبائل والأعلام – الذين لهم أثر في معاركه، وظهور في حياته– في شعره، مثل:

(جذام ولخم – ذهل بن شيبان – آلْ ثعلبة بن ذهل – بنو الحصن – الرّباب – الضباب – هوازن – فقيْم ونهشل – بنو أبي سعد – عمارة بن مالك سيد هوازن – عمرو بن لأيٍ من أشراف بكر بن وائل في الجاهلية، وفارس مِجْلز – أبو سلمى، وهو «هرمي بن رياح بن يربوع بن حارثة بن سليط بن يربوع» – وسفيان «بن حارثة بن سليط بن يربوع ، (وقيل): ابن سعدان جارية ابن سليط»

– بنو زهير – ابنة العمري وهي إحدى نسائه)، وغير ذلك مما ورد في شعره.

ومن مظاهر التزامه بالواقعية أيضًا: كثرة ورود أسماء الأماكن والجبال والمياه التي دارت معاركه فيها وأحوالها، مثل:

خزاز– الكلاب– ساجر –الأقطانتان –الرقمتان –قنوان –حنين – ثُمَيْل– القليب، وغيرها.

هذا، والسفاح التغلبي لا يصور معاركه إلا بعد الانتهاء منها، ومن ثَمَّ كان موقفه منها موقف القاص أو الحاكي، ولعل هذا كان من أسباب شيوع الأفعال في شعره، حيث بلغت الجمل الفعلية –في هذا القدر الذي وصل إلينا من شعره، وهو (٦٣) بيتًا– بلغت هذه الجمل (١١٥) جملة. كان نصيب الجملة الفعلية الماضوية منها (٧٠)، وحظ الجملة المضارعية (٤٢)، أمَّا فعل الأمر فقد ورد (٣) مرات فقط.

ولا غرابة أن يسود الفعل الماضي في شعره – بلْ يسود في المقطوعة الواحدة أحيانًا فالماضي من أقوى الوسائل لتأكيد الحوادث وتقريرها.

على أن السّفاح إذا أراد أن يعيد تصوير هذه الأحداث أمام الآخَر –وبخاصة زوجه– فقد تتعادل الجمل المضارعية والماضويّة، وقد تتفوّق الأولى عليها؛ لِما للجملة المضارعية من قيمةٍ تصويريّة، وما تفيده الأفعال المضارعة من تجدد واستمرار يجعلان للأحداث حضورًا متصلاً، وكأنها تقع في الوقت الحاضر، وتتوالى أمام المتلقي.

ومن الأدلة على ذلك قصيدته الرائية التي يخاطب فيها زوجه التي تلومه على كثرة غزواته وبماشرة الحرب بنفسه. والقصيدة من خمسة عشر بيتًا، تشتمل على خمس عشرة جملة فعلية فعلها مضارع، وإحدى عشرة جملة فعلها ماض، ومنها:

تَقُولُ ابنَةُ العَمْرِيِّ مَالَكَ لا نَرَى ... لك الدَّهْرَ إلاَّ هَمَّ حَرْبٍ تَسَعَّرُ
فقلتُ لَها: لا الغَزْو يُدْني منيّةً ... وَلَنْ يَدْفَعَ الإشْفَاقُ ما كُنْتُ أَحْذَرُ
وإنَّك لو أَبْصَرْتِني يوْمَ صَبَّحْتُ ... هَوَازِنَ أَمْثَالُ السَّرَاحِينِ ضُمَّرُ
أُعَرِّضُهَا للطَّعْنِ في كُلّ غَمْرةٍ ... فتَسلَمُ أَحْيَانًا وحِينًا تُعَفَّرُ
لأَيقَنْتِ أَنّي فَارِسُ الخَيْلِ والَّذي ... عليه العَوَالي والصَّفِيحُ المُذَكَّرُ

هذا، وإذا كنّا نرى أن موقف السفاح من تجاربه موقف القاص أوْ الحاكي؛ فإننا كذلك نحسّ أن كل تجربة من تجاربه، أو كل مقطعة من مقطعاته تُمثِّل قصة قصيرة، عُني فيها السفاح برسم شخصياته، وإبراز الصفات التي تتميز بها كل شخصية منها؛ كما عُني بعرض الأحداث، وتحديد زمانها ومكانها، كقوله بعد انتصاره في (يوم الكُلاب الأول)؛ مخاطبًا زوجه:

هَلا سَأَلت وَرَيبُ الدَهرِ ذُو غِيَرٍ ... أَن كيفَ صَفَقتُنا ذُهلَ بنَ شَيبانا
صَدُّوا عَن الماء يَسقُونَ ذا كَلَمٍ ... وَنَحنُ نَسقي عَلى الأَحساء كَلمانا
في كُلِّ حَيٍّ مِنَ الحَيَّينِ أُبَّهَةٌ ... وَنَحنُ أَكثَرُ مَغبوطًا وَجَذلانا
أَما بَنو الحصنِ إذ شالَت نَعامَتُهُم ... فَيَخرُجُ المَرءُ مِن ثَوبَيهِ عُريانا
أَما الرِّبابُ فَوَلَّونا ظُهورَهُمُ ... وَأَجزَرونا أَبا سُلمى وَسُفيانا

ففي هذه الأقصوصة –أوْ المقطوعة– نرى مدى احتفاء الشاعر بذِكْر الشخصيات التي تتمثل في شخصيته وشخصية بني زهير المنتصرين المظفرين: (صفقتنا – ونحن نسقي - ونحن أكثر ... – و(نا) في قوله (فَوَلَّونا)، (وأجْزرونا). كما تتمثل في شخصية أعدائه عامة (ذهل بن شيبان)، ثم (بني الحصن)، منهم الذين غنموا الذل والعار، ثم (الرِّباب) الذين فروا، أو كما يقول أبو تمام[٢١]: «وكان شرحبيل في تميم والرِّباب، فولت تميم والرِّباب»،– مع ما تحمله عبارة السفاح في شأنهم من تهكم، وإقذاع في قوله: (فَوَلَّونا ظُهورَهُمُ)،

ثم شخصيتي أبي سُلمى وسُفيان، وما نالهما من مهانة القتل التي تتبدى في قول السفـاح: (وَأَجْزَرونـا) كأنهما حيوانان قُدِّما للذبح نجـاة لإخوانهم، أو فدية لمن نجا منهم.

أمَّـا الأحداث في تلك الأقصوصة فواضحـة في مجريات المعركة من (صفق ذهل بن شيبان)، وصدّهم عن الماء، وهزيمة بني الحصن وتفرق كلمتهم، وفرار الرِّباب، وقتل –جزر– أبي سُلمى وسُفيان.

أمَّـا المكان فهـو (الكُلاب: بين البصرة والكوفة وذلـك على بضع عشرة ليلة مـن اليمامـة)، كما يقـول أبو عبيـدة[٢٢]، وقد حـدَّدَه السَّفَّـاح في أقصوصته – مقطوعته– بقوله:

صُدّوا عن الماء، ما يسقُون ذا كلَمٍ ونحن نسقي على الإحساء كلمانا

أمَّـا الزمان فهو وقت وقوع القتال بين الفريقـين، وهو الوقت الذي حلت فيه الهزيمة ببني شيبان، كما أشار السفاح في قوله:

هَـلا سَـأَلت وَرَيـبُ الـدَهـرِ ذُو غِيَرٍ أَن كيفَ صَفقَتُنا ذُهْـلَ بـنَ شَيبانا
صَـدُّوا عَـن المـاءِ يَسـقُونَ ذا كَلَـم وَنَحنُ نَسقي عَلى الأَحساءِ كَلمانا

أيْ: يـوم صُـدُّوا عن الماء، وهذا الزمن يشير إليـه أبو عبيدة معمر بن المثنى في قولـه[٢٣]: «فاقتتل القوم قتـالاً شديدًا، وثبت بعضهم لبعض حتى إذا كان آخِر النهـار مـن ذلك اليوم خذلت بنو حنظلة وعمرو بن تميـم والرِّباب بكرَ بن وائل، وانصرفـت بنـو سعد وألفافها عن بنـي تغلب، وصبر ابنا وائلٍ بكـرٌ وتغلبٌ، ليس معهـم غيْرهم حتى غشيهم الليل، ونادى منادي شرَحْبيل: من أتاني برأس سلمة فلـه مائـة من الإبل، ونادى منادي سلمة: من أتـاني برأس شرحبيل فله مائة من الإبل ...» إلى آخر أحداث ذلك اليوم «يوم الكُلاب الأول».

هـذا، ومن أبـرز سمات السَّفَّـاح الأسلوبية: اتكاؤه على الوصـف، وميله إلى

تعـدّد الصفات، وكثرة المترادفات، فضلاً عن ولعـه بتوضيح الشيء بعد إبهامه، وتفصيلـه بعد إجماله، وبيان هيئته عند ملابسـة الحدث له. وأجود الوصف «ما يستوعـب أكثر معاني الموصـوف، حتى كأنه يصـوّر الموصوف لك، فـتراه نُصْبَ عينك»[٢٤]، كما يقول أبو هلال العسكري.

ومن شواهد ذلك في شعر السفاح قوله في (يوم خزاز):

شَفَينا النَّفسَ من أوْلادِ عادٍ ... وأوْرَدْنـاهُـمُ حَـوْضَ الحِمامِ
وسُقنا الخيلَ ملجمةً إليهم ... بـفُـرسـانٍ غـطـارفـةٍ كِـرامِ

وقوله لمَّا رجع إلى قومه (يوم بطن حنين):

وكَتيبةٍ لَفَّفْتُهَا بكَتيبةٍ ... شَهْبَاءَ باسِلةٍ يُخَافُ رَدَاهَا
خَرْسَاءَ ظاهِرَةِ الأَدَاةِ كأَنّها ... نَارٌ يُشَبُّ سَعِيرُهَا بلَظَاهَا

لم يعتمد السَّفاح في التعبير عن هذه الأحداث في شعره على عنصري السرد والحكـي، وتعدد الصفات وحدهما، بلْ نجد لعنصر الحوار أثرًا في نسيج أسلوبه وحيويته على ما يظهر من قوله مخاطبًا زوجه:

هلاَّ سألتِ وريبُ الدَّهْرِ ذو غِيَرٍ ... أنْ كيف صفقنا ذُهْلَ بن شيبانا؟

وقوله مخاطبًا إياها أيضًا:

تقولُ ابنةُ العمريِّ مالكَ لا نَرَى ... لكَ الدَّهرَ إلاَّ هَمَّ حربٍ تُسَعِّرُ؟
فقلتُ لها: لا الغزوُ يُدْني منيّةً ... ولن يدفعَ الإشفاقُ ما كنت أحذَرُ

هذا، ومما زاد خفّة تعبير السفاح في شعره تنوعُ أسلوبه بين الخبر والإنشاء، كقوله في نهاية قصيدته، بعد عودته من (يوم بطن حنين) وانتصاره:

قلْ لأبن لأْيٍ: هل ثأرت بمعْشَري ... أم هـل مُـغـارةٌ ولا أغْشـاهـا؟
لله دَرُّ بـنـي زهـيـرٍ في الـوغـى ... يـومَ الطِّعانِ إذا انتمى قِرْنَاها

وقوله: «لما رجع إلى بني تغلب، وقد قتل بني الزبان»:

أَلاَ يا لِلظَّعَائِنِ لَوْ سَرِيْنَا ... لَعلّ الخَيْلَ يقْضِيهِنّ دَيْنَا
فلَمّا أَنْ أَتَيْنَ على ثَمِيلٍ ... تَأَزَّرْنَ المَجَاسِدَ وارْتَدَيْنَا
أَلاَ مِن مُبْلِغٌ عَمْرو بنَ لأْيٍ ... بِأَنّ بَنَانَ ولدته لَدِيْنَا
فلَم نَقْتُلْهُمُ بِدَمٍ ولكِنْ ... هَوانُهُمُ ولُومُهُمُ علَيْنَا

ومن الأساليب الشائعة التي وظَّفها السفاح في شِعره؛ تأكيدًا لمعانيه، وتجديدًا لعباراته أسلوبُ التقديم والتأخير الذي يرى فيه عبد القاهر الجرجاني أنه: «باب كثير الفوائد، جمّ المحاسن، كثير التصرّف، بعيد الغاية، لا يزال يفترّ لك عن بديعه، ويقضي بك إلى لطيفه، ولا تزال ترى شعرًا يروقك مسمعه، يلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطُف عندك؛ أن قُدِّم فيه شيء وحُوّل اللفظ عن مكان إلى مكان»[٢٥].

ومن شواهده قول السفاح من قصيدته التي يخاطب فيها زوجه – مزهوًّا بخيله ورجله:

وإنَّك لو أَبْصَرْتني يوْمَ صَبَّحْتْ ... هَوَازِنَ أَمْثَالُ السَّرَاحِينِ ضُمَّرُ
أُعَرِّضُهَا للطَّعنِ في كُلّ غَمْرةٍ ... فتَسلَمُ أَحْيَانًا وحِينًا تُعَفَّرُ
عَلَيْهَا الأُلَى مِنْ تَغْلبَ ابْنةِ وَائِلٍ ... لهُمْ في قَدِيمِ المَجْدِ مَبْدًى ومَحْضَرُ
لأَيقَنْتِ أَنّي فَارِسُ الخَيْلِ والَّذي ... إليه العَوَالي والصَّفِيحُ المُذَكَّرُ

وقوله من قصيدته التي تغنَّى بها لمَّا رجع إلى قومه (يوم بطن حُنين) منتصرًا على بني ثعلبة، مشيرًا إلى كتيبته، فخورًا باكتمال أدواتها:

فيها الكُمَاةُ بَنُو الكُمَاةِ كأَنَّهُمْ ... والخَيْلُ تَعْثُرُ في الوَغَى بقَنَاهَا
شُهُبٌ بأَيْدِي القَابِسِينَ إذَا بَدتْ ... بأَكُفِّهِمْ بَهَرَ الظَّلامَ سَنَاهَا

ب) الصـورة الفنيّـة :

الصورة في شعر السَّفَّاح جزئية غالبًا، وهي قريبة بسيطة تعتمد على التشبيه الـذي يزيـد المعنى وضوحًـا، ويكسبه تأكيدًا. ولعـلَّ السبب في قربهـا وبساطتها انتزاعهـا مـن البيئة الجاهلية؛ حروبهـا وصحرائها، وعاداتهـا وتقاليدها. ومن نماذج الصورة الجزئية، قوله في وصف (كتيبة):

خـرسـاءَ ظـاهـرةِ الأداة كأنها ... نـارٌ يـشـبُّ سـعـيرُهـا بـلـظـاهـا

وقوله في وصف سيفه وفرسه:

وأَسـمَـرُ خَـطِّـيٌّ كـأَنّ كُـعُـوبَـهُ ... نَـوَى القَسْبِ فيه كالذُّبَالةِ يَزْهَرُ

وأَجْـرَدُ مِـثْـلُ الـقِـدْحِ جَـأْبٌ كأَنَّه ... ظَـلِـيمٌ بـأَعْـلَـى الـرَّقْـمـتَـيْنِ مُـنَـفَّـرُ

وقولـه كناية عن ظفره وانتصـاره على بكر بن وائل ومـن انتمى إليهم «يوم الكلاب الأول»:

وردنـا الـكُـلابَ عـلـى قـومـنـا ... بـأحْـسـنِ وِرْدٍ لـهـيْـجـا شِـعـارا

وقـد جـمَـعُـوا جـمـعَـهـمْ كُـلَّـه ... وجـمـع الـرِّبـاب لـنـا مُـسـتـعـارا

هذا، وقد توفّرت في شعر السّفاح الصورة الكُلّيّة التي تضمُّ عنصر الحركة، واللـون، والصـوت، والشكل، وغيرهـا؛ كقوله في قتال هـوازن، ورئيسهم في هذه الغـارة عُمارة بن مالـك الجشميّ الذي حمـل على السفاح فطعنـه، وحامت بنو زهير علـى السفاح حتى استنقذوه، فركب مغضبًا، فشد على عمارة فقتله. وهذا الشعر يُعد من المنصفات:

لـقـد حـامَـتْ عـلـيَّ بَـنُـو زُهـيْـرٍ ... بـبـيـضِ الـهـنْـدِ والأَسَـلِ الحِـرَارِ

غَـدَاةَ عُـمَـارَةُ الجُشَـمـيُّ يَسْمُو ... سُـمُـوَّ الـفَـحْـلِ في ضَـبَـعِ الـبـكَـارِ

عـلَـى قـبَّـاءَ تَـخْـفِـقُ أَيْـطَـلاَهَـا ... سـنُـون المَـتْنِ كـالمَسَـدِ المُـغَـارِ

فيَطْعُنُني وأَطْعُنُه خلاسًا ... كخَطْف الصَّقْر أَعْشَاشَ القفَارِ
مَليًّا ثُمَّ أَضْربُهُ بعَضْبٍ ... تُطيرُ ظُبَاتُهُ لَهَبَ الشَّرارِ
فخَرَّ لِوَجْهِهِ يَكبُو صَرِيعًا ... كأَنَّ شئونها فِلَقُ النُّجارِ

ومن نماذج الصورة الكلية في شعره أيضًا قولُه من قصيدة مشيرًا إلى صنيعه في قتال بني الزّبان (يوم بطن حنين):

وعِصَابَةٍ شُمِّ الأُنُوف بَعَثْتُهُمْ ... لَيْلاً وقَدْ مَالَ الكَرَى بطُلاَهَا
فسَرَيْتُ في وَعْث الظَّلاَم أَقُودُهمْ ... حتَّى رَأَيْتُ الشَّمْسَ زَالَ ضُحَاهَا
وغَشيتُ قَيْسًا في القَليب غُدَيَّةً ... وطَعَنْتُ أَوَّل فارِسٍ أُولاَهَا
وضَرَبْتُ في أَبْطَالِهِمْ فتَجَدَّلُوا ... وحَمَلْتُ مُهْرِى وَسْطَهَا فحَمَاهَا
حَتَّى رَأَيتُ الخَيلَ بَعْدَ سَوَادِهَا ... كُمْتَ الجُلُودِ خُضِبْنَ مِنْ جَرْحَاهَا
يَعْثُرْنَ في عَلَقِ النَّجِيعِ وتَارَةً ... وَسْطَ العَجَاجِ يَطَأْن مِنْ صَرْعَاهَا

ج) الموسيقى:

"الشعر كلام منظوم بان عن المنثور الذي يستعمله الناس في مخاطبتهم؛ بما خُصَّ به من النظم الذي إن عُدل به عن جهته، مجّته الأسماع وفسُد على الذوق -أوْ كما يقول الدكتور/ إبراهيم أنيس-[٢٦]: «كان القدماء من علماء العربية لا يرون في الشعر أمرًا جديدًا، يميزه من النثر إلا ما يشتمل عليه من الأوزان والقوافي».

والموسيقى الخارجية للشعر المأثور للسفاح التغلبيّ قد وقفت من وجهة الوزن، عند بحور خمسة فقط، هي:

١. بحر الوافر الذي جاءت عليه خمس مقطعات، مجموع أبياتها (٢٢) بيتًا. منها قوله:

ولـيـلـةَ بـتُّ أُوقِـــدُ في خَـــزازي هَـــديْـــتُ كـتـائـبًـا مـتـحـيِّرات
ضُـلِـلْـنَ مـن الـسُّـهـادِ وكُـنَّ لـولا سُـهادُ الـقـومِ –أَحْسَبُ– هـاديـات
فـمِـلْـنَ مـع الـصَّـبـاحِ عـلـى جُـذامٍ ولَـخـمٍ بـالـسُّـيـوفِ مُـشـهّـرات

ومنها قوله:

شَـفَـيـنـا الـنَّـفـسَ مـن أوْلاد عـادٍ وأوْرَدْنـــاهُـــمُ حَـوْضَ الحِـمـامِ
وسُـقـنـا الخـيـلَ مُـلـجـمـةً إلـيـهـم بـفُـرســانٍ غـطـارفـةٍ كـــرامِ

ولا غرابـة أن يكـون بحـر الوافر هو الأكـثر استخدمًا فيما أثـر للسفاح من شعـر؛ لأنه بحر ذو خصوصيّة أشـار إليها الناقد الدكتـور/ عبدالله الطيّب، في قولـه(٢٧): «الوافـر بحر مسرع النغمـات متلاحقها، مع وقفة قويـة سُرّعان ما يتبعهـا إسراع وتلاحق، وهـذا يتطلب من الشاعر أن يأتي بمعانيه دُفَعًا دُفَعًا كأنه يخرجها من مضخة، ولهذا فإنك أكثر ما تجد الوافر في نظم الشعراء ذا أساليب تغلب عليها الخطابة التي يتجلّى فيها عنصر التكرار والمزاوجة والمطابقة».

وأحسـن ما يصلـح في إظهار الغضب في معرض الهجـاء والفخر، والتفخيم في معرض المدح، على نحو مـا استخدمه السفاح التغلبـيّ في مقطعاته التي بين أيدينا، والتي يبدو فيها هذا التدفق الموسيقي، وهذا النغم القويّ الأخّاذ.

٢) بحر الكامل الذي جاء عليه (١٩) بيتًا، تشتمل على قصيدة تقع في (١٣) بيتًا، وهي التي قالها لمَّا رجع إلى قومه (يوم بطن حنين) مطلعها:

وكـتـيـبـةٍ لـفّـفْـتـهـا بـكـتـيـبـةٍ شـهـبـاءَ بـاسـلـةٍ يُـخـافُ رداهـا

كمـا تشتمل الأبيـات التي جاءت علـى (بحر الكامل) علـى مقطعة في (٦) أبيـات. وهي التي أنشدها بعد أن قتل الزبان جماعة من تغلب، وقذف جيفهم في الأقطانتين، ومنها قوله:

مَـلأوا مـن الأَقـطـانَـتَـينِ رَكـيَّـةً مِـنّـا وَآبـــوا سـالِـمين وَغُـنِّـمُـوا
قَـتَـلـوا تَـعَـنِّـيَـةً بِـظَـنَّـةِ واحِـدٍ تِـلكَ المُقطّرُ مِـن أسِـرَّتِـها الـدَمُ

وقـد وفـق السفاح في اختيار بحـر الكامل نغمًا عامًّا لهاتـين التجربتين؛ لأنَّ جرس الكامل يناسب الترنّم والزَّجر وما إلى ذلك، «وهو أكثر بحور الشعر جلجلةً وحـركات. وفيـه لون خاص من الموسيقـى يجعله فخمًا جليلاً مـع عنصر ترنميّ ظاهـر... وهو بحر كأنما خلق للتغنِّي المحض، سواءٌ أريد به جدٌّ أم هزل. ودندنة تفعيلاته من النوع الجهير الواضح الذي يهجم على السامع مع المعنى والعواطف والصور حتى لا يمكن فصله عنها بحال من الأحوال»[٢٨].

٣) بحـر الطويل الذي جاء إطارًا لقصيـدة واحدة، تقع في (١٥) بيتًا، وهي أطول ما وصل إلينا من شعره، قالها حين عودته من معركة له على هوازن، بعد أن لامته بعض نسائه على كثر غزواته، ومباشرة الحرب بنفسه. ومطلعها:

تقولُ ابنةُ العمريِّ مالكَ لا نَرى لـكَ الـدَّهْـرَ إلا هَـمَّ حـربٍ تُسَعِّرُ

ومـن يقف على بيئة هذه القصيـدة، ويلمّ بمناسبتها، ثم يقـرأ أبياتها؛ وما فيها من اتجاه إلى الإخبار والقص، والتفصيل في داخل نطاق التلميح والإشارة؛ ومـا فيها أيضًا من رغبة في التأكيد والتعميق؛ وما فيها كذلك من شعور بالعظمة والاختيـال والمباهاة؛ ومـا يتطلبه كل ذلك من موسيقى هادئة، ونغم رائق، ونفس طويـل؛ يُسلِّـم بمدى توفيـق السّفاح في الضـرب على أوتار بحـر الطويل في هذه التجربة؛ فهو بحر يصلح لكل هذه المعاني والعواطف.

٤) بحـر البسيـط الذي جاء إطارًا لمقطعة واحدة فقـط، تقع في(٥) أبيات، أنشدهـا السّفـاح التغلبـيّ بعد انتصـاره «يـوم الـكُلاب الأول»، مخاطبًا زوجه، ومطلعها:

هـلاَّ سألتِ وريْـبُ الـدَّهْـرِ ذو غِيَرٍ أنْ كيفَ صَفقَتَنا ذُهْلَ بن شيبانا؟

٥) بحـر المتقارب الـذي جاء إطارًا لبيتـيْن فقط –ممـا ورد إلينا من شعر السفاح– أنشدهما «يوم الكُلاب الأول»، وهما:

وردنـــا الـكُـلابَ عـلـى قـومِـنـا بـأحْـسـنِ وِرْدٍ لـهـيْـجـا شِـعـارا
وقـــد جـمَـعُـوا جـمـعَـهـمْ كُـلَّـه وجـمـعَ الـرِّبـاب لـنـا مُـسـتـعـارا

وواضح ما في هذيْن البيتيْن من تدفُّق مشاعر الزهو واختيال الشاعر بموقفه، ونبـذه وتهكمـه بخصمه. وقد وفق في اختيـاره بحرًا سهلَ النغـم سهولةُ معانيه، منسابًا انسياب عواطفه، مرتفع الإيقاع ارتفاع لذته وفرحته، مضطرد التفاعيل، اضطراد وجدانه ورقصات قلبه.

هـذا، وقـد توفرت الموسيقى الداخليـة في شعر السفاح التغلبـي، وإن جاءت عفـوًا لا صنعـة فيها ولا تكلف، وأبرزهـا عنصر الإيقاع المتمثـل في التكرار، وكل تكرار مهما يكن نوعه تستفاد منه زيادة النغم وتقوية الجرس.

أمّـا لماذا سقط "السفاح" مـن "سلسلة الشعراء الذهبية"؟ وكيف ضاعت قصائده؟!

فهذا سؤال يُفجِّر المواجع، وينكأ الجراح، ويلطم الوجوه، ويُجدّد الأحزان... ولا أُريد أن أفيضَ في الحديث مِن حيث أفاض الناس!

الهوامش

(١) المعارف لابن قتيبة، صـ ٦٢١، تحقيق: ثروت عكاشة. دار المعارف بمصر، الطبعة الرابعة ١٩٨١م.

(٢) جمهرة أنساب العرب لابن حزم الأندلسي، صـ ٤٩١،دار المعارف بمصر، الطبعة الرابعة، ١٩٧٧م.

(٣) العقد الفريد لابن عبد ربه، ٥/ ٢١٣، شرح: أحمد أمين؛ أحمد الزين. دار الكتاب العربي– بيروت.

(٤) أيام العرب وأثرها في الشعر الجاهلي، لمنذر الجبوري، صـ٩٩.

(٥) شعراء الصرانية في الجاهلية، لويس شيخو: ١ / ١٥٦، مكتبة الآداب، القاهرة / ١٩٨٢م.

(٦) السفّاح -الشاعر التغلبي: صـ٩، د. محمد عبد الحميد سالم، بحث غير منشور.

(٧) عمرو بن لأي بن موألة بن عائذ بن ثعلبة من أشراف بكر بن وائل، وهو فارس مِجْلزْ (معجم الشعراء، صـ ٢٤).

(٨) أيام العرب وأثرها في الشعر الجاهلي/ صـ١٣٤، مرجع سابق.

(٩) شعراء تغلب،: ٢ / ١٦٩، على أبو زيد، الكويت – السلسلة التراثية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.

(١٠) جمهرة أشعار العرب، ٢٩٠ – ٢٩١، مرجع سابق.

(١١) نقائض جرير والفرزدق،صـ٣٦١، لأبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي البصري، بيروت، ١٩٦٨م.

(١٢) المرجع السابق، صـ ٤٥٤.

(١٣)شعراء النصرانية: ١/ ١٨٣، مرجع سابق.

(١٤) وقد وقعت القصيدة الأولى في (١٣) بيتًا؛ في يوم بطن حنين – انظر شعراء تغلب صـ ٢٥٨- ٢٦٠، والقصيدة الثانية في (١٥) بيتا، في يوم الغلبة على هوازن.

(١٥) السفّاح -الشاعر التغلبي: صـ٤٣، مرجع سابق.

(١٦)كتاب الأنوار ومحاسن الأشعار؛ لأبي الحسن على بن محمد بن المطهر العدوي، المعروف بالشمشاطي، ١/ ٢٤٦،تحقيق د/ السيد محمد يوسف. الكويت – سلسلة التراث العربي، ١٩٧٧م.

(١٧) المنسوب إليه، نقائض جرير والأخطل، صـ ٨٢.

(١٨) كتاب الأنوار، ١/٢٥٧،مرجع سابق.

(١٩) كتاب الأنوار،١/٢٦١)، مرجع سابق.

(٢٠) كتاب الصناعتين؛ صـ ١٧١، لأبي هلال العسكري. تحقيق: علي محمد البجاوي، مكتبة الحلبي، القاهرة، ١٩٧١م.

(٢١) نقائض جرير والأخطل،صـ١٢٠، مرجع سابق.

(٢٢) المرجع السابق ١/٣٥٣.

(٢٣) المرجع السابق، صـ ٤٥٤.

(٢٤) كتاب الصناعتين، صـ١٢٩، مرجع سابق.

(٢٥) كتاب دلائل الإعجاز، صـ ١٦. عبد القاهر الجرجاني. مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٩٨٤م.

(٢٦) موسيقى الشعر، صـ١٤. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط ٤/ ١٩٧٢م.

(٢٧) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ١/ ٣٣٢؛ عبد الله الطيب، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٠م.

(٢٨) المرجع السابق،صـ٢٤٦.

التمثُّل بالشِّعر
دراسة نقديَّة

د. عبد الحميد محمد شُعَيب

المُقدِّمة:

الشِّعرُ قَيْدُ الأخبار، وبَريدُ الأمثال، وحُجَّة الأدب، وحِكمة العرب، وشاهد ثبت، وقاضٍ عدل، ولكلِّ أُمَّة لسان، ولسانُ العرب هو الشِّعر؛ يلجؤون إليه في الأمور المُهمَّة والخطوب المُلِمَّة.

والتمثُّل بالشِّعر ضرب من الاستعانة بالنَّظم، ولون من التَّعبير بالشِّعر، يُجسِّد التَّواصل بين الإنسان والفنِّ، ويُصوِّر التَّفاعل بين الحياة والنَّظم، ويُبرز دور المُتلقي في إحياء الشِّعر، وإعادة إنتاج النَّظم. وهو(أي التمثُّل بالشِّعر) ظاهرة أدبيَّة عريقة، له في حياة العرب دور بارز، وأثر واضح، ومع ذلك لم يلقَ عناية من الأدباء والنُّقاد، ولم يحظَ باهتمام الباحثين والدارسين؛ فما زال الحديث عنه-فيما أعلم-مُبعثرًا في ثنايا الكتب، وتقتصر غاية التأليف فيه على ذكر أمثلة وشواهد فحسب من غير تأصيل أو تحليل، وهو ما دفعني للكتابة في الموضوع؛ رغبةً في تسليط الضوء عليه، وإبراز معالمه، وإظهار مراسمه، والوقوف على حدوده وقضاياه، والإجابة عن كثير من الأسئلة المتعلقة به مثل: ما مفهوم

التَّمثُّل بالشِّعر؟ وما هي الأغراض التي دار حولها؟ وما صورته في النقد الأدبي؟ ومـن أعلام هذا الفنِّ؟ وهل هناك قيم نقدية خاصة بهذا الفن؟ وما دور المُتمثِّل في بعث الشِّعر وإحيائه؟...إلخ

وجدير بالذِّكر الإشارة إلى ما وقفت عليه من دراسات سابقة في الموضوع وهي دراسة العلاَّمة الحافظ الدكتور محمد بن إبراهيم الحمد (التَّمثُّل بالشِّعر)، وقد تماسَّ معـي في العنوان، واختلف في المضمون؛ فكتابه امتداد للظَّاهرة في العصر الحديـث؛ فجعله ذيلًا على كتاب أبيات الاستشهاد لابن فارس، وجمع فيه سلسلة من الأبيات الصَّالحة للتَّمثُّل بها في شتى المُناسبات.

هـذا وقد قسَّمتُ البحث إلى مُقدِّمـة وخمسة مباحث وخاتمة وفهرسين على النَّحو الآتي:

المُقدمة: وفيها سبب الكتابة في الموضوع، وخُطَّة البحث بالتَّفصيل.

المبحث الأول: التَّمثُّل بالشِّعر حدوده ونشأته.

المبحث الثاني: التَّمثُّل بالشِّعر وقضاياه الموضوعية.

المبحث الثالث: التَّمثُّل بالشِّعر والنقد الأدبي.

المبحث الرابع: أعلام التمثُّل بالشِّعر.

المبحث الخامس: نماذج من التمثُّل بالشِّعر تحت مجهر النقد.

ثم جاءت الخاتمة مُتضمنة أهم النتائج، وتلاها فهرسا المراجع والموضوعات.

وشرطت فيما أذكره من أمثلة على مدار البحث أن تكون مما ورد في المصادر تحت مصطلح التمثُّل، أو أن تكون مما لا خلاف في دلالته على الظاهرة.

وجديـر بالذكر الإشـارةُ إلـى أني استخدمـتُ المنهج التَّكامُلـي على حسب مُجريـات الدراسـة ومتطلبات البحث، وقـد التزمتُ بتوثيـق النُّصوص، وضبط

الأشعـار ضبطًا تامًّا، ونسبتها ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، وضبط ما أَشْكَل من الأماكـن والأسمـاء، والترجمة لغير المشاهير من الأعـلام، والاكتفاء مع غيرهم بذكـر تواريـخ وفياتهـم، مقتصرًا علـى التاريـخ الهجري فقـط في شتى مناحي البحث.

وأخيرًا يديـن هذا البحث بالفضل في دقة حواشيه وغزارة مصادره للعالمين الجليلين؛ الأستاذ الدكتور عبد المجيد محمد الإسداوي والأستاذ الدكتور إبراهيم صبري راشد حفظهما الله.

المبحث الأول

التمثُّل بالشِّعر حدوده ونشأته

مفهوم التَّمثُّل بالشِّعر:

التَّمثُّـل لغةً: مأخوذ من المَثَل، والمَثَل: الشيء الذي يُضْرَب لشيء مثلًا فيُجْعَل مثلـه، والمَثَـل: الصِّفَـة قـال تعالـى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ (الفتـح: ٢٩)، والمَثَـل: الآية قال تعالى في صفة المسيـح: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ (الزخرف: ٥٩)، والمِثْـل: كلمة تدل على التسوية (المساواة) والتكافؤ في المقدار، والمِثْـل: الشَّبـه والشَّكل، ومَثَّلتُ لـه كذا تمثيـلًا: إذا صوَّرت له مثالَـه، والتِّمثال: الصُّـورة قـال تعالـى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾ (مـريم: ١٧)، وامتثلـتُ الأمر: احتذيتُـه، والمِثال: القالب الذي يُقدَّر على مثله، وتَمَثَّل به: تشبَّه به، وتَمَثَّل فلان: ضرب مثلًا، وتَمَثَّل بالشيء: ضربه مثلًا، قال جَريرٌ:

والـتَّغْـلِبِـيُّ إذَا تَـنَـحْـنَـحَ لـلقِـرَى ... حَـكَّ اسْـتَـهُ وَتَمَـثَّـلَ الأَمْـثَـالَا

وتمثَّـل: إذا أنشـد بيتًا ثم آخَر ثـم آخَر، وتمثل بالشِّعـر: إذا أنشده مرة بعد مرة[1].

واصطلاحًا: أن يُنشِد المُتمثِّل شعرًا في مقام يناسبه؛ ليُعبِّر عن غرضه، ويُصوِّر شعوره تجاه قضيَّة من القضايا أو موقف من مواقف الحياة.

والغالب أن يكون الشِّعر لغير المُتمثِّل كما في تمثُّل النبي ببيت طَرَفَة بن العَبْد (٦٠ق.هـ) عندما استبطأ خبرًا[٢]:

سَتُبْدِي لَكَ الأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا وَيَأْتِيكَ بِالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

ومنه تمثُّل علي بن أبي طالب (ت٤٠هـ) في صِفِّين عندما خالفه أصحابه في قضية التحكيم وخرجوا عليه[٣]:

أَمَرْتُهُمْ أَمْرِي بِمُنْعَرَجِ اللِّوَى فَلَمْ يَسْتَبِينُوا الرُّشْدَ إِلَّا ضُحَى الغَدِ

وعلى ذلك جرت معظم الأمثلة، وسيأتي ذكر كثير من هذا النَّوع في تضاعيف الدراسة.

ويجوز أن يكون الشِّعر للمُتمثِّل نفسه، أجراه على لسانه يتمثَّل به ولكن هذا النَّوع قليل، ومنه تمثُّل الأعرابية[٤] التي كانت تجلس إلى نساء النبي[٥]:

وَيَوْمُ الوِشَاحِ مِنْ تَعَاجِيبِ رَبِّنَا أَلَا إِنَّهُ مِنْ بَلْدَةِ الكُفْرِ أَنْجَانِي

فلما أكثرت من التمثُّل به؛ سألتها أم المؤمنين عائشة-رضي الله عنها-عن ذلك فقالت: شهدتُ عُرسًا، وفُقِدَ وشاح، فاتهمها القوم به، فحملوا عليها، ولم يقبلوا منها قولًا ولا عُذرًا؛ فاستغاثت الغيَّاث، فجاءت الحِدَأة وألقته، فلما ظهرت براءتها، اعتذروا لها، فلم تقبل منهم، وكان ذلك سبب هجرتها إلى المدينة وإسلامها.

ومن ذلك تمثُّل عبد الله بن رواحة رضي الله عنه (ت٨هـ) يوم مُؤْتَة بشعر من نظمه يرجو فيه الفوز بالشهادة، يقول مخاطبًا ناقته[٦]:

إِذَا أَدْنَيْتَنِي وَحَمَلْتَ رَحْلِي مَسِيرَةَ أَرْبَعٍ بَعْدَ الْحِسَاءِ
فَشَأْنَكِ فَانْعَمِي وَخَلَاكِ ذَمٌّ وَلَا أَرْجِعْ إِلَى أَهْلِي وَرَائِي

وآبَ الْمُسْلِمُونَ وَغَادَرُونِي ... بِأَرْضِ الشَّامِ مُشْتَهِيَ الثَّوَاءِ[٧]
وَرَدَّكَ كُلُّ ذِي نَسَبٍ قَرِيبٍ ... إِلَى الرَّحْمَنِ مُنْقَطِعَ الْإِخَاءِ
هُنَالِكَ لَا أُبَالِي طَلْعَ بَعْلٍ ... وَلَا نَخْلٍ أَسَافِلُهَا رِوَاءُ[٨]

ومنه تمثُّل بلال بن عقيل بن جرير[٩] بشعره، قال: «سمعتني أعرابية وأنا أتمثَّل شعرًا قلتُه:

وَكَمْ لَيْلَةٍ قَدْ بِتُّهَا غَيْرَ آثِمٍ ... بِمَهْضُومَةِ الكَشْحَينِ رَيَّانَةِ القَلْبِ

فقالت لي: هلَّا أثمتَ حربك الله»[١٠].

والتمثُّل بالشِّعر قريب من التمثيل، وهو ما يعرف عند البلاغيين بتشبيه التمثيل كقوله تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ (الكهف: ٤٥)، وقوله صلى الله عليه وسلم «مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نَارًا، فَجَعَلَ الْجَنَادِبُ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهَا، وَهُوَ يَذُبُّهُنَّ عَنْهَا، وَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ، وَأَنْتُمْ تَفَلَّتُونَ مِنْ يَدِي»[١١]، ولكنْ ثَمَّة اختلاف بين التمثُّل وتشبيه التمثيل في غاية الأهمية؛ وهو أن التمثُّل أوسع ضربًا وأعمق مسلكًا فيأتي تمثيلًا وغير تمثيل، تتداخل فيه خيوط الإبداع بين الشاعر والمتلقي، وبين الإنشاء والإنشاد، فضلًا عن التطابق الكامل، والاتحاد التام، والتباس الحدود، والتعبير عن النفس بالشِّعر بطريقة فنيَّة مُدهشة[١٢]، وقد أدرك بياجيه (jean piaget) الاتحاد في الشُّعور بين المنشئ والمُتمثِّل، والملاءمة بين الماضي والحاضر من خلال التمَثُّل بصفة عامة في قوله: «التمَثُّل نشاط عقلي يتجه إلى إدماج موضوع معين أو موقف معين في مخطط نفسي أشمل»[١٣]، والموضوع المعين والموقف المعين يكون في الحاضر، والمخطط الأشمل هو اختزال النفس لموضوعات قديمة أو حكايات سابقة؛ فعندما تواجه النفس موقفًا جديدًا طارئًا فإنها تستجيب إليه بتكييفه مع المخططات السابقة[١٤].

التمثُّل بالشِّعر وصلته بالمصطلحات الأخرى

بين التمثُّل بالشِّعر والاستشهاد به:

الاستشهاد بالشِّعر نوع من الاختيارات يُسَمَّى (شعر الشواهد) يكون في شتى العلوم والفنون، وهو مأخوذ من الشاهد، والشاهد هو البرهان والدليل، قال تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ (يوسف: ٢٦)، فيكون الشِّعر دليلًا، تقوم به الحُجَّة، ويثبت به الدليل، ويتضح به الرأي في تفسير معنى أو شرح مسألة أو حلِ مُعضلة...إلخ، أمَّا التَّمثُّل بالشِّعر فهو تجربة وجدانية، وقضية إنسانيَّة، يلجأ فيها المُتمثِّل للتَّعبير بالشِّعر عن معاناته النَّفسيَّة، وما يمور في وجدانه. والاستشهاد مسألة عقليَّة خالصة يجنح فيها العقل للبحث عن الدليل والحُجَّة بعيدًا عن معاني الأبيات، بينما التمَثُّل تعبير عن وجيب القلب وأنين الرُّوح من خلال معاني الأبيات.

أما من ناحية المصطلح؛ فالتمثُّل أخفُّ في لفظه، وأدقُّ في بنائه؛ ففيه عبق الفنِّ، ورائحة الشِّعر، ويشفُّ عن ما تحسُّ به النفس، بخلاف الاستشهاد الذي ثقُل لفظه لطوله، وتقاسمته حقول متباعدة (الجهاد-العلم-القضاء)، فإن سُمِّي التمَثُّل بالشِّعر استشهادًا فهو من باب المجاز والتشابه الظاهري ليس غير، وعليه جاء كتاب أبيات الاستشهاد لابن فارس.

بين التمَثُّل بالشِّعر والمَثَل:

المثل أسبق في الوجود من التمَثُّل بالشِّعر كأسبقيَّة النثر للنظم، والتمَثُّل مأخوذ من المثل فما سُمِّي المثل مثلًا إلا لتمَثُّل الناس به قال الجاحظ: «والمثل الذي يتمثَّل به الناس...»[١٥]، والمثل كما يعرفه المرزوقي: «جملة من القول مقتضَبةٌ من أصلها، أو مرسلةٌ بذاتها، فتتسم بالقبول، وتشتهر بالتداول، فتُنقَل عما وردت فيه إلى كلِّ ما يصح قَصْدُه بها من غير تغيير يلحقها في لفظها»[١٦]، والتمثُّل بالشِّعر

محمـول في مُسمَّاه ومعناه على باب المثل، جارٍ مجـراه؛ لأنه شعر سائر يُشبَّه فيه مضربه بمورده غالبًا، ويفارقه في أن التمثُّل بالشِّعر يأتي موجزًا أو مطنبًا، بيتًا أو أبياتًـا، وليس بالضرورة أن يشتمل على حِكَمة أو حكاية، ويجوز أن يلحقه التغيير والتبديل على ما يرى المُتمثِّل كما سيأتي.

يبقى سؤال مهم لا بديل عن طرحه: هل التمثُّل بالشِّعر هو الأمثال الشِّعريَّة؟

وأقـول: المثـل الشِّعري هو أن يأتـي الشاعر في بيت أو بعض بيت بما يجري مجـرى المثل؛ لاشتماله علـى حكمة أو موعظـة أو معنىً نـادرٍ، كالأمثال في شعر النابغـة الذبيـاني وزهـير بن أبـي سلمى مـن القدمـاء وأبي تمـام والمتنبي من المحدثين...إلخ، وليس هذا من التمثُّل في شيء؛ لأن التمَثُّل مرحلة تالية للإنشاء، يُستخـدَم فيها الشِّعر للتعبير عن موضوعات جديدة، ثـم إنه ليس بالضرورة أن يُتمثَّل بالمثل الشِّعري، فهناك من الشِّعر ما يُتمثَّل به وليس بمثل شعري، وعليه إذا أُنشِـد المثل الشِّعري في مناسبـات مختلفة على جهة التأسي والوعظ والتعبير عن غرض جديد كان تمثُّلًا وإلا يبقى مثلًا شعريًّا خارج نطاق الظاهرة.

بين التمثُّل بالشِّعر والرواية والإنشاد:

الروايـة: مصـدر روى، وروى الحديثَ والشِّعر: يرْويه رِوايـة، ورجل راوٍ: هو الذي يروي الشَّعر، قال الفرزدق:

أَمَـا كَانَ فِي مَعْدَانَ وَالفِيلِ، شَاغِلٌ لِعَنْبَسَةَ الـرَّاوِي عَلَيَّ القَصَائِدَا

ويقـال: روَّى فلان فلانًا شعرًا: إذا روَّاه لـه حتى يحفظه الرَّاوية عنه. ورجل راوية: كثير الرِّواية، والجمع رُواة[١٧].

فالرواية: عمل يُقْصَد به حفظ الشِّعر وحمله ونقله إلى الجمهور عبر الزمن من خلال رواة مختصين بالشِّعر وضروبه.

فالغرض الأساس مـن الرواية هو نقـل الشِّعر، بينما الغرض الأساس من

التمثُّل هو التعبير عن آمال المُتمثِّل وآلامه...إلخ، ومن الإشارات التي تُظْهِر الفرق بينهما ما حُكِي عن قاضي البصرة سَوَّار بن عبدالله (ت١٥٦هـ)[١٨]، عندما قصده رجل من بني دَارِم ليقيم شهادة عنده فتمثَّل بشعر للأسود بن يَعْفُر، فقال له سَوَّار: أتروي هذا الشِّعر؟ قال: لا، قال: أفتعرف من يقوله؟ قال: لا، قال سَوَّار: رجل من قومك له هذه النباهة وقد قال مثل هذه الحكمة لا ترويها ولا تعرفه[١٩]!

أما الإنشاد: فمصدر أنشد، والإنشاد: رَفْعُ الصَّوت، ومنه نشدتُ الضَّالة: رفعتُ صوتي بطلبها، ومنه نشد الشِّعر: أَشاد بذكره، وأَنشده إذا رفعه، وتناشدوا الشِّعر: أَنشد بعضهم بعضًا، والنَّشِيدُ من الأَشعار: ما يُتناشَدُ[٢٠].

فالإنشاد: هو إلقاء الشِّعر في المنتديات والمحافل على الجمهور، سواء ألقاه الشاعر أو الرَّاوية أو غيرهما، والهدف منه هو إذاعة الشِّعر بهدف التأثير في السَّامع، ممزوجًا بما تحتويه طريقة الإلقاء من الترنُّم والطرب الذي يجري به الطبع، وهو رديف الغناء، وليس الغناء بالشِّعر ولا الحِداء به أيضًا من التمثُّل في شيء؛ لأن الشِّعر في هذه الأحوال الثلاثة-الإنشاد والغناء والحداء- مازال رهن تجربة الشَّاعر[٢١]، أما التمثُّل فهو إنشادٌ للشِّعر قُصِد به إنشاء تجربة جديدة للمتمثِّل، فهو طريق من طُرق التعبير بالشِّعر أشبه بالمنولوج في القصة (الحوار الداخلي)، لا يخلط من يسمعه بينه وبين الرواية والإنشاد والغناء؛ لأنها هذه الثلاثة شجى الشاعر والتمثُّل شجى المُتمَثِّل؛ لأن للمُتمثِّل قضية جديدة ودورًا جوهريًا يخصُّه، ليس كالدور الذي يؤديه المُمثِّل في السينما والمسرح. وربما استخدم الناقل والناقد مجازًا وتوسعًا أنشد في موطن تمثَّل لا العكس.

بين التمثُّل بالشِّعر والتضمين:

التمثُّل أقدم في النشأة من التضمين، وأشهر منه، لذلك أحال عليه النقاد في تعريف التضمين، وجعلوه مقياسًا له، فقالوا في حد التضمين: «هو قصدك إلى البيت من الشِّعر أو القسيم فتأتي به في أواخر شعرك أو في وسطه كالمُتمثِّل»[٢٢].

فهما يشتركان في المقدار والحجم وطريقة الإيراد، فكلاهما يكون-غالبًا- نذرًا يسيرًا؛ البيت والبيتين والثلاثة، ولا يقعان -غالبًا- ابتداءً، وكلاهما يستخدم في موضوع جديد متصلاً بالغرض القديم أو منقطع الصِّلة عنه، بيد أن التضمين لا يقع إلا في الشِّعر تأكيدًا أو استعانة أو إيداعًا...إلخ، أما التمثُّل فيقع في غير الشِّعر كالحوار والمقامة والخطابة والرسائل والتوقيعات...إلخ، قال الجاحظ: «وأكثر الخطباء لا يتمثَّلون في خطبهم الطوال بشيء من الشِّعر ولا يكرهونه في الرسائل إلا أن تكون إلى الخلفاء»[٢٣].

قلت: والفيصل في عدِّ الشِّعر حيثما ورد تمثُّلًا من عدمه هو حكم النقاد والقرينة والسياق وألا ينصرف إلى غيره من الفنون كالرواية والإنشاد والاستشهاد...إلخ.

نشأة التمثُّل بالشِّعر:

التَّمثُّل بالشِّعر قديم النشأة؛ ظهر مع أولية الشِّعر العربي، وفطن له الشعراء منذ العصر الجاهلي، وأدركوا كونَه سببًا من أسباب جودة النظم، وطريقًا من طرق خلود الشِّعر، قال المُسَيَّب بن عَلَس(ت ق هـ)واصفًا شعره[٢٤]:

فَلأُهْدِيَنَّ مَعَ الرِّيَاحِ قَصِيدَةً ... مِنِّي مُغَلغَلَةً إِلَى القَعْقَاعِ

تَرِدُ المِيَاهَ فَمَا تَزَالُ غَرِيبَةً ... فِي القَوْمِ بَينَ تَمَثُّلٍ وَسَمَاعِ

ومنه وصف كعب بن زهير(ت٢٦هـ) لشاعريته وشاعرية الحُطيئة، وحديثه عن رِفْعَة التمثُّل وجودته[٢٥]:

فَمَنْ لِلْقَوَافِي؟ شَانَهَا مَنْ يَحُوكُهَا ... إِذَا مَا ثَوَى كَعْبٌ وَفَوَّزَ جَرْوَلُ

يَقُولُ فَلا يَعْيَى بِشَيءٍ يَقُولُهُ ... وَمِنْ قَائِلِيهَا مَنْ يُسِيءُ وَيَعْمَلُ

كَفَيْتُكَ لَا تَلْقَى مِنَ النَّاسِ وَاحِدًا ... تَنَخَّلَ مِنْهَا مِثْلَ مَا يَتَنَخَّلُ

يُثَقِّفُهَا حَتَّى تَلِينَ مُتُونُهَا ... فَيَقْصُرُ عَنْهَا كُلُّ مَا يُتَمَثَّلُ

وامتد حديث الشعراء عنه إلى العصر الأموي، قال الفرزدق(ت١١٠هـ) مشيرًا إلى التَّمَثُّل من شعر الجاهليين في موطن افتخاره بشعره[٢٦]:

وَالأَعْشَيَانِ كِلَاهُمَا وَمُرَقِّشٌ وَأَخُو قُضَاعَةَ قَولُهُ يُتَمَثَّلُ[٢٧]

وظلَّ تقدير الشعراء لأثره ورصدهم له عبر عصور الأدب، وعلى امتداد الحِقب[٢٨].

وتبقى سلسلة من القضايا الجوهرية المُتعلِّقة بالتمثُّل بالشِّعر في حاجة إلى تفسير وتفصيل أولها: الحديث عن أغراضه ومحاور موضوعاته...إلخ.

المبحث الثاني

التَّمثُّل بالشِّعر وقضاياه الموضوعية

هذا باب قد جعلتُه للحديث عن أغراض التمثُّل بالشِّعر وقضاياه الموضوعيَّة، والمعاني التي يتناولها؛ فمضمون الشِّعر باب مُهم في بنائه، وأفكاره ركن رئيس في إنشائه، فهو غاية المتكلم والسامع، والتمثُّل بالشِّعر ضرب من الشِّعر، ومن ثمَّ تبرز كثير من الأسئلة المُهمَّة المُتعلِّقة به من هذا الجانب منها: ما هي أغراض التمثُّل بالشِّعر؟ وهل هناك اختلاف بينها وبين أغراض الشِّعر؟ وهل يمكن تحويل الشِّعر في التمثُّل عن أغراضه الأصلية؟...إلخ

أغراض التمثُّل بالشِّعر:

يجري التمثُّل على أغراض الشِّعر المُتعارف عليها؛ المدح والرثاء والفخر... إلخ فيقصد المُتمثِّل بتمثُّله ما يقصده الشَّاعر بقصيدته؛ ومن أغراض التمثُّل بالشِّعر الذائعة المدح، ومن أمثلته: لما قدم المُهلب بن أبي صُفْرة على الحجاج أجلسه بجانبه، وأظهر إكرامه وبرَّه ثم قال[٢٩]:

وَقَلِّدُوا أَمْرَكُمْ لِلَّهِ دَرُّكُمُ رَحْبَ الذِّرَاعِ بِأَمْرِ الحَرْبِ مُضْطَلِعَا

لَا يَطْعَمُ النَّوْمَ إِلَّا رَيْثَ يَبْعَثُهُ ... هَمٌّ يَكَادُ حَشَاهُ يَقْصِمُ الضِّلْعَا
لَا مُتْرَفًا إِنْ رَخَاءُ العَيْشِ سَاعَدَهُ ... وَلَا إِذَا عَضَّ مَكْرُوهٌ بِهِ خَشَعَا
مَا زَالَ يَحْلُبُ دَرَّ الدَّهْرِ أَشْطُرَهُ ... يَكُونُ مُتَبِعًا طَوْرًا وَمُتَّبَعَا
حَتَّى اسْتَمَرَّتْ عَلَى شَزْرٍ مَرِيرَتُهُ ... مُسْتَحْكِمَ الرَّأْيِ لَا قَحْمًا وَلَا ضَرَعَا

فمدحه الحجاج من خلال التمثُّل بالقوة والشجاعة والثبات، والخبرة بأمور الحروب، وعدم الفزع من المصائب أو الخضوع للنوائب.

والمدح بالتمثُّل قصده كثير من متمثِّلي الشِّعر، من ذلك أن عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه كان يحب همدان ويُقرِّبهم لنصرتهم له، ودفاعهم عنه، وكان إذا رأى أحدًا منهم تمثَّل بقول الشاعر[٣٠]:

نَادَيتُ هَمْدَانَ وَالأَبْوَابُ مُغْلَقَةٌ ... وَمِثْلُ هَمْدَانَ سَنَّي فَتْحَةَ البَابِ
كَالهِنْدِوَانِيِّ لَمْ تُفْلَلْ مَضَارِبُهُ ... وَجْهٌ جَمِيلٌ وَقَلْبٌ غَيْرُ وَجَّابِ

والمعاني التي يسلكها المادح في التمثُّل هي معاني شعر المدح من ذكر فضائل النفس؛ الشجاعة والكرم والوفاء وحسن السياسة...إلخ؛ لأنَّها مُعدَّة سلفًا، فلا يمكن الخروج عليها، لكنها غالبًا توجد في الممدوح الجديد، وليس مدحه بها من قبيل المجاز والمبالغة.

ومن الأغراض التي يأتي التمثُّل عليها كثيرًا الرِّثاء، ومنه تمثُّل قُتيبة بن مُسلم (ت٩٦هـ) حين أتاه موت الحجَّاج بقول الحطيئة[٣١]:

لَعَمْرِي لَنِعْمَ المَرْءُ مِنْ آلِ جَعْفَرٍ ... بِحَورَانَ أَمْسَى أَعْلَقَتْهُ الحَبَائِلُ
لَقَدْ فَقَدُوا عَزْمًا جَلِيلًا وَسُؤْدُدًا ... وَحِلْمًا أَصِيلًا خَالَفَتْهُ المَجَاهِلُ
إِذَا عِشْتَ لَمْ أَمْلَلْ حَيَاتِي وَإِنْ تَمُتْ ... فَمَا فِي حَيَاةٍ بَعْدَ مَوْتِكَ طَائِلُ
وَمَا كَانَ بَيْنِي لَوْ لَقِيتُكَ سَالِمًا ... وَبَيْنَ الغِنَى إِلَّا لَيَالٍ قَلَائِلُ

وتمثَّل بهذه الأبيات أبو العيناء (ت٢٨٢هـ) معزيًا سليمان بن وهب (ت٢٧٢هـ) لما مات أخوه الحسن (ت٢٥٠هـ):[٣٢] فقال سليمان: أحسن الله جزاءك، ووصل إخاءك، إن هذا لمن أحسن الشِّعر... ولكنى أقول كما قال كعب بن سعد الغَنَويِّ يرثي أخاه أبا المغْوار[٣٣]:

أَخِي، مَا أَخِي، لَا فَاحِشٌ عِنْدَ بَيْتِه ... وَلَا وَرِعٌ عِنْدَ اللِّقَاءِ هَيُوبُ
حَلِيمٌ إِذَا مَا سَوْرَةُ الجَهْلِ أَطْلَقَتْ ... حُبَى الشَّيْبِ، لِلنَّفْسِ اللَّجُوجِ غَلُوبُ
حَبِيبٌ إِلَى الزُّوَّارِ غِشْيَانُ بَيْتِه ... جَمِيلُ المُحَيَّا شَبَّ وَهْوُ أَرِيبُ
إِذَا مَا تَرَاءَاهُ الرِّجَالُ تَحَفَّظُوا ... فَلَمْ تُنْطَقِ العَوْرَاءُ وَهْوُ قَرِيبُ

وقد حاز هذا التمثُّل إعجاب السامعين. وكلا النموذجين جيد، بيد أن النموذج الثاني أغزر معنىً وأبرع تصويرًا، وهو الأقرب إلى طبيعة الحسن بن وهب؛ فقد كان أديبًا كاتبًا لا فارسًا مُحاربًا.

وثالث الأغراض التي تأتي في التمثُّل بالشِّعر هو الفخر، ومنه تمثُّل يزيد بن معاوية بعد غلبته لأهل المدينة سنة (٦٣) ثلاث وستين من الهجرة في موقعة الحَرَّة[٣٤]:

أَلَا لَا يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَينَا ... فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الجَاهِلِينَا
لَنَا الدُّنْيَا وَمَنْ أَضْحَى عَلَيْهَا ... وَنَبْطِشُ حِينَ نَبْطِشُ قَادِرِينَا[٣٥]

تمثَّل من القصيدة بلُبابها، وهو-أي يزيد- أحق بهذه الأبيات من عمرو بن كلثوم لسعة مُلكة وعظم سلطانه وقوة بطشه، ولكن معناها فيه شيء من الإسراف في القوة والتجبر الذي يأباه الإسلام.

وأحسن منه تمثُّل عبدالملك بن مروان لما قتلَ مُصْعَبَ بن الزبير، ودخل الكوفة، وصعد المنبر، وافتخر، وهدد وتوعد، وتمثَّل بأبيات قيس بن رفاعة، وهي طويلة اكتفيت منها بقوله[٣٦]:

مَنْ يَصْلَ نَاري بِلاَ ذَنْبٍ وَلَا تِرَةٍ ... يَصْلَ بِنَارٍ كَرِيمٍ غَيْرِ غَدَّارِ
أَنَا النَّذِيرُ لَكُمْ مِنِّي مُجَاهَرَةٌ ... كَي لَا أُلَامَ عَلَى نَهْيٍ وَإِنْذَارِ
فَإِنْ عَصَيتُمْ مَقَالي اليَومَ فَاعْتَرِفُوا ... أَنْ سَوْفَ تَلْقَونَ خِزْيًا ظَاهِرَ العَارِ
لَتَرْجِعُنَّ أَحَادِيثًا مُلَعَّنَةً ... لَهْوَ المُقِيمِ وَلَهْوَ المُدْلِجِ السَّارِي

ففيه العظة والنصح والعقاب، وهو مسلك جيد من القائد والحاكم الذي يريد التخويف والزجر لا الفخر والقتل.

ومن الأغراض الشائعة في التمثُّل الاعتذار، ومنه ما تمثَّل به الفضل بن الربيع(ت٢٠٨هـ) كاتب الأمين يطلب العفو من المأمون بعد قتله الأمين، وانقياد الخلافة له[٣٧]:

صَفُوحٌ عَنِ الإِجْرَامِ حَتَّى كَأَنَّهُ ... مِنَ العَفْوِ لَمْ يَعْرِفْ مِنَ النَّاسِ مُجْرِمَا
وَلَيْسَ يُبَالِي أَنْ يَكُونَ بِهِ الأَذَى ... إِذَا مَا الأَذَى لَمْ يَغْشَ بِالْكُرْهِ مُسْلِمَا

وما أحسن كلمة(صفوح) التي تهش لها النفس. وأحسن منه ما تمثَّل به سهل بن هارون(ت٢١٥هـ) مع صاحب له قد وجد عليه[٣٨]:

إِنْ تَعْفُ عَنْ عَبْدِكَ المُسِيءِ فَفِي ... عَفْوِكَ مَأْوَى الفَضْلِ وَالمَنِّ
أَتَيْتُ مَا أَسْتَحِقُّ مِنْ خَطَإٍ ... فَجُدْ بِمَا تَسْتَحِقُّ مِنْ حَسَنِ

ففيه اعتراف بالذنب، وعبودية وضراعة، وثناء ومدح، وهو ما يشرح النفس، ويحركها للعفو.

ودونه تمثُّل جعفر بن عثمان المُصحفيِّ الأندلسيِّ(ت٣٧٢هـ)[٣٩] يطلب العفو من المنصور بن أبي عامر(ت٣٩٣هـ)[٤٠]:

عَفَا اللهُ عَنْكَ أَلَا حُرْمَةٌ ... تَعُوذُ بِعَفْوِكَ أَنْ أُبْعَدَا
لَئِنْ جَلَّ ذَنْبٌ وَلَمْ أَعْتَمِدْهُ ... فَأَنْتَ أَجَلُّ وَأَعْلَى يَدَا
أَلَمْ تَرَ عَبْدًا عَدَا طَوْرَهُ ... وَمَوْلًى عَفَا وَرَشِيدًا هَدَى

وَمُـفْـسِـدَ أَمْـــرٍ تَـلَافَـيْـتَـهُ فَـعَـادَ فَـأَصْـلَـحَ مَـا أَفْـسَـدَا
أَقِـلْـنِـي أَقَـالَـكَ مَـنْ لَمْ يَـزَلْ يَـقِـيكَ وَيَـصْـرِفُ عَـنْـكَ الـرَّدَى

والأبيـات على ما فيها من حُسن تجافي طبيعة الاعتذار؛ لاشتمالها على عدم تعظيـم المخاطب (عنـك- عفوك-أنت-أقلني-يقيك)، وربمـا كان لهذا دور في عـدم العفو عنه، ولكنه من جانـب آخر يناسب ابن المصحفـي الذي كان حاجبًا والمنصور كاتبًا. وأبرع من الجميع في تمثُّله تميم بن جميل[٤١] في اعتذاره للخليفة المعتصم(ت٢٢٧هـ)، فقد ضَمَّنَه حديثًا عن الصِّبيـة الصِّغار، وتَرْكهم في مهب الريح وعوادي الزمان بلا ساتر أو عائل[٤٢]:

وَمَـا حَـزْنِي أَنِّي أَمُـوتُ وَإِنَّـنِـي لَأَعْـلَـمُ أَنَّ الـمَـوْتَ شَـيءٌ مُـؤَقَّـتُ
وَلَـكِـنَّ خَلْفِي صِبْيَةً قَدْ تَرَكْتُهُمْ وَأَكْـبَـادُهُـمْ مِـنْ حَـسْـرَةٍ تَـتَـفَـتَّـتُ
كَـأَنِّي أَرَاهُـمْ حِـينَ أُنْـعَـى إِلَـيْـهِـمُ وَقَـدْ خَمَشُوا تِلْكَ الوُجُوهَ وَصَوَّتُوا
فَإِنْ عِشْتُ عَاشُوا خَافِضِينَ بِنِعْمَةٍ أَذُودُ الـرَّدَى عَنْهُمْ وَإِنْ مُتُّ مَوَّتُوا

فقال له المعتصم: قد غفرتُ لك، ووهبتُك لله ولصبيتك. والاعتذار بالصِّبية مَجلبة للعفو، فقد عفا الله عن أوس بن الصامت وزوجه خَوْلَة بنت ثعلبة (صاحبة المُجادلـة) بسبب الصِّبية، وعفا النبي صلى الله عليه وسلم عن أبي عَزَّة الشاعر للصِّبية، وعفا عمر رضي الله عنه عن الحطيئة لاعتذاره بالصِّبية.

ومـن أبرز أغراض التمثُّـل بالشِّعر الحِكمـة، فهي معدن التمثُّـل وجوهره، يُستخـدم الشِّعر فيها كالمثل، وأكثر ما يكون في الأبيـات المفردة التي تشتمل على معنـى شـرود أو فريد، وهـو ما يسمى بالأمثـال الشِّعرية، ومن ذلـك ما يقال في الشجاعة[٤٣]:

لَـبِّـثْ قَـلِـيلًا يَـلْـحَـقِ الـهَـيْـجَـا حَـمَـلْ
مَـا أَحْـسَـنَ الـمَـوْتَ إِذَا حَـانَ الأَجَـلْ[٤٤]

تمثل به سعد بن معاذ رضي الله عنه(ت٥هـ) يوم الخندق.

ومن ذلك تمثُّل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما (ت٦٨هـ) لما خرج الحسين ابن علي(ت٦١هـ) من مكة وخلا الجو فيها لعبد الله بن الزبير (ت٧٣هـ)[٤٥]:

يَـا لَـكِ مِـنْ قُـبَّرَةٍ بِمَعْمَرِ
خَلَا لَكِ الْجَوُّ فَبِيضِي وَاصْفِرِي
وَنَـقِّـرِي مَـا شِـئْتِ أَنْ تُـنَـقِّـرِي

ومن ذلك تمثُّـل الخليل بن أحمد الفراهيدي(ت١٧٠هـ) كلما ضاقت عليه سُبل الرزق[٤٦]:

وَإِذَا افْتَقَرْتَ إِلَى الذَخَائِرِ لَمْ تَجِدْ ذُخْـرًا يَـكُونُ كَصَـالِحِ الأَعْـمَـالِ

ويلاحظ البحث تأخر بعض الأغراض الشعرية في التمثُّل بالشِّعر كالهجاء والغزل، وغياب البعض الآخر كالوصف.

أغراض التمثُّل بالشِّعر بين الكثرة والقلة:

إذا أردنا أن نتصور كثرة أغراض التمثُّل بالشِّعر بدقة، فعلينا أن نُحرِّرها من ارتباطها بأغراض الشِّعر، ونضع بدلًا منها (مقامات التمثُّل بالشِّعر)، ونستطيع أن نقف على أثر ذلك من خلال (أبيات الاستشهاد) لابن فارس، فقد ذكر فيه (١٣٣) مئة وثلاثة وثلاثين مقامًا للتمثُّل بالشِّعر منها: ما يُتَمَثَّل به عند العِتاب، والألم، والشكوى، والزيارة، والسؤال، والتحذير، وتَغيُّر الحال، ورؤية غائب، وعند الوعد والمطال...إلخ، وهذه المقامات قابلة للزيادة على حسب تَغيُّر الأحوال، وتصرُّف المُتمثِّل في المقال، ومن ثَمَّ فأغراض التمثُّل بالشِّعر أغزر من أغراض الشِّعر؛ لأنه-أي التمثُّل- يشارك الشِّعر في جُلِّ أغراضه، ويشارك النثر في كلِّ أغراضه، وأغراض النثر أوفر من أغراض الشِّعر، وموضوعاته أكثر من أن تُحد، فيأتي التمثُّل في المعاني الفرعية كالصَّبر والحزم والحِلم والزهد... إلخ، ومن هذه المعاني الفرعيَّة التمثُّل في الشوق والحنين إلى الأوطان، ومنه تمثُّل

بلال بن رباح رضي الله عنه لما هاجر إلى المدينة فغلبه الشوق إلى مكة، فقال وقد أشرف على الهلاك[٤٧]:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً ... بِفَخٍّ وَحَوْلِي إِذْخِرٌ وَجَلِيلُ[٤٨]

وَهَلْ أَرِدَنْ يَوْمًا مِيَاهَ مَجَنَّةٍ ... وَهَلْ يَبْدُوَنْ لِي شَامَةٌ وَطَفِيلُ

ومن التَّذكير بالرَّحيل تمثُّل الحسن البصري(ت١١٠هـ) بقول الشاعر[٤٩]:

المَوْتُ بَابٌ وَكُلُّ النَّاسِ دَاخِلُهُ ... فَلَيْتَ شِعْرِي بَعْدَ البَابِ مَا الدَّارُ

ومن إظهار الوُدِّ والتَّرحيب تمثُّل أبي الميمون القُشَيريِّ يحيى بن عبادة بن جَحَّاف وهو داخل على أبي علي الهَجَريِّ(ت٢٨٨هـ تقريبًا) بيته زائرًا[٥٠]:

حَيَّا الإِلَهُ خَيَالَ مَنْ لَوْ زَارَنَا ... عَدَدَ اللَّيَالِي خِلْتُ ذَاكَ قَلِيلا

أغراض التمثُّل بالشِّعر بين التبعية والاستقلال:

التمثُّل بالشِّعر يأتي غالبًا تابعًا لغيره، ومسبوقًا بحديث أو حوار، والتمثُّل في هذه الحالة مشارك لغيره في غرض الكلام، يتعاون مع النثر على إتمامه، ودور التمثُّل (الشِّعر) يقتصر في هذه الحالة على التأكيد والإعانة، وقد يستقل التمثُّل بنفسه، ويستولي على الغرض كله، فلا يسبقه ولا يلحقه كلام في غرضه، ومن ذلك لما رأت أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- النبي صلى الله عليه وسلم يومًا وقد عَرِق وجهه، وتلألأ جبينه، فقالت: لو رآك أبو كبير الهُذليِّ لعلم أنك أحق بشعره فقال لها: وما يقول يا عائشة أبو كبير؟ قالت: يقول[٥١]:

وَمُبَرَّأٌ مِنْ كُلِّ غُبَرِّ حَيْضَةٍ ... وَفَسَادِ مُرْضِعَةٍ وَدَاءٍ مَغْيَلِ

فَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى أَسِرَّةِ وَجْهِهِ ... بَرِقَتْ كَبَرْقِ العَارِضِ المُتَهَلِّلِ

ومن ذلك لما حبس الرشيد أبا العتاهية، وبينما هو في السجن ذاهلًا يعاني الوجد وآلام الحبس، وجد رجلًا صابرًا صامتًا ثم تمثَّل الرجل فجأة[٥٢]:

تَـعَـوَّدْتُ مَسَّ الضُّـرِ حَتَّـى أَلِـفْـتُـهُ وَأَسْلَمَنِي حُسْنُ العَزَاءِ إِلَى الصَّبْرِ
وَصَـيَّرَنِي يَأْسِـي مِـنَ النَّـاسِ وَاثِقًـا بِحُسْنِ صَنِيعِ اللهِ مِنْ حَيْثُ لَا أَدْرِي

هكـذا تمثَّل بها الرجـل لم يسبقها حديـث ولم يتبعها حديث، فجـاء التمثُّل مستوليًا على الغرض كله لا يشاركه فيه غيره.

ومنـه تمثُّل علي بن عيسـى بن الجراح (ت٣٣٤هـ) لما استـوزه المقتدر، ورأى اجتماع الناس عليه، وكان ديِّنًا فقيهًا عالمًا بالحديث فتمثَّل بقول أبي العتاهية[٥٣]:

مَا النَّاسُ إِلاَّ مَعَ الدُّنْيَا وَصَاحِبِهَا فَكَيْفَمَا انْقَلَبَتْ يَوْمًا بِهِ انْقَلَبُوا
يُعَظِّمُونَ أَخَا الدُّنْيَا فَإِنْ وَثَبَتْ يَوْمًا عَلَيْهِ بِمَا لَا يَشْتَهِي وَثَبُوا

التمثُّل ونقل الشِّعر إلى أغراض جديدة:

مـن المعـروف أن التمثُّل إنشاء من إنشاء، وأخذ من بنـاء، وأن المُتمثِّل يقطع جـزءًا من قصيـدة سابقة ويستخدمهـا في مناسبة خاصة به، وهنـا سؤال مهم هـل يأتي التمثُّـل في غرض الشِّعر السابق نفسه دائمًا؟ أم يجوز تحويله ونقله إلى أغراض جديدة؟

بتتبع شواهد التمثُّل بالشِّعر تبيَّن مُفارقة بعض الأشعار لغرضها الأصلي، وتحويلها إلى أغراض جديـدة؛ من ذلك ما فعله يحيى بن مالك بن عائذ (ت٣٧٦هـ)[٥٤] حين دخل المسجد والصلاة تُقام فتمثَّل بأعلى صوته[٥٥]:

يَـا رَبِ لَا تَسْـلُبَنِّي حُبَّهَا أَبَـدًا وَيَـرْحَـمُ اللهُ عَبْـدًا قَـالَ آمِـينَا

فنقـل البيـت من الغزل إلـى الشِّعر الدينـي، لكـن وإن كان الغرض مختلفًا في الظاهـر إلا أن العاطفـة مُتحـدة في الباطـن، والغرضـان يجمعهمـا جـذر واحد (الحب).

ومن ذلك تمثُّل المكتفي بالله (ت٢٩٥هـ) لما مرض وزيره القاسم بن عبيد الله

ابـن سليمان(ت٢٩١هـ) واستخلف ابن أخيه عبد الوهاب بـن الحسن، وزار أبو القاسم المكتفي، فلما خرج من عنده تمثَّل المكتفي[٥٦]:

وَلَمَّـا أَبَـى إِلَّا جِمَـاحًـا فُـؤَادُهُ ... وُلَمْ يَسْلُ عَنْ لَيْلَى بِمَالٍ وَلَا أَهْلِ

تَسَلَّى بِأُخْرَى غَيْرِهَا فَإِذَا الَّتِي ... تَسَلَّى بِهَا تُغْرِي بِلَيْلَى وَلَا تُسْلِي

ومن الملاحظ أن أكثر النقل والتغيير يقع في شعر الغزل[٥٧]؛ وهذه الإشارات تدل على ما بين الغزل وسائر أغراض الشِّعر من وشائج وصلات.

جدية أغراض التمثُّل بالشِّعر:

بقـي أن أنوه إلى جدية أغراض التمثُّل بالشِّعر ورزانتهـا، وخلوها من اللهو والمجـون، ومجيئها في موضوعـات مهمة، فندر أن تجد تمثُّـلاً في فحش، أو خمر أو غـزل ماجـن أو هجـاء، وربما يرجـع السِّر في ذلـك إلى شرف أعـلام التمثُّل ومكانتهم -وسيأتي الحديـث عنهم- فكلهم سادة نُجُب من الذين إذا مروا على اللهـو مرُّوا كراما، وهذا يعكس من جانب آخـر صورة الحياة العربية المبنية على الكفاح والجِدِّ والمؤسسة على العِفَّة والفضيلة.

المبحث الثالث

التمثُّل بالشِّعر والنقد الأدبي

اهتمام النقد بالتَّمثُّل بالشِّعر:

هـل احتفى النقد الأدبـي بالتمثُّل بالشِّعـر كمصطلح نقـدي وظاهرة أدبية واجتماعيـة؟ هـل تناولها من كافـة الزوايا؟ وكيف ارتسمـت الظاهرة في مخيلة النقاد؟

ظهـر التَّمثُّـل بالشِّعـر في مدونـات النقـد الأولى علـى استحيـاء في صورة أخبـار أدبية مجردة، يستدعيه سرد الأخبـار والحديث عن الشعراء، فذكره ابن سلام (ت٢٣١هـ) أربـع مرات[٥٨] من غـير تعليق، وتوسَّع ابـن قُتيبة (ت٢٧٦هـ) في تناولـه للظاهرة علـى نحو يرشح القول بأن التمثُّـل كان أحد أدوات الناقد في تقـويم النتاج الشِّعـري، وتتبُّع أثره في المجتمع، فـأورده (٢٤) أربعًا وعشرين مرة تقريبًـا[٥٩]، سلَّـط الضوء فيها علـى القضية من زاوية فنيـة خالصة؛ هي زاوية الشِّعـر والشَّاعر، فـكان يذكر الأبيات التـي يتمثَّل بهـا الناس–غالبًا- من شعر الشاعـر من غـير تفصيل لموضوع التمثُّـل وقصته، أو دور المتمثِّـل فيه، من ذلك قوله عن امرئ القيس: «ومما يُتَمَثَّل به من شعره قوله:

وَقَـدْ طَـوَّفْـتُ فِي الآفَـاقِ حَتَّى رَضِيْتُ مِنَ الغَنِيمَةِ بِالإِيَابِ»[٦٠]

ورؤيته على جلالتها أحاديَّة النظرة؛ لأنه اهتم بزاوية الشاعر، وأهمل زاوية المُتمثِّـل، بينما ربط ابن رشيق (ت٤٥٦هـ) بين المثل والتمثُّل، فأعلى من قيمة المثل بسبـب التمثُّـل، ونقـل رأي حماد في رفعة شعـر النابغة لصحـة التمثُّل منه ببيت أو نصفه، وضرب مثالًا بقوله:

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْـرُكْ لِنَفْسِكَ رِيْبَةً وَلَيْسَ وَرَاءَ اللهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ[٦١]

وذكـر تقسيم عبـد الكريم للشِّعر، وجعله المثل الشِّعـري من أجل أقسامه في قوله: «والمثل العائد على من تمثَّل به بالخير»[٦٢].

ثمَّة اتجاه آخر للتمثُّل في النقد الأدبي؛ وهو محاولة تزويد القارئ بما يصلُح لـه من الشِّعر، وقد جاء هذا عبر سلسلة مـن المؤلفات جمع فيها النقد ما يصلح للتمثُّـل وطرحه على الجمهور من ذلـك: (رسالة في أعجاز أبيات تغني في التمثُّل عـن صدورها) للمبرد (ت٢٨٥هـ) جمـع فيها [٨٤] أربعة وثمانـين شطرًا لأعجاز أبيـات تصلح للتمثُّـل بها، جمعها لمختلـف الشعراء ما بين مشهـور ومغمور حتى

العصر العباسي، وتضمنت الرسالة كثيرًا مما شُهر من أبيات التمثُّل[٦٣]، ومما أورده من الأمثلة قول زهير بن أبي سُلمى (ت١٣ق.هـ):

وَلَا مَحَالَةَ أَنْ يَشْتَاقَ مِنْ عَشِقَا

وقول القُطَامي(ت١٣٠هـ):

وَقَدْ يَكُونُ مَعَ المُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ

وقول نُصَيب(١٠٨هـ):

وَلَوْ سَكَتُوا أَثْنَتْ عَلَيْكَ الحَقَائِبُ[٦٤]

ومن الملاحظ أن الرسالة خلت من الشرح والتفسير، ومن تعريف التمثُّل وقيمته.

ونلقى (أبيات الاستشهاد) لابن فارس(ت٣٩٥هـ)، وقد جمع فيه(١٣٣) مئة وثلاثة وثلاثين مقامًا للتمثُّل تقريبًا، ساقها على لسان رجل أديب بارع أعد للأمور عُدتها بلسان فصيح ونهج مليح، ومهد لها على لسانه بذكر ما يناسبها من المواقف والأحوال. وغالب ما ذكره أبياتٌ مفردة إلا عشرة نماذج كلٌّ منها بيتان، ونموذجان نصف بيت، وكان يكتفي بذكر مثال واحد في كل مناسبة إلا في ست مناسبات ذكر فيها مثالين. ومجمل ما ذكره من أبيات(١٤٩) مئة وتسعة وأربعين بيتًا. ومن أمثلته، وإذا حضر رئيس من الرؤساء وأراد مدحه أنشد:

لَوْ نَالَ حَيٌّ مِنَ الدُّنْيَا بِمَكْرُمَةٍ ... أُفْقَ السَّمَاءِ لَنَالَتْ كَفُّهُ الأُفُقَا

وإذا فخر بمن تقدم أنشد:

تَرَى النَّاسَ مَا سِرْنَا يَسِيرُونَ خَلْفَنَا ... وَإِنْ نَحْنُ أَوْمَأْنَا إِلَى النَّاسِ وَقَّفُوا

وإذا أخذ إنسان يتهم أحدًا غيره أنشد:

رَأَيْتُ الحَرْبَ يَجْنِيهَا رِجَالٌ ... وَيَصْلَى حَرَّهَا قَوْمٌ بِرَاءُ[٦٥]

وابـن فارس وإن توسَّع في تناول الظاهرة والإشـادة بها، كان تناوله كسابقه خِلوًا من أي إشارات نقدية عن الظاهرة.

ونلقـى أبـا منصـور الثعالبي(ت٤٢٩هـ) وكتابه التمثيـل والمحاضرة، جمع فيـه ما يصلح للتمثُّـل من القرآن والسنة، وأقوال سلـف الأمة، وبثَّ في تضاعيفه مـا يصلُح للتمثُّل بـه من الشِّعر، وعقـد في الفصل الأول عنوانًا لمـا يتمثَّل به من شعـر الجاهليين والإسلاميـين والمُحدثـين والمولدين...إلـخ[٦٦]. ونلقى جار الله الزمخشري(ت٥٣٨هـ) وكتابه (ديوان التمثُّل)[٦٧]، ولم يصل الكتاب، والغالب من عنوانـه أنه اشتمل على التمثُّل بالشِّعر، ويأتي بعده النَّهْرَوَالي(ت٩٨٨هـ)[٦٨] وقد ألف كتابه (التمثيل والمحاضرة بالأبيات المفردة النادرة)[٦٩]، وقد قصره صاحبه علـى التمثُّل بالشِّعر، وجعله في الأبيات المفردة دون غيرها، وتطورت الفكرة عند الوزير حسين رضا باشا من وزراء الدولة العثمانية (ت بعد ١٣٢٠هـ)[٧٠]، وكتابه (أحسن ما قيل في مصاريع التمثيل) غاب الكتاب في طي النسيان، و بقي العنوان يوحـي بأنه جمع فيـه أبياتًا تصلُح للتمثُّل مـن العربية والفارسيـة والتركية[٧١]، ونلقى في العصـر الحديث محمد بن إبراهيم الحمد(١٣٨٥هـ-٠٠٠)[٧٢] وكتابه (التمثُّـل بالشِّعر)، وقد جعله صاحبه ذيلًا على كتـاب (أبيات الاستشهاد) لابن فارسـ، جمع فيـه(٤٢٨) أربع مئة وثمانيـة وعشرين مقامًا للتمثُّـل للشعراء من شتى العصور، وكان يأتي في المقام الواحد بالشاهد والاثنين والثلاثة[٧٣]، والكتاب كسابقيه خلا من أي إشارات نقدية عن الظاهرة.

وتجـدر الإشارة إلـى سلسلة من الكتب تناولت الموضـوع ضمن موضوعاتها سأكتفي بالتمثيل لها بمثالين الأول: نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري(ت٧٣٣هـ)، أفرد فيه عنوانًـا للتمثُّل، تناول فيه ما يُتَمثَّل به من شعر الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين...إلخ. والثاني: زهر الأكم في الأمثال والحكم لليوسي(ت١١٠٢هـ)، ذكـر فيه باب الأمثال الشعريـة وصدَّره بالحديث عن التمثُّـل بالشِّعر[٧٤]، وهذه الكتب لا تختلف في رؤيتها عن الكتب السابقة.

نخلُص من ذلك إلى أن النقد الأدبي تنبَّه للتمثُّل بالشِّعر وأثره، ورصده، ورفده بسلسلة من المؤلفات تُغذي الظاهرة وتُنمِّيها، ولكن في هذه وتلك لم يتناوله بالدراسة والتحليل.

ثمة دور آخر قام به النقد في حديثه عن التمثُّل بالشِّعر ينبغي الإشارة إليه ولو في عُجالة، وهو أن النقد الأدبي وقف عند بعض النماذج بالنقد، وسأكتفي- لضيق المقام- بمثالين:

فمن التمثُّل الحسن؛ لما دخل منذر بن سعيد قاضي الجماعة بقرطبة(ت٣٥٥هـ) على عبد الرحمن الناصر (ت٣٥٤هـ) وهو يبني الزهراء، فوعظه منذر بن سعيد لإسرافه في البناء، فتمثَّل الناصر:

هَمَمُ المُلُوكِ إِذَا أَرَادُوا ذِكْرَهَا ... مِنْ بَعْدِهِمْ فَبِأَلْسُنِ البُنْيَانِ
أَوَ مَا تَرَى الهَرَمَيْنِ قَدْ بَقِيَا وَكَمْ ... مُلْكٌ مَحَاهُ حَوَادِثُ الأَزْمَانِ

قال المَقَّري: «فإن كان شعره فقد بلغ فيه غاية الإحسان، وإن كان تمثَّل به فقد استحقه بالتمثُّل في هذا المكان»[٧٥].

قلت:

وقد اخترت هذا النموذج لنفاسته ونفاسة التعليق عليه؛ فالنموذج مؤشر على أن المغرب العربي يشارك صنوه المشرق في الاحتفاء بالظاهرة ونموها، وإن بدا الاهتمام بها في المغرب أقل من المشرق بكثير. أما نفاسة التعليق عليه فلأن المَقَّريَّ صاحب النفح حكم بشاعرية المُتمثِّل (الناصر)، وأنه أحق بالأبيات من منشئها لحسن تمثُّله بها.

وجهة نظر الناصر صحيحة؛ فعظَم البناء يدل على عظمة الباني قال تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ (الشعراء: ١٤٩)، وعَدَّهُ القرآن من مفاخر عاد وعظمتها فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾﴾ (الفجر: ٦-٨).

بناء الرجال أجدى وأنفع من بناء البلاد، لذا كان الخليفة المأمون(ت٢١٨هـ) بارعًا في تمثُّله لما رأى أخاه المعتصم (ت٢٢٧هـ) يُعِدُّ الرجال وابنه يَتَّخِذ الضياع فأنشد[٧٦]:

يَبْنِي الرِّجَالَ وَغَيْرُهُ يَبْنِي القُرَى ... شَتَّانَ بَيْنَ مَزَارِعٍ وَرِجَالِ
قَلِقٌ بِكَثْرَةِ مَالِهِ وَسِلَاحِهِ ... حَتَّى يُفَرِّقَهُ عَلَى الأَبْطَالِ

ولله درُّ الحطيئة في إشادته ببناء الأمجاد لا بناء البلاد[٧٧]:

أولَئِكَ قَوْمٌ إنْ بَنَوا أَحْسَنُوا البُنَى ... وَإنْ عَاهَدُوا أَوْفُوا وَإنْ عَقَدُوا شَدُّوا

أمـا التمثُّل المعيب فمنه ما تمثَّل به يزيد بن معاوية(ت٦٤هـ) في وقعة الحَرَّة لَمَّا بلغه انتصار قائده مُسلم بن عُقْبَة المُرِيِّ(ت٦٣هـ) على أهل المدينة[٧٨]:

لَيْتَ أَشْيَاخِي بِبَدْرٍ شَهِدُوا ... جَزَعَ الخَزْرَجِ مِنْ وَقْعِ الأَسَلْ

وأقول:

الكلام في نسبة التمثُّل إلى يزيد كثير، واحتمال كذبه عليه كبير، ولكن أورده كثير من الثِّقات منسوبًا إليه، والفصل في صحة النسبة يوم الفصل[٧٩].

اعترض كثير من الأعلام -والحق معهم- على تمثُّل يزيد بهذا البيت حتى وصل الأمر إلى اتهامه بالنفاق وتكفيره ولعنه[٨٠].

لو كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيًّا لعاقبه عقابًا شديدًا على تمثُّله هذا، فقد عَذَّر في أقل منه حين مرَّ رجل من مُزينة على باب رجل من الأنصار، وكان يتّهم بامرأته فتمثَّل:

هَلْ مَا عَلِمْتَ وَمَا اسْتُودِعْتَ مَكْتُومُ ... أَمْ حَبْلُهَا إِذْ نَأَتْكَ اليَوْمَ مَصْرُومُ؟

فاستعدى ربُّ الْبَيْت عَلَيْهِ عمر، فأمر به عمر فَحُدَّ[٨١].

ربما دفع يزيد إلى هذا التمثُّل ما كانت تُكنُّه بنو أمية من ضغينة لأهل المدينة

لمقتل عثمان رضي الله عنه بين ظهرانيهم، ولخروجهم عليهم بعد مقتل الحسين رضي الله عنه، والخزرج ثُلَّة منهم، وكان يزيد -قبل ذلك- لما ضجِر من أهل المدينة قال لكعب بن جُعَيل (ت٥٥هـ تقريبًا): "إن عبد الرحمن بن حسَّان قد فضحنا، فاهجُ الأنصار! فقال له كعب: أرادِّي أنت إلى الشرك! أأهجو قومًا نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وآوَوْه؟"[٨٢]، فهجاهم الأخْطَل.

المبحث الرابع

أعلام التمثُّل بالشِّعر

هذا باب قصدنا فيه وجهًا جديدًا من وجوه التمثُّل بالشِّعر، وهو الحديث عن أعلامه ونجومه، لنقف على أثر المُتمثِّل في الشِّعر، ونستبين مدى انتشار التمثُّل بالشِّعر بين العرب، ونكشف عن مدى تقديرهم له على اختلاف مشاربهم، وتنوع مذاهبهم، وشرطنا فيمن نورد ذكره في هذا الباب أن يكون ممن شُهِد له بكثرة التمثُّل بالشِّعر، أو ممن نال تمثُّله حظًا موفورًا من الشهرة.

وأول من نلقى في هذا الباب حبيبي وشفيعي، رسول السلام وهادي الأنام؛ محمد صلى الله عليه وسلّم يتمثَّل بقول الشاعر: «(كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهيا) فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله! إنما قال الشاعر: كفى بالشيب والإسلام للمرء ناهيا. فجعل أبو بكر رضي الله عنه يقول بالشيب والإسلام، والنبي صلى الله عليه وسلّم يقول: «بالإسلام والشيب»، فقال أبو بكر: أشهد أنك رسول الله، ما علمك الله الشِّعر وما ينبغي لك»[٨٣].

والبيت لعبد بني الحَسْحَاس (ت٤٠هـ) وتمامه[٨٤]:

عُمَيْرَةَ وَدِّعْ، إِنْ تَجَهَّزْتَ غَادِيَا كَفَى الشَّيْبُ وَالإِسْلَامُ لِلْمَرْءِ نَاهِيَا

فقدم الشيب على الإسلام ولو كان هذا في غير الشِّعر ما قبلتُه منه، وقد

صحَّح النبي صلى الله عليه وسلّم ما وقع فيه الشاعر من خطأ فقدم الإسلام على الشيب، ولا بأس في هذا، فالبيت ملك للمُتمثِّل، يجوز له أن يقدم ويؤخر فيه أو يُغيِّر كلمة بأخرى يراها أحسن في موضعها وأثبت في معناها؛ لأن العرب إنما يتمثَّلون بالشِّعر لغير الغرض الذي قامت به الرواية[٨٥].

ومن أعلامه الثاني التالي المحمود مشهده، مُذِلُّ الدنيا مُعِزُّ الآخرة الصديق أبو بكر رضي الله عنه (ت١٣هـ) في موطن ذكر منن الأنصار وفضائلهم قال: «ما وجدتُ لنا ولهذا الحي من الأنصار مثلًا إلا ما قال طُفَيل الغَنَوِيِّ:

جَزَى الله عَنَّا جَعْفَرًا حينَ أَزْلَقَتْ ... بِنَا نَعْلُنَا في الوَاطِئِينَ فَزَلَّت

أَبَوْا أَنْ يَمَلُّونَا وَلَوْ أَنَّ أُمَّنَا ... تُلَاقِي الَّذي لَاقَوْهُ مِنَّا لَمَلَّت

هُمْ خَلَّطُونَا بِالنُّفُوسِ وَأَلْجَئُوا ... إِلَى حُجُرَاتٍ أَدْفَأَتْ وَأَظَلَّت[٨٦]

وهذا التمثُّل لقطة قصيرة مكثفة، تنطوي على وحدة الانطباع والحدث كالقصة القصيرة تمامًا، عامرة بالصدق العاطفي، تُبرز في جلاء فضل الأنصار وبرهم بإخوانهم المهاجرين، وتصور على وجه دقيق أبرز وجوه المؤاخاة بينهما، وقد استطاع أبو بكر رضي الله عنه من خلال تمثُّله أن يجمع بين طرفي القضيَّة المهاجرين والأنصار متلاحمين في مشهد واحد، وهو –أي هذا التمثُّل– يمثِّل ضربًا من ضروب أسلمة الشِّعر وتحويل مساره،؛ كان في الجاهلية يُعبِّر عن قضيَّة إنسانيَّة، فصار بعد الإسلام يُعبِّر عن قضية إسلاميَّة (إنما المؤمنون إخوة).

ومن أعلام التمثُّل بالشِّعر الخليفة العادل، الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه (ت٢٣هـ) ما عرض له أمر إلا تمثَّل فيه ببيت من الشِّعر[٨٧].

روى أنه رضي الله عنه لما حجَّ مرَّ بوادي ضَجَنَان[٨٨] فذكر نعمة الله عليه، وذكر أنه كان مُستضعفًا يرعى إبلًا للخطاب في هذا الوادي، وقد أمسى اليوم خليفة للمسلمين ليس بينه وبين الله أحد، ثم تمثَّل[٨٩]:

لَا شَيءَ ممَّا تَرَى تَبْقَى بَشَاشَتُهُ ... يَبْقَى الإِلَهُ وَيُودى المَالُ وَالْوَلَدُ
لَمْ تُغْنِ عَنْ هُرْمُزٍ يَوْمًا خَزَائِنُهُ ... وَالخُلْدَ قَدْ حَاوَلَتْ عَادٌ فَمَا خَلَدُوا
وَلَا سُلَيْمَانَ إِذْ تَجْرِي الرِّيَاحُ لَهُ ... وَالجِنُّ وَالإِنْسُ فِيمَا بَيْنَهَا تَرِدُ

وتمثُّله يصور نفسًا زكيَّة طيبة لم يفتنها زخرف الدنيا، ولم تغتر بعظم مكانه، وسعة سلطانه، فكل نعيم لا محالة زائل، وهو وغيره من تمثُّلات عمر بن الخطاب رضي الله عنه يجسِّد توجهه الإسلامي في الشِّعر ونقده.

ومن أعلام التمثُّل بالشِّعر الخليفة الشهيد عثمان بن عفان رضي الله عنه (ت٣٥هـ) في رسالته لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه يوم الدار[٩٠]:

أما بعد، فإنه قد جاوز الماء الزُّبى، وبلغ الحزام الطُّبْيَين[٩١]، وتجاوز الأمر بي قدره، وطمع فيَّ من لا يدفع عن نفسه:

فَإِنْ كُنْتُ مَأْكُولًا فَكُنْ خَيْرَ آكِلٍ ... وَإِلَّا فَأَدْرِكْنِي وَلَمَّا أُمَزَّقِ

والتمثُّل يصور حال الخليفة المحاصر أدق تصوير، ووضعه التمثُّل في آخر الرسالة يجعله الخُلاصة والخَلاص. ومن الطريف أن هذا البيت ميمون الطائر يوم إنشائه ويوم إنشاده؛ لما سمعه النُّعمان بن المُنذر قال لشَأْس بن نَهَار (المُمَزَّق العَبْدِي): لا آكلك ولا أُوكِلك غيري، ولما سمعه عليٌّ أرسل حسنًا وحسينًا لحراسة عثمان، ولما تمثَّل به بختيار سارع عضد الدولة البويهي لنجدته، ولما تمثَّل به أسد الدين محمد بن الحسن أرسل السلطان الرسولي لنجدته، ولما تمثَّل به الخليفة المستنصر، نَجَدَهُ البدر الجمالي ونزل بجيشه مصر[٩٢].

ومن أعلام التمثُّل بالشِّعر علي بن أبي طالب رضي الله عنه (ت٤٠هـ) ومن ذلك تمثُّله، وقد شاهد طلحة بن عبيد الله مقتولا في موقعة الجمل[٩٣]، فقال: أَعَزِزْ عليَّ أبا محمد أن أراك مُعَفَّرا تحت نجوم السماء وفي بطون الأودية، شَفَيتُ نفسي وقتلتُ معشري! إلى الله أشكو عُجَري وبُجَري ثم تمثَّل[٩٤]:

فَتًى كَانَ يُدْنيه الغنَى مِنْ صَديقه ... إذَا مَا هُوَ اسْتَغْنَى وَيُبْعدُهُ الفَقْرُ
فَتًى لَا يَعُدُّ المَالَ رَبًّا وَلَا تُرَى ... بِه جَفْوَةٌ إنْ نَالَ مَالًا وَلَا كِبرُ
فَتًى كَانَ يُعْطِي السَّيْفَ فِي الرَّوْعِ حَقَّهُ ... إذَا ثَوَّبَ الدَّاعِي وَتَشْقَى بِه الجُزُرُ
وَهَوَّنَ وَجْدِي أَنَّنِي سَوْفَ أَغْتَدِي ... عَلَى إِثْرِهِ يَوْمًا وَإِنْ نُفِّسَ العُمْرُ

وتمثُّله يعبِّر عن مرحلة عصيبة من حياة الصحابة رضي الله عنهم ويُظْهِر أن ما تُكنُّه النفوس يناقض ما تفعله السيوف والتروس. وتصرُّف الإمام علي رضي الله عنه في الشِّعر بإهمال النِّسبة والتقديم والتأخير وظروف الاستدعاء ترقى بهذا التمثُّل إلى دائرة الإبداع الفني، فالتمثُّل بالشِّعر من رجاله أشبه بإنشائه وارتجاله.

ومن أعلام التمثُّل بالشِّعر الحصان الرَّزَان المبرأة النقية أمي عائشة رضي الله عنها (ت٥٨هـ) وقد تمثَّلت[٩٥]:

ذَهَبَ الذينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ ... وَبَقِيتُ فِي خَلْفٍ كَجِلْدِ الأَجْرَبِ

والبكاء والألم منها سائغ مقبول، وكفاها فراق النبي لها، فتلك مصيبة لا تعدلها مصيبة، فما بالها وقد أدركت زمن الفتن، وخاضت موقعة الجمل، ولله درُّ سُفيان بن عُيينة! يأسى على ما وصل إليه من علم ومكانة لفراق الأحبة ويتمثَّل[٩٦]:

خَلَتِ الدِّيَارُ فَسُدْتُ غَيرُ مُسَوَّدِ ... وَمِنَ الشَّقَاءِ تَفَرُّدِي بِالسُّؤْدُدِ

ومن أعلام التمثُّل بالشِّعر معاوية بن أبي سفيان (ت٦٠هـ) والحسين بن علي (ت٦١هـ) -رضي الله عنهما- وهذا تمثل طريف يجمع بينهما؛ مرض معاوية مرضًا شديدًا، فجاءه الحسين يعوده، فقال معاوية: ساندوني وتجلَّد وتحامل على نفسه وتمثَّل[٩٧]:

وَتَجَلُّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهُمُ ... أَنِّي لِرَيبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعْضَعُ

فسلَّم الحسين ثم تمثَّل:

وَإِذَا المَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا ... أَلْفَيْتُ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ

والعرب وإن تشعبت بها المسالك، واختلفت المذاهب، فالمورد واحد؛ جمع بين الخصمين في التمثُّل قصيدة واحدة لأبي ذؤيب الهُذليِّ. وتمثُّلهما يحمل نَفَسًا سياسيًا واضحًا، ولكنه لم يجز على الاثنين، فكلاهما أعرف بصاحبه، صحيح في تمثُّله.

ومن أعلام التمثُّل بالشِّعر عبد الملك بن مروان(ت٨٦هـ)، وكان وفد الكوفة دخل عليه، فَكَلَّمَهُ رجل طويل آدم فأعجبه بيانه فتمثَّل[٩٨]:

وَإِنَّ عِرَارًا إِنْ يَكُنْ غَيْرَ وَاضِحٍ ... فَإِنِّي أُحِبُّ الجَوْنَ ذَا المَنْكِبِ العَمَمْ

فضحك الرجل، فقال عبد الملك: رُدُّوه عليَّ، فلما سأله عن سبب ضحكه، قال: أنا عِرَار يا أمير المؤمنين، فأكرمه عبد الملك وسامره سائر يومه.

هذا بيت من قصيدة طويلة لعمرو بن شَأْس يزجر زوجه ويحذرها من الإساءة لعَرَار ابنه وفيها يقول:

أَرَادَتْ عِرَارًا بِالهَوَانِ وَمَنْ يُرِدْ ... عِرَارًا بُنَيَّ بِالهَوَانِ فَقَدْ ظَلَمْ

فَإِنْ كُنْتِ مِنِّي أَوْ تُرِيدِيْنَ صُحْبَتِي ... فَكُونِي لَهُ كَالسَّمْنِ رُبَّتْ لَهُ الْأَدَمْ

ومن الطريف توارد الشاعر والمتمثِّل على من قيل فيه البيت(عِرَار). ومن الواضح أن عبد الملك يُؤَسِّس بتمثُّله إلى أن مناحي الجمال كثيرة ومتعددة، وأفضلها اللسان والقلب؛ فالمرء بأصغريه قلبه ولسانه (بيانه وجنانه)، ولله درُّ إبراهيم بن المهدي(ت٢٢٤هـ)، وكان قد خرج على المأمون (ت٢١٨هـ) فقال له المأمون هازئًا بعد أن قدر عليه: أنت الخليفة الأسود؟! فتمثَّل إبراهيم بن المهدي[٩٩]:

أَشْعَارُ عَبْدٍ بَنِي الحَسْحَاسِ قُمْنَ لَهُ عِنْدَ الفَخَارِ مَقَامَ الأَصْلِ وَالوَرَقِ
إِنْ كُنْتُ عَبْدًا فَنَفْسِي حُرَّةٌ كَرَمًا أَوْ أَسْوَدَ الجِلْدِ إِنِّي أَبْيَضُ الخُلُقِ

فقد يكون القبح جمالًا إذا صفت النفس، وطاب بها الأنس[١٠٠].

هذا عدا سلسلة من الأعلام شَهِدت لها كتب التراجم أنهم يكثرون من التمثُّل بالشِّعر، سأكتفي بالإشارة إلى بعضهم من الأندلس خاصة؛ لأن البحث دار في سائر فصوله على أعلام التمثُّل بالشِّعر في المشرق، من هؤلاء: أم الهناء بنت القاضي أبي محمد عبد الحق بن عطية، سمعت أباها، وكانت حاضرة النادرة، سريعة التمثُّل بالشِّعر، ومن تمثُّلها لما ولي أبوها قضاء المَرِيَّة دخل داره وعيناه تذرفان لمفارقة وطنه، فأنشدته مُتمثِّلة:

يَا عَيْنُ صَارَ الدَّمْعُ عِنْدَكِ عَادَةً تَبْكِينَ فِي فَرَحٍ وَفِي أَحْزَانِ[١٠١]

ومنهم إبراهيم بن يحيى بن محمد بن خليفة بن ينق من شاطبة ...من الأدباء والكُتَّاب، وكان يُكثر التمثُّل بالأشعار[١٠٢].

وبعد...؛

فما أكثر أعلام التمثُّل بالشِّعر! ولولا الإطالة، وخوف الملالة، لذكرتُ مئات الأعلام، وفيما ذكرت غنى وكفاية، وخلاصة القول في ذلك:

أعلام التمثُّل بالشِّعر من العرب في موضع السواد من العين؛ فزادوا الشِّعر بتمثُّلهم به عُلوًا ونفاسة ورفعة، وإن لم يَصْدُق قول الفرزدق عن العلاقة بين الشِّعر ومُنشئه[١٠٣]:

وَخَيْرُ الشِّعْرِ أَشْرَفُهُ رَجَالا وَشَرُّ الشِّعْرِ مَا قَالَ العَبِيدُ

فإنه يَصْدُق على الشِّعر والمُتمثِّل به.

أعلام التمثُّل بالشِّعر من غير الشُّعراء، يضاهون أعلام الشُّعراء في كثرتهم وتنوعهم واختلاف مذاهبهم.

أكـثرت العرب من التمثُّل بالشِّعـر وأنشدته في بنات الدهـر، وتسلَّت به عن النوائب، فصفت لها الأيام، وراقت لها الحياة.

المبحث الخامس

نماذج من التمثُّل بالشِّعر

تحت مجهر النقد

هـذا باب قد خصصته للحديث عن التمثُّل بالشِّعر من وجهة نقدية، متناولًا مناسبـة التمثُّـل وأبعاده، ومُبرزًا مقوماتـه الجمالية والفنيـة، وموازنًا بينه وبين غيره من شواهد التمثُّل، ومن ذلك:

لما أرسل عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف الثقفي أميرًا على العراق، وقلوبهـا مازالت مُعلَّقة بابـن الزُّبير، وأهلها يتقاعسون عن الخروج مع المُهلب بن أبي صُفرة لقتال الخوارج، فنزل الحجاج الكوفة، وقصد موكبه مسجدها، وجُمِع له الناس، فصعد المنبر واستهلَّ خطبته الشهيرة مُتمثِّلا[١٠٤]:

أَنَـا ابْـنُ جَـلَا وَطَـلَّاعُ الثَّنَايَا مَتَى أَضَـعِ العِمَامَةَ تَعْرِفُونِي

وأقول:

-لم ينفـرد الحجاج بالتمثُّل بالشِّعر في أول الخطبة، فقد سبقه عبد الله بن الزبير؛ لما زاره وفد العراق في مكة، فسألهم عن أخيه مُصعب، فأثنوا عليه خيرًا، فصعد المنبر وبدأ متمثِّلا[١٠٥]:

قَـدْ جَـرَّبُـونِي ثُـمَّ جَـرَّبُـونِي

مِـنْ غَـلْـوَتَـيْنِ وَمِـنَ الْمِـئِـيْنِ
حَـتَّـى إِذَا شَـابُـوا وَشَـيَّـبُـونِي
خَـلَّـوْا عِـنَـانِي ثُـمَّ سَـيَّـبُـونِي[١٠٦]

وتمثَّـل بالبيتين نفسهما وكيـع بن حسَّان التميمي في صـدر خطبته بعد قتله قُتَيْبَة بن مُسلم سنة٩٦هجرية[١٠٧].

- امتلـك الحجـاج هذا البيـت بتمثُّله بـه، فشُهِر بـه، ولم ينازعه أحد في التمثُّل به على مرِّ العصور.
- يقـال إن الحجـاج تمثَّل حالًا تناسـب البيت، فصعد المِنـبر مُلثَّمًا، وظلَّ بُرهة صامتًا، فمنح تمثُّله حيويَّة وإثارة.
- البيت بما يشتمل عليه من مفـردات فنيَّة (أنا-ابن جلا-طلاع الثنايا) يُعبِّر عن قوة وكبرياء الأمير الطاغي.
- عزَّز الحجاج تمثُّله هذا بتمثُّل في آخر الخطبة، فشد من أزر تمثُّله الأول وعبَّر عن مراده[١٠٨]:

هَـذَا أَوَانُ الشَّـد فَـاشْـتَـدِّي زِيَمْ
قَـدْ لَـفَّـهَـا الـلَّـيْـلُ بِـسَـوَّاقٍ حُـطَـمْ
لَـيْـسَ بِـرَاعِـي إِبِـلٍ وَلَا غَـنَـمْ
وَلَا بِـجَـزَارٍ عَـلَـى ظَـهْـرِ وَضَـمْ

- مُجمـل ما وقفت علية من تمثُّل الحجاج بالشِّعـر يصوره أميرًا شَمُوسًا، صعب المَراس، ركَّاب الصعاب مع حزم وعزم[١٠٩].

ومن التمثُّـل بالشِّعر لما مات الوليد بن عبد الملك(ت٩٦هـ) وولي سليمان بن عبد الملك(ت٩٩هـ) الخلافة عزل محمّد بن القاسم الثقفي(ت٩٨هـ) عن إمارة

السِّنْـد لنقمته عليه، وولَّى عليها يزيد بن أبى كَبْشَـة السَّكْسَكِيَّ(ت٩٦هـ)، فأخذ يزيد محمدًا وحمله إلى العراق مُقيَّدًا، فقال محمد مُتمثِّلا[١١٠]:

أَضَـاعُونِي وَأَيُّ فَتًى أَضَـاعُوا لِـيَـوَمِ كَـرِيْـهَـةٍ وَسِـدَادِ ثَـغْـرِ

وأقول:

- هـذا بيـت طائر وقريـب منـه في معنـاه وفي ظـروف إنشائه قـول أبي فراس[١١١]:

سَيَذْكُرُنِي قَوْمِي إِذَا جَدَّ جِدُّهُمْ وَفِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ يُفْتَقَدُ البَدْرُ

فكلاهمـا قيل في الحبس، وصاحباهما يعانيان القهر؛ بيد أن الأول قضى في حبسه، والثاني فك أسره.

- هذا البيت ملاذ المغلوبين وأنيس المقهورين؛ يدور على ألسنة المُتمثِّلين على مرِّ الزَّمن؛ تمثَّل به عبد الله بن علي لما حبسه أبو جعفر المنصور، وتمثَّل بـه جار أبي حنيفة المُغنِّي، فلما أخـذه العسس، شفع له أبو حنيفة، وقال لـه: هل أضعناك؟ و تمثَّل به كَنَّاس البصرة في حواره مع الأصمعي[١١٢]، وكان الصِّحاب كثيري التمثُّل به في زمن الشبيبة في حجرات الدراسة.

البيـت ومـا ينطوي عليه من استنـكار ظاهر، وما يشتمـل عليه من مقومات فنية (أي فتى- يوم كريهة-سداد ثغر) يصوره أميرًا فارسًا، وبطلًا محاربًا.

ومن ذلك تمثُّل سلسة من أعلام الأمة بقول بَشَامة بن الغدير:

أَذُلُّ الحَـيَـاةَ وَخِـزْيُ المَمَاتِ وَكُـلًّا أَرَاهُ طَـعَـامًـا وَبِـيـلا
فَـإِنْ كَـانَ لَابُـدَّ مِـنْ وَاحِـدٍ فَسِيرُوا إِلَى المَوْتِ سَيْرًا جَمِيلا

وأقول:

- لله درُّ العـرب! يؤثـرون الموت في عِزٍّ على الحيـاة في ذُلٍّ، ويرفعون شعار (المنيَّـة ولا الدنيَّـة)؛ هذه الأبيات تمثَّل بهـا الحسين رضي الله عنه يوم قتله، وزيد بن علي بن الحسين، ومروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، وابـن لمسلمـة بن عبد الملك بن مـروان، ومحارب شجـاع (امرأة في زي رجل)، وقد بُذِل لهم جميعًا الأمان فأبوا[١١٣].

- تُـرى هل تواردهم على هذا التمثُّل مـن قبيل المصادفة أم وراءه سر من الأسرار؟!

- هذا التمثُّل فيه انكسار من يشعر بقرب الهزيمة ودنو الأجل، وقريب منه تمثُّـل الخليفة المنصور(ت١٥٨هـ) حين أتاه خروج إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب(ت١٤٥هـ) بالبصرة[١١٤]:

وَسَـوْمَـةُ ذُلٍ نَجْعَـلُ المَـوْتَ دُونَهَـا نَقُولُ بِهَا لِلْمَوْتِ أَهْلًا وَمَرْحَبَا

وأيـن هذا وذاك من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ (التوبـة: ١١١)، وقـد تدارك أبو تمام (ت٢٣١هـ) هـذا النقص في رثائه لجعفر الطائي[١١٥]:

مَـثُـلَ المَـوْتُ بَـيْنَ عَيْـنَيْـهِ وَالـذُّلُ وَكُـلًّا رَآهُ خَـطْـبًـا عَـظِـيـمَـا
ثُـمَّ سَـارَتْ بِـهِ الحَـمَـيَّـةُ قُـدْمًـا فَـأَمَـاتَ الـعِـدَا وَمَـاتَ كَـرِيمَـا

فجعلـه يقتـل الأعـداء أولًا ثم يموت ثانيًـا، وما أحلى (كريمـا) التي تصور النهاية (الموت) في شمم وكبرياء، وهو المعنى النفيس نفسه الذي قصده مُصْعَب بـن الزُّبير(ت٧١هـ) وقد أبـى أن يلين بعد أن تفرَّق عنه جنـده، وقد رفض أمان عبد الملك، ولبس سلاحه وانطلق متمثِّلا[١١٦]:

عَـلَامَ تَـقُـولُ السَّـيفُ يُـثْـقِـلُ عَاتِـقِـي ... إِذَا أَنَـا لَمْ أَرْكَـبْ بِـهِ المَرْكَبَ الصَّعْبَا
سَـأَحْـمِـيكُمُ حَـتَّـى أَمُـوتَ وَمَـنْ يَمُـتْ ... كَـرِيمًـا فَـلَا لَـوْمٌ عَـلَـيْـهِ وَلَا عَـتْـبَـا

وأحسـن من الجميـع تمثُّل المُهَلَّب بن أبي صُفْرَة (ت٨٣هـ) لشجاعته لمَّا لِيم على إقدامه على موارد التهلكة[١١٧]:

تَـأَخَّـرْتُ أَسْـتَـبْـقِـي الحَـيَـاةَ فَـلَـمْ أَجِـد ... لِـنَـفْـسِـي حَـيَـاةً مِـثْـلَ أَنْ أَتَـقَـدَّمَـا

وهـذا تمثُّـلٌ أوردته لجودة معناه وعظيـم نفعه، وما ينطـوي عليه من معنى نفيـس: كان قيس بن منقد الكنـاني (ت ق.هـ) يهوى نُعْمَـى الخُزاعية، ولمَّا دعته في يـوم زينة للمحادثة، ذبح لها وللنسوة معها، فلما أَكَلْنَ وقُمْنَ ترك الفاضل من الطعام على الأرض ثم تمثَّل[١١٨]:

إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلطَّيْرِ فِي زَادِ [عُزوَةٍ][١١٩] ... نَصِيبٌ فَلَيْسُوا فِي الوَرَى بِكِرَامِ

وأقول:

- هـذا تمثُّل طريـف رائع شعـاره (وللطير من زاد الكـرام نصيب)، وهو يفيض بالتعاطف والألفة بين الإنسان والطير والحيوان، وهو يتوافق أيما توافق مـع الإسلام، قال تعالـى حكاية عن سليمـان والنملة: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ (النمـل: ١٩)، وسبحـان مـن أمَّـن الطير في بلده الحرام! وهدي نبيه صلى الله عليه وسلّم يفيض رحمة بالحيوان.
- هذا التمثُّل ليس ضربًا من الخيال في عالم البشر؛ فقد كان عبد المطلب جد النبي الأكرم يطعم الناس، ويفيض كرمه، فيطعم الوحش والطير في قُلَـل الجبال[١٢٠]، ومن مفاخر العرب مُجير الطَّير، ومُجير الجَرَاد[١٢١]، ولله درُّ عمـرو بـن العاص! حـين عششـت قُمَرِيَّة علـى فُسطاطه فقال: تحرَّمَتْ بجمانا دعوها حتى تطير فراخها[١٢٢]، وكان فخر الدين الرازي محمـد بن عمر (ت٦٠٦هـ) يُلقي درسًا في المسجـد في خوارزم فدخلت

حمامة يطردها عقاب، فاحتمت بالرازي، فعصمها وعطف عليها، فقال ابن عُنَيْن(ت٦٣٠هـ) -وكان حاضرًا- على البديهة[١٢٣]:

مَنْ نَبَّأَ الوَرْقَاءَ أَنَّ مَحَلَّكُمْ ... حَرَمٌ وَأَنَّكَ مَلجَأٌ لِلخَائِفِ
وَفَدَتْ عَلَيْكَ وَقَدْ تَدَانَى حَتْفُهَا ... فَحَيَوْتَهَا بِبَقَائِهَا المُسْتَأنَفِ
وَلَوْ انَّهَا تُحْبَى بِمَالٍ لَانْثَنَتْ ... مِنْ رَاحَتَيْكَ بِنَائِلٍ مُتَضَاعِفِ

ومن تلك الصور لما قَتَل أشأم العرب عبيد الله بن زياد(ت٦٧هـ) الحسين ابن علي رضي الله عنه، وحُمِلَت الرأس الشريف إلى يزيد بن معاوية تمثَّل[١٢٤]:

يَفَلِّقْنَ هَامًا مِنْ رِجَالٍ أَعِزَّةٍ ... عَلَيْنَا وَهُمْ كَانُوا أَعَقَّ وَأَظْلَمَا

وكان في الأسرى علي بن الحسين رضي الله عنه فقال: كلا م الله أولى بك ثم تمثَّل: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٢٢ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ٢٣ ﴾ (الحديد: ٢٢-٢٣).

فعبث يزيد بلحيته ثم تمثل: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠ ﴾ (الشورى: ٣٠).

وأقول:

- التمثُّل مورد عذب تزاحم فيه المعجزان (القرآن والشِّعر)، وتعاقبا في كثير من المشاهد، يأتي القرآن أولًا ويأتي الشِّعر تاليًا، ومن مواضع اجتماعهما: ما دار بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه والأسود بن يَعْفُر، وتوارد الاثنان على لسان عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب[١٢٥].
- كلا المُتمثِّلين يرمي لغاية تقابل غاية صاحبه، ولمَّا كان القرآن أعلى منزلة وأجل مقامًا عَدَل يزيد إلى التمثُّل بالقرآن ليتكافأ مع تمثُّل صاحبه.

- وهذا تمثُّل رائع من معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه في ساحة الموت؛ حيث النقص، والشعور بالعجز؛ مصيبة لا تُدفَع، ونازلة لا تُرفَع[١٢٦]:

أَلَا مَنْ مُبْلِغُ النُّعْمَانَ عَنِّي ... عَلَانِيَةَ وَمَا يُغْنِي السِّرَارُ
فَهَلْ مِنْ خَالِدٍ إِمَّا هَلَكْنَا ... وَهَلْ بِالمَوْتِ يَا لَلنَّاسِ! عَارُ

والغاية من هذا التمثل واضحة، رفع النقص المحتوم في موضع الكمال المعلوم، وقريب منه تمثل علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأبي العباس السفاح[١٢٧]:

وَمَا مَيْتَةٌ إِنْ مِتُّهَا غَيْرَ عَاجِزٍ ... بِعَارٍ إِذَا مَا غَالَتْ النَّفْسَ غَوْلُهَا

وقريب منهم تمثُّل الحسين بن علي رضي الله عنه يوم قتله بكربلاء[١٢٨]:

فَلَوْ خَلَدَ المُلُوكُ إِذَنْ خَلَدْنَا ... وَلَوْ بَقِيَ الكِرَامُ إِذَنْ بَقِيْنَا
إِذَا مَا الدَّهْرُ جَرَّ عَلَى أُنَاسٍ ... كَلَاكِلَهُ أَنَاخَ بِآخَرِيْنَا
فَقُلْ لِلشَّامِتِينَ بِنَا أَفِيقُوا ... سَيَلْقَى الشَّامِتُونَ كَمَا لَقِيْنَا

لا شماتة في الموت، ولله درُّ لسان الدين بن الخطيب(ت٧٧٦هـ) حين قُدِّم للقتل، وسط شانئيه وحُسَّاده فقال[١٢٩]:

بَعُدْنَا وَإِنْ جَاوَرَتْنَا البُيُوتْ ... وَجِئْنَا بِوَعْظٍ وَنَحْنُ صُمُوتْ
وَكُنَّا عِظَامًا فَصِرْنَا عِظَامًا ... وَكُنَّا نَقُوتُ فَهَا نَحْنُ قُوتْ
فَقُلْ لِلْعِدَا ذَهَبَ ابْنُ الخَطِيبِ ... وَفَاتَ، وَمَنْ ذَا الذِي لَا يَفُوتْ
وَمَنْ كَانَ يَفْرَحُ مِنْهُمْ لَهُ ... فَقُلْ يَفْرَحُ اليَوْمَ مَنْ لَا يَمُوتْ

الأبيات تحتوى على بعض مظاهر العظمة (النعمان-هلكنا)، وبعض مظاهر الحيرة (هل-هل-يا للناس)، وهو ما يناسب الخليفة والمُصاب.

وخلاصة القول في ذلك:

تنوعت مناحي الجمال في التمثُّل بالشِّعر؛ فمنها ما يرجع إلى ما في الشِّعر

مـن خيـال وجمال يوم إنشائـه، ومنها ما يرجـع إلى المناسبة بـين الحالين؛ يوم إنشائه ويوم إنشاده، وثمة قيم جمالية أخرى يفرضها تصرُّف المُتمثِّل في الشِّعر، وظروف الاستدعاء، وطرق الأداء.

الخاتمة

الحمـد للّه الـذي بفضله تتـمُّ الصالحات، وأصلـي وأسلم علـى خير خلقه وأفضل رسله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه... وبعد؛

فأرجـو بعد هذا العرض أن أكون قد نجحتُ في تسليـط الضوء على التمَثُّل بالشِّعـر، ووفيـتُ في الحديـث عن حـدوده وأبعـاده، وأصبتُ في عرض قضاياه الموضوعية والفنيَّة، وتلك أهم النتائج التي توصَّل إليها البحث:

١. التمثُّل بالشِّعر ظاهرة أدبية واجتماعية نشأت من بدايات الشِّعر العربي، وامتدَّت عبر عصوره المختلفة.

٢. التمثُّـل بالشِّعـر صورة مـن صور تأثـير الشِّعر في المجتمـع، ومعيار من معايـير نجاح العمـل الأدبي، ووجه من وجـوه القـراءة التأويليَّة المُعلنة والمشروعة للشِّعر العربي.

٣. التمثُّـل بالشِّعر فن أدبي خاص بالمتلقي، يشـترك به الناس مع الشعراء في نظم الشِّعر.

٤. إذا كانـت أغراض الشِّعر تنحصـر في بضعة أغراض لا تتعداها فإن أغراض التمثُّل في كثرتها وتنوعها تتخطاها.

٥. إذا كان الشِّعـر يُعـبِّر عن وجدان الشُّعراء وأغراضهـم فإن التمثُّل يُعبِّر عن آمال غير الشُّعراء وآلامهم.

٦. أعـلام التَّمثُّـل بالشِّـعـر نبضـ الشِّعـر، وشُريـان حياته، وسـر شهرته وانتشاره؛ فكم من بيت عُرِف بمنشده ولم يعرف بمنشئه.

٧. إذا شابت عاطفة الشاعر يومًا رغبة التكسب والنَّوال فقد سلمتْ عاطفة المُتمثِّل من الزيف وطلب المال.

٨. التمثُّـل بالشِّعر كالشِّعر يـوم أن بدأ؛ أبيات ينشدهـا الرجل في حاجته، ويتمثَّل بها في خاصته.

٩. الشِّعر في التمثُّل يصير ملكًا للمُتمثِّل به، فمن حقِّه أن يُحوِّله عن غرضه الذي قيل فيه، وأن يتصرَّف فيه بالتغيير والتبديل على ما يناسبه.

١٠. مـن الأخطـاء الشائعة التي يجـب أن تُصحَّح في النقـد الحديث تسمية التمثُّل بالشِّعر في فنون النثر تضمينًا.

١١. آمـل بعد هـذه الدراسة أن يلقى التمثُّل بالشِّعـر عناية أكثر، وأن يحظى بدراسـات تكشـف عن أبعـاده، وأن يغـدو عنوانًـا من عناويـن الأدب، وموضوعًا من موضوعات النقد.

فهرس المصادر والمراجع

- الاختيارين، الأخفش الأصغر، تح: فخر الدين قباوة، ط٢، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.
- أساس البلاغة للزمخشري، ط-دار الفكر، ١٣٩٩هـ -١٩٧٩م.
- الأشباه والنظائر للخالديين، أبي بكر محمد وأبي عثمان سعيد ابني هاشم، تح: السيد محمد يوسف-ط لجنة التأليف.
- أشعار الهذليين أبي سعيد السُّكري، تح: عبد الستار أحمد فراج، ط مطبعة المدني.
- الأصمعيـات، تح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هـارون، ط٧، دار المعارف. مصر١٩٩٣م.

- إعتـاب الكتاب، ابن الأبـار القضاعي، تح: صالـح الأشتر، ط١، مجمـع اللغة العربية بدمشق ١٣٨٠هـ-١٩٦١م.
- الأعلام، الزركلي، ط١٥، دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م.
- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب،٢٠١٠م.
- الأمالي للقالي، تح: محمد عبد الجواد الأصمعي، ط٢، دار الكتب المصرية، ١٣٤٤ه.
- الأمثـال، ابـن سلام الهـروي، تح: عبد المجيـد قطامش، ط١، دار المأمـون للتراث، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- أنسـاب الأشراف، البلاذري، تح: سهيـل زكار وآخرين، ط١، دار الفكر، بيروت ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦م.
- أنساب الخيل لابن هشام الكلبي، تح: أحمد زكي باشا، ط دار الكتب المصرية، ١٤٢٤هـ.
- أنـوار الربيع في أنواع البديع، ابن معصوم المدني، تح: شاكر هادي شكر، ط١، مطبعة النجف الأشرف، ١٣٨٨هـ-١٩٦٩م.
- إيضاح المكنون، إسماعيل باشا البغدادي، ط دار إحياء التراث العربي.
- البدايـة والنهاية، ابن كثير، تح: علي شـيري، ط١، دار إحياء التراث العربي، ١٤١٨هـ - ١٩٨٨م.
- بلاغـات النساء، أحمـد بن أبي طاهر بن طيفور، مطبعة مدرسـة والدة عباس الأول، القاهرة ١٣٢٦هـ - ١٩٠٨م.
- البيـان والتبيين، الجاحظ، تح: عبد السلام هـارون، ط٧، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤١٨هـ- ١٩٨٨م.
- تاريـخ آداب العـرب، مصطفـى صـادق الرافعـي، ط١، دار ابن الجـوزي، القاهرة، ٢٠١٠م.
- تاريخ علماء الأندلس، ابن الفرضي، عنى بنشره عزت العطار، ط٢، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.
- تزيين الأسواق، داود بن عمر الأنطاكي، تح: محمد التونجي، ط١، عالم الكتب بيروت، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
- التعازي والمراثي، المبرد، تح: إبراهيم محمد حسن الجمل، ط نهضة مصر.
- التعليقات والنوادر، أبو علي الهجري، ترتيب حمد الجاسر، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.
- التكملـة لكتـاب الصلة، ابن الآبار القضاعي، تح: عبد السـلام الهراس، ط دار الفكر للطباعة، لبنان، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

- التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، ابن حجر العسقلاني، تح: أبو عاصم حسن بن عباس بن قطب، ط١، مؤسسة قرطبة، مصر، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.
- التمثُّل بالشِّعر، دكتور محمد بن إبراهيم الحمد، ط١، دار الحضارة للنشر والتوزيع، ١٤٢٩هـ-٢٠١٨م.
- التمثيل والمحاضرة، الثعالبي، تح: د. عبد الفتاح محمد الحلو، ط٢، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٣م.
- جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الحُميدي، ط الدار المصرية للتأليف والنشر، القاهرة ١٩٦٦م.
- الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي، أبو الفرج المعافى بن زكريا النهرواني، تح: محمد مرسي الخولي، ط١، عالم الكتب، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.
- جمهرة أشعار العرب، القرشي، تح: علي محمد البجاوي، ط نهضة مصر.
- جمهرة الأمثال، أبو هلال العسكري، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، ط٢، دار الجيل، بيروت ١٤٠٨هـ -١٩٨٨م.
- الحماسة البصرية، أبو الفرج علي بن الحسن البصري، تح: عادل سليمان جمال، ط١، مكتبة الخانجي، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني، ط١، دار الكتب، العلمية، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م.
- حلية المحاضرة، الحاتمي، تح: جعفر الكتاني، ط دار الرشيد، العراق، ١٩٧٩م.
- حياة الحيوان الكبرى، الدميري، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤ هـ.
- الحيوان، الجاحظ، تح: عبد السلام محمد هارون، ط١، دار إحياء التراث العربي، ١٤٣١هـ -٢٠١٠م.
- ديوان الأخطل، صنعة السكري، تح: د. فخر الدين قباوة، ط٤، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٦م.
- ديوان الأعشى، تح: محمد حسين، ط مكتبة الآداب بالجماميز.
- ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، تح: الدكتور محمد عبده عزام، ط٤، دار المعارف، مصر.
- ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب، تح: د. نعمان محمد أمين طه، ط٣، دار المعارف، مصر.

- ديـوان الحطيئـة برواية ابـن السكيت، تح: د. مفيـد محمد قميحـة، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.
- ديوان سُحَيم، تح: عبد العزيز الميمني، ط دار الكتب المصرية، ١٣٦٩هـ -١٩٥٠م.
- ديوان شكيب أرسلان، تصحيح: محمد رشيد رضا، مطبعة المنار، ١٣٥٤هـ-١٩٣٥م.
- ديـوان طرفة بن العبـد بشرح الأعلم الشنتمري، تح: دريـة الخطيب ولطفي الصقال، ط٢، المؤسسة العربية. بيروت٢٠٠٠م.
- ديـوان عبد الله بن رواحة، وليد قصـاب، ط١، دار العلوم للطباعة والنشر، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.
- ديوان أبي العتاهية، ط دار بيروت، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- ديـوان عمرو بـن كلثوم، جمع وتح: إميل بديع يعقوب، ط دار الكتاب العربي، ١٤١١هـ-١٩٩١م.
- ديوان ابن عنين، تح: خليل مردم بك، ط٢، دار صادر، بيروت.
- ديوان أبي فراس الحمداني، شرح: خليل الدويهي، ط٢، دار الكتاب العربي، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.
- ديوان الفرزدق، تعليق: علي فاعور، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ -١٩٨٧م.
- ديـوان كعب بـن زهير بشرح أبي سعيد السكـري، ط٣، دار الكتب المصرية، ١٤٣٢هـ-٢٠٠٢م.
- ديوان لبيد بن ربيعة العامري، تح: إحسان عبا، ط وزارة الإرشاد الكويت، ١٩٦٢م.
- ديـوان ابن نُباتـة السعدي، تح: عبد الأمـير مهدي حبيب الطائـي، ط وزارة الإعلام. العراق، ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م.
- ديوان ابن هانئ الأندلسي، ط دار بيروت للطباعة والنشر،١٩٨٠م.
- سنن الترمذي، تح: أحمد محمد شاكر وآخرين، ط٢، مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.
- السنـن المأثـورة، الشافعي، تح: عبد المعطـي أمين قلعجـي، ط١، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٦هـ.
- سـير أعلام النبلاء، الذهبي، تح: شعيب الأرنـاؤوط، ط٣، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ -١٩٨٥م.
- شـذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي، تح: محمود الأرناؤوط، ط١، دار ابن كثير، دمشق، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م.

- شـرح التسهيل، محب الدين محمـد بن يوسف التميمي، تح: محمـد العزازي، ط دار الكتب العلمية.
- شرح ديوان الحماسة، المرزوقي، تح: أحمد أمين وعبد السلام هارون، ط١، دار الجيل، ١٤١١هـ-١٩٩١م.
- شرح ديوان زهير، ثعلب، تح: فخر الدين قباوة، ط٣، مكتبة هارون الرشيد، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٨م.
- الشِّعـر والشعـراء، ابن قتيبة، تح: أحمـد محمد شاكـر، ط١، دار الحديث، القاهرة، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.
- صبح الأعشى، القلقشندي، تح: يوسف علي طويل، ط١، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٧م.
- صحيح مسلم، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، الزمخشري، ط١، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٤١٢هـ.
- رسالة في أعجاز أبيات تغني في التمثيل عن صدورها للمبرد ضمن نوادر المخطوطات، تح: عبد السلام محمد هارون، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٤١١هـ-١٩٩١م.
- رفع الإصر عن قضاة مصر، ابن حجر العسقلاني، تح: الدكتور علي محمد عمر، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
- الروض المعطـار في خبر الأقطار، الحميري، تح: إحسان عباس، ط٢، مؤسسة ناصر للثقافة، ١٩٨٠م.
- زهـر الآداب وثمر الألبـاب، الحصري، تح: يوسف على طويـل، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م.
- زهـر الأكم في الأمثال والحكم، اليوسي، تح: محمـد حجي ومحمد الأخضر، ط١، دار الثقافة، المغرب، ١٤٠١هـ -١٩٨١م.
- العقد الفريد، ابن عبدربه، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٤هـ.
- العقـود اللؤلؤيـة في تاريـخ الدولة الرسوليـة، علي بن الحسن بن أبـي بكر بن الحسن الخزرجـي، تح: محمد بسيوني عسـل وآخريـن، ط١، دار الآداب، بيروت، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م.
- العمدة، ابـن رشيق، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٥، دار الجيل، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

- العـين، الخليل بن أحمد، تح: مهـدي مخزومي وإبراهيم السامرائـي، ط مؤسسة دار الهجرة، ١٤٠٩هـ.
- عيـون الأخبـار، ابن قتيبة، تح: منذر محمـد سعيد أبو شعـر، ط١، المكتب الإسلامي، بيروت ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.
- الفـرج بعـد الشـدة، التنوخي، تح: عبـود الشالـج، ط دار صادر، بـيروت، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
- قراءة التراث النقدي، جابر عصفور، ط١، مؤسسة عيبال للدراسات والنشر، ١٩٩١م.
- قصـة الأدب في الحجـاز، عبد الله عبد الجبار ومحمد عبـد المنعم خفاجي، ط مكتبة الكليات الأزهرية.
- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، تح: عمر عبد السلام تدمري، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- الكامل في اللغة والأدب، المبرد، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٣، دار الفكر العربي، مصر، ١٤١٧هـ -١٩٩٧م.
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة، ط ١٩٤١م.
- لسان العرب، ابن منظور، ط دار صادر، بيروت.
- لسـان الميـزان، ابن حجـر العسقـلاني، تح: عبد الفتاح أبـو غـدة، ط١، دار البشائر الإسلامية ٢٠٠٢م.
- مجالس ثعلب، تح: عبد السلام محمد هارون، ط٢، دار المعارف، مصر.
- المجالسـة وجواهر العلم، أبو بكر أحمد بن مروان الدينوري، تح: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، ط دار ابن حزم، بيروت، ١٤١٩هـ.
- مجمع الأمثال، الميداني، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- مختصر صحيح البخاري، الألباني، ط١، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.
- المزهر في علوم اللغة، السيوطي، تح: محمد أحمد جاد المولى وآخرين، ط٣، مكتبة دار التراث، مصر.
- معجم الأدباء، ياقوت الحموي، تح: إحسان عباس، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.
- معجم البلدان، ياقوت الحموي، ط٢، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥م.

- معجم الشعراء، المرزباني، تح: عبد الستار أحمد فراج، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة.
- معجم المؤلفين، عمر بن رضا كحالة، ط مكتبة المثنى، بيروت، دار إحياء التراث العربي بيروت.
- معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، عاتق بن غيث، ط١، دار مكة للنشر والتوزيع ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.
- المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي، تح: محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٢هـ -١٩٩٢م.
- مواد البيان، علي بن خلف، تح: حسين عبد اللطيف، ط جامعة الفاتح، ليبيا، ١٩٨٢م.
- نقد النثر، قدامة بن جعفر، ط دار الكتب العلمية،١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.
- نوادر المخطوطات، تح: عبد السلام محمد هارون، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٤١١هـ -١٩٩١م.
- نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري، تح: مفيد قمحية، ط١، دار الكتب العلمية.
- وحي القلم، مصطفى صادق الرافعي، تح: سعد كريم، ط مكتبة الإيمان المنصورة، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.
- وفيات الأعيان، ابن خلكان، تح: إحسان عباس، ط دار صادر. بيروت.

الهوامش

(١) ينظر: مادة (م ث ل) في معجم العين، الخليل بن أحمد، تح: مهدي مخزومي وإبراهيم السامرائي، ط مؤسسة دار الهجرة، ١٤٠٩هـ، أساس البلاغة للزمخشري، ط دار الفكر ١٣٩٩هـ -١٩٧٩م، لسان العرب لابن منظور، ط دار صادر، بيروت، وبيت جرير في ديوانه بشرح محمد بن حبيب، ٥٢/١، تح: د. نعمان محمد أمين طه، ط٣، دار المعارف، مصر.

(٢) ينظر: سنن الترمذي، الترمذي، ١٣٩/٥، تح: أحمد محمد شاكر وآخرين، ط٢، مصطفى البابي الحلبي، مصر ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م، وبيت طرفة في الشِّعر والشعراء، ابن قتيبة، ١٩٢/١، تح: أحمد

محمـد شاكر، ط١، دار الحديـث. القاهرة، ١٤١٧هـ١٩٩٦م، وديوانه بشرح الأعلـم الشنتمري، ص٥٨، تح: درية الخطيب ولطفي الصقال، ط٢، المؤسسة العربية، بيروت،٢٠٠٠م.

(٣) ينظر في ذلك: الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، ١٠/١٠، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب،٢٠١٠م، والبيـت لدُريـد بن الصِّمة، ينظر: الأصمعيات، الأصمعي، صـ١٠٧، تح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، ط٧، دار المعارف، مصر، ١٩٩٣م، والشِّعر والشعراء، ٢/٧٥٠.

(٤) أمة سوداء مسكينة، ظلمها قومها، وجاروا عليها؛ فهاجرت إلى المدينة وأسلمت، وجعل لها الرسول خِبـاءً في المسجـد، ماتت ليـلاً فدفنها الصحابة، فلمـا علم رسول الله، ذهب إلـى قبرها، وصلى عليهـا. ينظـر: مختصر صحيـح البخـاري، ١٦٤/١، الألبـاني، ط١، مكتبة المعـارف، الرياض، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

(٥) ينظر في ذلك: مختصر صحيح البخاري١/١٥٩.

(٦) ينظر: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني، ١١٩/١، ط١، دار الكتب العلمية، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م، وينظر في أبيات ابن رواحة: ديوان عبد الله بن رواحة، تح: وليد قصاب، ص١٥١، ط١، دار العلوم للطباعة والنشر، ١٤٠١هـ-١٩٨١م مع اختلاف يسير.

(٧) الثواء: طول المقام. لسان العرب (ث و ا).

(٨) بعل: كل زرع أو شجر لا يُسْقَى. لسان العرب (ب ع ل).

(٩) الصحيـح أن عقيلاً ابنُ بـلال، وليس العكس. ينظر: معجم الشعـراء للمرزباني، ص٧٨، تح: عبد الستـار أحمـد فراج، ط الهيئة العامة لقصـور الثقافة. مصر، العمـدة: ٣٠٧/٢، والبيت منسوب لعمـارة بن عقيـل بن جريـر (ت٢٣٩هـ) ينظر: شـرح التسهيـل، محب الدين محمـد بن يوسف التميمي، ٤٧٩/٣، تح: محمد العزازي، ط دار الكتب العلمية.

(١٠) ينظـر: بلاغـات النساء، أحمد بن أبي طاهر بـن طيفور، ص١٦٣، مطبعـة مدرسة والدة عباس الأول، القاهـرة ١٣٢٦هـ - ١٩٠٨م، وممن تمثَّل بشعره هشام بن عبد الملـك، ولم يكن له إلا بيت واحد، فكان يكثر التمثل به:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْصِ الهَوَى قَادَكَ الهَوَى إِلَى بَعْضِ مَا فِيهِ عَلَيْكَ مَقَالُ

ينظر: أنساب الأشراف٨/٣٧٥.

(١١) صحيح مسلم، ١٧٩٠/٤، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(١٢) تشهـد كثـيرٌ من مواطن ذكر التَّمثُّل-كما سيأتي- أنـه (أي التَّمثُّل بالشِّعر) انفجار وهلي مفاجئ بـدون إعـداد مسبق -كأنه إلهـام- استجابة لموقف طارئ. وهو بذلك يتشابه مـع إنشاء الشِّعر في طريقة استدعائه إلى حدٍ بعيد، وخصوصًا شعر البديهة والارتجال.

(١٣) قراءة التراث النقدي، جابر عصفور، ص٩٧، ط١، مؤسسة عيبال للدراسات والنشر، ١٩٩١م.

(١٤) ينظر: قراءة التراث النقدي ص٥٤.

(١٥) الحيوان، الجاحظ، ١٠٤/٢، تح: عبد السلام محمد هارون، ط١، دار إحياء التراث العربي، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م.

(١٦) المزهر في علوم اللغة، السيوطي، ٤٨٦/١، تح: محمد أحمد جاد المولى وآخرين، ط٣، مكتبة دار التراث. مصر، ويتفق العلماء على هذا التعريف ضمنًا أو صراحة. ينظر في ذلك: مجمع الأمثال، الميداني، ١/١، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط دار المعرفة، بيروت، لبنان، وزهر الأكم في الأمثال والحكم، اليوسي، ٢/١، تح: محمد حجي ومحمد الأخضر، ط١، دار الثقافة، المغرب، ١٤٠١هـ -١٩٨١م، وقصة الأدب في الحجاز، عبد الله عبد الجبار ومحمد عبد المنعم خفاجي، ص٢٦١، ط مكتبة الكليات الأزهرية.

(١٧) لسان العرب مادة (ر و ي).

(١٨) أبو عبد الله سَوَّار بن عبد الله بن قدامة العَنَبَريِّ التَّمِيمِيِّ قاضي البصرة، روى عن بكر بن عبد الله والحسن البصري، تولى قضاء البصرة لأبي جعفر المنصور، فكان دينًا عادلًا محمود السيرة، قال له المنصور: مُلِئت بك الأرض عدلًا، ولما قضى لتاجر على أحد قادة المنصور في أرض، وكان المنصور كتب إليه أن يدفعها لقائده فأبى، فقال المنصور: ملأتُها والله عدلا، صار قضاتي تردني إلى الحق. توفي رحمه الله سنة ١٥٦هـ. ينظر في ترجمته: لسان الميزان، ابن حجر العسقلاني، ٢١٣/٤، تح: عبد الفتاح أبو غدة، ط١، دار البشائر الإسلامية، ٢٠٠٢م.

(١٩) ينظر: الأغاني ١٦/١٣ بتصرف يسير.

(٢٠) لسان العرب مادة (ن ش د).

(٢١) فرَّق ابن قتيبة بين الغناء والتمثُّل، فذكر ما يُتمثَّل به من شعر امرئ القيس ثم قال: (ومما يتغنى به من شعره: قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) ينظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة،١١٣/١، تح: أحمد محمد شاكر، ط١، دار الحديث. القاهرة، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

(٢٢) العمدة لابن رشيق، ٨٤/٢، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٥، دار الجيل، ١٤٠١هـ-١٩٨١م، وجعله الحاتمي مقياسًا للاجتلاب والاستلحاق. ينظر: حلية المحاضرة، الحاتمي، ٥٩/٢، تح: جعفر الكتاني، ط دار الرشيد، العراق، ١٩٧٩م.

(٢٣) البيان والتبيين، الجاحظ، ١٨٨/١، تح: عبد السلام هارون، ط٧، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤١٨هـ- ١٩٨٨م، وتابعه في هذ القول قدامة بن جعفر في نقد النثر، وعلي بن خلف في مواد البيان والقلقشندي في صبح الأعشى. ينظر: نقد النثر، قدامة بن جعفر، ص٩٧، ط دار الكتب

العلمية١٤٠٠هـ-١٩٨٠م، ومواد البيان، علي بن خلف، ١٢٣، تح: حسين عبد اللطيف، ط جامعة الفاتح. ليبيا ١٩٨٢م، وصبح الأعشى، القلقشندي، ٦/٢٩٩-٢٩٥-٢٩٦، تح: يوسف علي طويل، ط١ دار الفكر، دمشق ١٩٨٧م. وذكر أبو الفرج أمثلة تؤكد ذلك. ينظر على سبيل المثال: الأغاني ٢٢/٢١.

(٢٤) الاختيارين، الأخفش الأصغر، ص٣٢٣، تح: فخر الدين قباوة، ط٢، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

(٢٥) طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجُمحي، ١/١٠٤، تح: محمود محمد شاكر، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة. مصر، ديوان كعب بن زهير بشرح أبي سعيد السكري، ص٦٠، ط٣، دار الكتب المصرية١٤٣٢هـ-٢٠٠٢م مع اختلاف يسير، واخترت رواية (طبقات فحول الشعراء) في المتن لسلامة مرجع الضمائر فيها.

(٢٦) ديوان الفرزدق، ص٤٩٣، تعليق على فاعور، ط١، دار الكتب العلمية. بيروت١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، وينظر نموذج آخر ص٤٢٢.

(٢٧) الأعشيان: أعشى قيس وأعشى باهلة. ومرقش: هو المرقش الأكبر عوف بن سعد بن مالك. وأخو قضاعة: أبو الطَّمَحَان القَيْنِيِّ.

(٢٨) من ذلك قول جرير (ت١١٠هـ):

تَقُولُ ذَاتُ المِطْرَفِ الهَفْهَافِ وَالرِّدْفِ وَالأَنَامِلِ اللِّطَافِ
إِنَّكَ مِنْ ذِي غَزَلٍ لَجَافِ ذَهَبْتَ فِي تَمَثُّلِ القَوَافِي

وقول الخُرَيميِّ (ت٢١٢هـ) واصفًا شعره:

مِنْ كُلِّ غَائِرَةٍ إِذَا وَجَّهْتُهَا طَلَعَتْ بِهَا الرُّكْبَانُ كُلَّ نِجَادِ
طَوْرًا يُمَثِّلُهَا المُلُوكُ وَتَارَةً بَيْنَ النُّدِيِّ تُرَاضُ وَالأَكْبَادِ

وقول أبي تمام (ت٢٣١هـ) في شعره:

وَيُزْهَى لَهُ قَوْمٌ وَلَمْ يُمْدَحُوا بِهِ إِذَا مَثَلَ الرَّاوِي بِهَا أَوْ تَمَثَّلا

وقول ابن هانئ الأندلسي(ت٣٦٢هـ):

ولَمَا شَهِدْتَ مِنَ الوَقَائِعِ إِنَّهَا أَبْقَى مِنَ الشِّعْرِ الَّذِي يُتَمَثَّلُ

وقول ابن نُباتة(ت٤٠٥هـ) في مدح بهاء الدولة:

وَكَمْ مِثْلِهَا لِي فِيكَ مِنْ مُتَمَثِّلٍ وَبَيْتٍ شَرُودٍ لَا يَزَالُ يُغِيرُ

وقول شكيب أرسلان (ت١٣٦٦هـ) في رثاء أحمد شوقي:

يَتَمَثَّلُ العَصْرُ الحَدِيثُ بِشِعْرِهِ حَقَّ التَمَثُّلِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ

وَلَرُبَّ بَيْتٍ يَستَقِلُّ بِجُمْلَةٍ تُغْنِى عَنِ التَّارِيخِ فِي صَفَحَاتِهِ

ينظـر في ذلك على الترتيب: ديوان جرير بشـرح محمد بن حبيب١/٧٣٣، الأشباه والنظائر للخالديين، أبي بكر محمد وأبي عثمان سعيد ابني هاشم، ١/٢٢٦، تح: السيد محمد يوسف، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر١٩٦٥م، وديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، ٣/١١٠، تح: الدكتور محمد عبده عزام، ط٤، دار المعارف. مصر، وديوان ابن هانئ الأندلسي، ص٢٨٨، ط دار بيروت للطباعة والنشر١٩٨٠م، وديوان ابن نُباتة السعدي، ٢/٤٢٤، تح: عبد الأمير مهدي حبيب الطائي، ط وزارة الإعـلام. العراق١٣٩٧هـ-١٩٧٧م، وديوان شكيب أرسلان، صـ٨٤، تصحيح: محمد رشيد رضا، مطبعة المنار١٣٥٤هـ-١٩٣٥م، هذا عدا أشعار كثيرة تتحدث عن التمثُّل أعرضتُ عنها صفحًا؛ لأن الشعراء قصدوا فيها التمثُّل عمومًا دون أن يخصُّوه بالشِّعر.

(٢٩) الكامل ٢/١١٣، والأبيات للَقِيط بن مَعْمَر في الشِّعر والشعراء ما عدا البيت الثاني. ينظر: الشعر والشعراء١/٢٠١.

(٣٠) العقد الفريد٣/٣٣٩، والأبيات لعمرو بن براقة. الأشباه والنظائر للخالديين٢/٢٠٣.

(٣١) الأشباه والنظائر للخالديين٢/٣٣٤، والأبيات منسوبة للحطيئة في الأشباه والنظائر، والبيت الأول والثـاني في ديوانه برواية ابن السكيت، ص١٤٩، تح: مفيد محمد قميحة، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

(٣٢)ينظـر: زهـر الآداب وثمـر الألباب، الحصـري، ٢/٤٢، تح: يوسـف على طويـل، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.

(٤٤) ينظـر: زهـر الآداب٢/٤٢، والأبيـات في جمهـرة أشعار العـرب لمحمد بن كعب بـن سعد الغَنوي مـع اختلاف يسـير. ينظر: جمهرة أشعار العـرب، القرشي، ص٥٥٦ وما بعدهـا، تح: علي محمد البجاوي، ط نهضة مصر.

(٣٤) موقعـة حربية بين يزيد بن معاوية وأهل المدينة سنة٦٣هجرية، خرجوا على يزيد، وطردوا واليه؛ بسبب جوره وقتله الحسين، وانتصر جيش يزيد، ونكَّل ببعض الصحابة. ينظر في ذلك: سير أعلام النبلاء، الذهبي، ٣/٣٢٤، تح: شعيب الأرناؤوط، ط٣، مؤسسة الرسالة. ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م.

(٣٥) العقـد الفريـد، ابن عبد ربه، ٥/٣٤٤، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، والأبيات لعمرو بن كلثوم. ينظـر: ديـوان عمـرو بن كلثـوم، ٧٨-٩٠، جمـع وتح: إميل بديع يعقـوب، ط دار الكتـاب العربي، ١٤١١هـ-١٩٩١م.

(٣٦) أمالي القالي ١/١١، والأبيات لقيس بن رفاعة الواقفي. ينظر: الحماسة البصرية، أبو الفرج علي بن الحسن البصري، ١/١٠٤، تح: عادل سليمان جمال، ط١، مكتبة الخانجي، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

(٣٧) إعتاب الكتاب، ابن الأبار القضاعي، ص١٠٢، تح: صالح الأشتر، ط١، مجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٨٠هـ-١٩٦١م، والأبيات منسوبة للحسن بن رجاء الكاتب. المصدر نفسه ص ٩١.

(٣٨) إعتاب الكتاب ص١٦٤، والبيتان لأبي الجهم يخاطب نجاح بن سلمة عامل المتوكل. ينظر: عيون الأخبار٢/٥١٧، والشطر الثاني من البيت الأول فيه: فَضْلِكَ مَأْوًى لِلصَّفْحِ وَالمِنَنِ، وبه يصح الوزن.

(٣٩) أبو الحسن جعفر بن عثمان المعروف بابن المُصحفي، عالم شاعر، كان وزيرًا وحاجبًا للحكم المستنصر بالله (ت٣٦٦هـ)، وحاجبًا لابنه هشام المؤيد، حتى استولى المنصور بن أبي عامر (ت٣٩٣هـ) على الأمور، وشاركه في الوزارة لمكانته من صبح أم هشام المؤيد، فنكب جعفرًا، وحبسه وقتله سنة ٣٧٢هجرية. ينظر: جذوة المقتبس ص١٨٧.

(٤٠) إعتاب الكتاب ص٩٥، والأبيات لعلي بن الجهم. ينظر: الأغاني١٠/٢٢٨ خالية من البيت الأخير.

(٤١) غاية ما نُقل عنه أنه تميم بن جميل السدوسي، كان أقام على شاطئ الفرات، ودعا لنفسه، فاجتمع إليه كثير من الأعراب، وعظم أمره، فوكل به المعتصم مالك بن طوق، فظفر به، وحمله إليه موثقًا، فأحسن الاعتذار، فعفى عنه المعتصم وأحسن إليه. ينظر في ذلك: زهر الآداب٢/١٨٠.

(٤٢) ينظر: العمدة١/١٩٥، والأبيات ترد في المصادر بين الإنشاء والتمثُّل. ينظر: الفرج بعد الشدة، التنوخي، ٤/٩٠، تح: عبود الشالجي، ط دار صادر. بيروت ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

(٤٣) الأمثال، ابن سلام الهروي، ص٣١٧، تح: عبد المجيد قطامش، ط١، دار المأمون للتراث ١٤٠٠ هـ- ١٩٨٠م، ولم أقف على نسبة البيت.

(٤٤) حَمَل: هو حمل بن بدر الفزاري أحد أبطال حرب (داحس والغبراء)، وكان وضع كمينًا يصد به داحس عن الغاية، ويضمن فوز الغبراء فرس أخيه حُذيفة بن بدر، فهاجت الحرب أربعين عامًا، قتله قيس بن زهير العبسي. ينظر: شرح ديوان الحماسة للمرزوقي حماسية رقم٤٤-١/٢٠٣-٤٢٩ حماسية رقم١٤٧، تح: أحمد أمين وعبد السلام هارون، ط١، دار الجيل١٤١١هـ -١٩٩١م.

(٤٥) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ١٤٩/٣، تح: عمر عبد السلام تدمري، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت. ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، والشعر منسوب لطرفة بن العبد. ينظر: الشعر والشعراء١/١٨٨.

(٤٦) ينظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان، ٢٤٨/٢، تح: إحسان عباس، ط دار صادر. بيروت، والبيت منسوب للأخطل. ينظر: طبقات فحول الشعراء١/٤٩٣، والبيت في ديوان الأخطل صنعة السكري، ص١١٠، تح: فخر الدين قباوة، ط٤، دار الفكر. دمشق١٩٩٦م.

(٤٧) ينظر: التعازي والمراثي، المبرد، ص٢٦٢، تح: إبراهيم محمد حسن الجمل، ط نهضة مصر، ولم أقف على نسبة الأبيات لغير بلال.

(٤٨) فخ ومجنة: موضعان في مكة. شامة وطفيل: جبلان في مكة.

(٤٩) الأغاني٢١/٣٠٥، والبيت منسوب لأبي العتاهية. ينظر: ديوان أبي العتاهية، ص١٦٨، ط دار بيروت ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، والبيت ليس له؛ لأن الحسن البصري مات قبل أن يولد أبو العتاهية بعشرين عامًا.

(٥٠) ينظر: التعليقات والنوادر، أبو علي الهَجَريِّ، ص٩٢٠، ترتيب: حمد الجاسر، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

(٥١) زهر الأكم في الأمثال والحكم١/٥٠، وأبيات أبي كبير في: شرح أشعار الهذليين٣/١٠٧٣.

(٥٢) وفيات الأعيان١/٢٤٤، والبيتان لأبي الأسود الدؤلي. ينظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ٤/١٤٧٣، تح: إحسان عباس، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

(٥٣) إعتاب الكتاب ص١٧٨، والبيتان منسوبان لأبي العتاهية. ينظر: ديوان أبي العتاهية ص٣٥.

(٥٤) أبو زكريا يحيى بن مالك بن عائذ القرطبي الأندلسي، الإمام المجود، الحافظ المحقق، سمع بالأندلس ثم رحل إلى المشرق فأخذ العلم بمصر وبغداد، وعاد إلى الأندلس فظل يحدث بها وينشر العلم إلى أن مات سنة٣٧٦هـ. ينظر في ترجمته: تاريخ علماء الأندلس، ابن الفرضي، عنى بنشره عزت العطار، ط٢، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.

(٥٥) جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الحُميدي، ص١٠٧، ط الدار المصرية للتأليف والنشر، القاهرة ١٩٦٦م، والبيت لمجنون ليلى. ينظر: ديوان مجنون ليلى، ص٢١٠، تح: عبد الستار أحمد فراج، ط مكتبة مصر.

(٥٦) المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، أبو الفرج بن الجوزي، ١٣/٢٧، تح: محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، ط١، دار الكتب العلمية. بيروت، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م، والبيتان منسوبان لدعبل بن علي الخزاعي. ينظر: ديوان دعبل.

(٥٧) ينظر: العقد الفريد٢/٢١، ٤/١٤٠.

(٥٨) ينظر طبقات فحول الشعراء:١/١٤٠-١٤١-٢٤٤، ٢/٧١٠.

(٥٩) ينظر الشعر والشعراء ١/١١٢-١٤٠-١٦٠-١٦٢-١٨٣-١٨٧-١٩٨-٢٣٩-٢٥٦-٢٦٩-٣١٠-٣٢٣-٣١٨-٣٦٢-٤٢١-٥١٣، ٢/٦٤١-٦٤٧-٧٢٢-٧٢٤-٧٢٦-٨١٩-٨٧٨-٨٧٩.

(٦٠) الشعر والشعراء١/١١٢، وكان هذا نهجه غالبًا في سائر الشواهد.

(٦١) ينظر العمدة: ١/٢٨٢، وبيت النابغة في طبقات فحول الشعراء١/٥٦، والشعر والشعراء١/١٥٩.

(٦٢) العمدة١/١١٨.

(٦٣) ينظر: رسالة في أعجاز أبيات تغني في التمثيل عن صدورها للمبرد ضمن نوادر المخطوطات،

ص١٧٩، تح: عبد السلام محمد هارون، ط١، دار الجيل. بيروت١٤١١هـ-١٩٩١م.

(٦٤) رسالة في أعجاز أبيات تغني في التمثيل عن صدورها في نوادر المخطوطات ص١٨٤-١٨٨-١٨٥، وينظر في الأبيات على الترتيب: شرح ديوان زهير لثعلب، ص٥٤، تح: فخر الدين قباوة، ط٣، مكتبة هارون الرشيد، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٨م، والشعر والشعراء١/٤١٠، ٢/٧٢٦.

(٦٥) ينظر: أبيات الاستشهاد لأحمد بن فارس ضمن نوادر المخطوطات على الترتيب، ص١٦٣-١٦٦، والأبيات لزهير ومجهول والفرزدق. ينظر فيها على الترتيب: شرح ديوان زهير لثعلب ص٥١، وعيون الأخبار، ابن قتيبة، ٢/٦٣، تح: منذر محمد سعيد أبو شعر، ط١، المكتب الإسلامي. بيروت ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م، وديوان الفرزدق ص٣٩٣.

(٦٦) ينظر: التمثيل والمحاضرة، الثعالبي، ص٤٥، تح: د. عبد الفتاح محمد الحلو، ط٢، الدار العربية للكتاب١٩٨٣م.

(٦٧) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة، ١/٧٨١، ط١٩٤١م، وورد باسم (ديوان التمثيل) في بعض الكتب ينظر في ذلك: معجم الأدباء١/٢٦٩١، وفيات الأعيان٥/١٦٩، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي، ٦/١٩٥، تح: محمود الأرناؤوط، ط١ دار ابن كثير. دمشق١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م.

(٦٨) قطب الدين محمد بن أحمد بن محمد بن قاضي خان محمود النَّهْرَوَالي، فقيه مؤرخ شاعر، غزير التأليف، من أهل مكة، تعلم بمصر، ونُصِّب مفتيا بمكة. له: الإعلام بأعلام بلد الله الحرام، البرق اليماني في الفتح العثماني، التمثيل والمحاضرة بالأبيات المفردة النادرة. ينظر في ترجمته: إيضاح المكنون، إسماعيل باشا البغدادي، ٣/٣٢٠، ط دار إحياء التراث العربي، الأعلام، الزركلي، ٦/٧، ط١٥، دار العلم للملايين٢٠٠٢م.

(٦٩) إيضاح المكنون٣/٣٢٠.

(٧٠) حسين رضا بن عصمت الرومي وزير أديب، من وزراء الدولة العثمانية، له العديد من المؤلفات منها: لُباب الانتخاب في الحكم ونوادر الكلم، جراب الأدب في النوادر والحكايات في أربع مجلدات، كان حيًّا سنة١٣٢٠هـ. ينظر في ترجمته: إيضاح المكنون٣/٣٣، معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، ٤/٧، ط مكتبة المثنى، بيروت، دار إحياء التراث العربي بيروت.

(٧١) ينظر: إيضاح المكنون٣/٣٣.

(٧٢) محمد بن إبراهيم الحمد ولد في الزلفي بالمملكة العربية السعودية سنة ١٣٨٥هـ، ونشأ في كنف أبيه أمير منطقة الزلفي، تدرج في مراحل التعليم المختلفة، حصل إجازة في اللغة العربية من جامعة الإمام محمد بن سعود١٤٠٩هـ، ثم التحق بقسم العقيدة بجامعة أم درمان في السودان، وحصل عل الماجستير ثم الدكتوراه، له العديد من المؤلفات الدينية، ويعمل أستاذًا في كلية

الشريعة جامعة القصيم. ينظر في ترجمته: الموقع الرسمي للدكتور محمد بن إبراهيم الحمد www.m-alhamad.com

(٧٣) ينظر: التمثُّل بالشِّعر، دكتور محمد بن إبراهيم الحمد، ط١، دار الحضارة للنشر والتوزيع١٤٢٩هـ-٢٠١٨م.

(٧٤) ينظر: نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري، ٦٤/٣، تح: مفيد قمحية، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م، زهر الأكم في الأمثال والحكم١/٥٠.

(٧٥) نفح الطيب١/٥٧٥، ولم أقف على نسبة الأبيات، ولعلها له.

(٧٦) التذكرة الحمدونية٢/٤٨، والأبيات منسوبة فيها لأبي عبد الرحمن الأعمى.

(٧٧) ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت، ص٧٢، دراسة: مفيد محمد قميحة، ط١، دار الكتب العلمية. بيروت١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

(٧٨) أنساب الأشراف، البلاذري، ٣٣٣/٥، تح: سهيل زكار وآخرين، ط١، دار الفكر. بيروت ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م، والبيت لعبد الله بن الزِّبَعْرَى في غزوة أحد. ينظر: طبقات فحول الشعراء١/٢٣٨ والرواية فيه (ضجر الخزرج). و(جزع الخزرج) أحسن وأدق لأنها أمكن في الفزع والخوف.

(٧٩) ينظر على سبيل المثال: العقد الفريد٥/١٣٩.

(٨٠) ينظر: السابق الصفحة نفسها، ١٦٩/٧، والبداية والنهاية، ابن كثير، ٢٠٩/٨، تح: علي شيري، ط١، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

(٨١) ينظر: طبقات فحول الشعراء١/١٤٠، والبيت لعلقمة الفحل: السابق١/١٣٩.

(٨٢) الشعر والشعراء٢/٦٤٩، وقوله: (فضحنا) لأن عبد الرحمن بن حسان شبب برملة بنت معاوية.

(٨٣) المجالسة وجواهر العلم، أبو بكر أحمد بن مروان الدينوري، ٢١٦/٤، تح: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، ط دار ابن حزم بيروت ١٤١٩هـ، التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، ابن حجر العسقلاني، ٢٧٢/٣، تح: أبو عاصم حسن بن عباس بن قطب، ط١، مؤسسة قرطبة. مصر١٤١٦هـ-١٩٩٥م، وقد تمثل النبيr بالشِّعر بضع مرات، من ذلك تمثُّله بقول ابن رواحة:

اللهُمَّ إنَّ الأَجْرَ أَجْرُ الآخِرَهْ فَارْحَمِ الأَنْصَارَ وَالمُهَاجِرَهْ

وتمثَّل يوم بناء مسجده الشريف بشعر رجل من المسلمين:

هَذَا الحِمَالُ لَا حِمَالُ خَيْبَرْ هَذَا أَبَرُّ رَبَّنَا! وَأَطْهَرْ

مختصر صحيح البخاري٢/٥٩٩، وبيت ابن رواحة في ديوانه ص١٤١ والرواية:(لاهم إن العيش عيش الآخرة).

وتمثَّل بقول أمية بن الصلت:

إِنْ تَغْفِرْ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلَمَّا

سنن الترمذي، ٢٩٦/٥، الترمذي، تح: أحمد شاكر، ط٢، مطبعة مصطفى البابي الحلبي. مصر ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥م. وبيت أمية في طبقات فحول الشعراء ٣٦٧/١.

(٨٤) ينظر: طبقات فحول الشعراء ١٨٧/١، وديوان سُحَيم، ص١٦، تح: عبد العزيز الميمني، ط دار الكتب المصرية١٣٦٩هـ -١٩٥٠م.

(٨٥) ينظر: تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، ٢٦١/١، ط١، دار ابن الجوزي. القاهرة٢٠١٠م.

(٨٦) ينظر: السنن المأثورة، الشافعي، ص٢٥٣، تح: عبد المعطي أمين قلعجي، ط١، دار المعرفة، بيروت. ١٤٠٦هـ، مجالس ثعلب، ٣١٣/٢، تح: عبد السلام محمد هارون، ط٢، دار المعارف. مصر، وأبيات طفيل في الأغاني٣٦٨/١٥.

(٨٧) ينظر: زهر الأكم في الأمثال والحكم-اليوسي٥٠/١.

(٨٨) ضَجَنَان وضَجْنَان: جبيل على طريق المدينة، بينه وبين مكة خمسة وعشرون ميلاً، ويعرف اليوم بحَرَّة المحسنية، ذكره النبي في قصة الإسراء والمعراج. ينظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي٤٥٣/٣، ط٢، دار صادر. بيروت ١٩٩٥م، معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، عاتق بن غيث، ص١٨٣، ط١، دار مكة للنشر والتوزيع ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.

(٨٩) ينظر: زهر الآداب وثمر الألباب٤٥/١، والأبيات لورقة بن نوفل. ينظر: الأغاني١٢١/٣مع اختلاف الرواية في البيت الأخير.

(٩٠) العمدة لابن رشيق٢٥٦/١، والبيت للممزق العبدي. ينظر: طبقات فحول الشعراء ٢٧٤/١، والشعر والشعراء٣٩٩/١.

(٩١) الطُّبْيَيْن: مثنى مفرده: طبي بضم أوله وفتحه، وهو ضرع الناقة وموضع الأخلاف من الخيل. اللسان(ط ب ي)

(٩٢) الكامل في التاريخ٣٢٤/٧، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، علي بن الحسن بن أبي بكر بن الحسن بن وهاس الخزرجي، ١٢٢/١، تح: محمد بسيوني عسل وآخرين، ط١، دار الآداب، بيروت. ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، رفع الإصر عن قضاة مصر، ابن حجر العسقلاني، ص٩١، تح: الدكتور علي محمد عمر، ط١، مكتبة الخانجي. القاهرة ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

(٩٣) موقعة حربية بين عائشة وطلحة والزبير وبين علي بن أبي طالب y سنة٣٦هجرية في البصرة بسبب مطالبة الثلاثة بالثأر لدم عثمان y مخالفين رأي علي بتأجيله، وانتهت المعركة بانتصار علي

ومقتل طلحة والزبير. ينظر: البداية والنهاية٢٥٧/٧.

(٩٤) الكامل في اللغة والأدب، المبرد، ١٧٣/١، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٣، دار الفكر العربي. مصر١٤١٧هـ -١٩٩٧م، والأبيات لسَلَمَة الجُعْفِي يرثي أخاه في ديوان الحماسة إلا البيت الثاني، مع اختلاف الترتيب. ينظر: شرح ديوان الحماسة للمرزوقي١٠٨١/٢حماسية رقم٣٨٥.

(٩٥) ينظر: أنساب الأشراف٤١٦/١، والبيت منسوب للبيد. ينظر: ديوان لبيد بن ربيعة العامري، ص١٥٧، تح: إحسان عباس، ط وزارة الإرشاد الكويت١٩٦٢م.

(٩٦) ينظر: العقد الفريد١٤٨/٢، والبيت منسوب لحارثة بن بدر. ينظر: البيان والتبيين٢١٩/٣.

(٩٧) ينظر: التعازي والمراثي ص٤٤، والبيتان لأبي ذؤيب الهذلي. ينظر: شرح أشعار الهذليين أبي سعيد السُّكري، ١٠/١-٨، تح: عبد الستار أحمد فراج، ط مطبعة المدني.

(٩٨) ينظر: الشعر والشعراء٤٢٦/١، والأبيات لعمرو بن شَأْس في عِرَار ابنه. ينظر: طبقات فحول الشعراء٢٠٠/١، والشعر والشعراء٤٢٥/١.

(٩٩) ينظر: العقد الفريد١٣٢/٢. وأبيات عبد بني الحَسْحَاس في الأغاني٣٠٤/٢٢، وديوانه ص٥٥.

(١٠٠) ينظر مقال (قبح جميل): وحي القلم، مصطفى صادق الرافعي، ١٢١/١، تح: سعد كريم الفقي، ط مكتبة الإيمان المنصورة١٤١٩هـ-١٩٩٩م .

(١٠١) التكملة لكتاب الصلة، ابن الأبار القضاعي، ٢٥٧/٤، تح: عبد السلام الهراس، ط دار الفكر للطباعة، لبنان. ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م، ولم أقف على نسبة البيت، غير أن ابن الأبار ذكر أن البيت أورده عبد الدائم بن مرزوق القيرواني في شرحه لشعر المتنبي. ينظر: السابق ٢٥٨/٤.

(١٠٢) التكملة لكتاب الصلة١٣٠/١.

(١٠٣) الكامل للمبرد١٥٤/١.

(١٠٤) ينظر: البيان والتبيين٣٠٨/٢، والبيت لسُحَيْم بن وَثِيل الرِّيَاحِيِّ. ينظر: طبقات فحول الشعراء٥٧٩/٢.

(١٠٥) ينظر: أمالي القالي، ٢٨٣/١، تح: محمد عبد الجواد الأصمعي، ط٢، دار الكتب المصرية ١٣٤٤ هـ - ١٩٢٦م. ولم أقف على نسبة الأبيات ولعلها لابن الزبير نفسه.

(١٠٦) غلوة: قدر رمية سهم. اللسان(غ ل ا). سيَّب : ترك. اللسان(س ي ب).

(١٠٧) الكامل في التاريخ٧٧/٤.

(١٠٨) والأبيات للأخنس بن شهاب التغلبي يحث فرسه على الإقدام. ينظر: أنساب الخيل لابن هشام الكلبي، ص٨٥، تح: أحمد زكي باشا، ط دار الكتب المصرية ١٤٢٤هـ، وفي أكثر المصادر لرُشَيْد بن رُمَيض العَنَزي. ينظر: الحماسة البصرية٣١٩/١ حماسية رقم٢١٨، الأغاني٢٥٤/١٥.

(١٠٩) وقفت للحجاج على بضع مرات تمثَّل فيها بالشِّعر. ينظر في ذلك: الأمثال لابن سلام الهروي ص٢٦٩، الشعر والشعراء١-١٦٠-٤٢١-٢،٤٣٢-٦٤١، الكامل للمبرد١/٢،٢١٥/٨٠، ٣/٢٦٣، العقد الفريد٥/٣٠٦.

(١١٠) الكامل في التاريخ٤/٦٢. والبيت للعرجي: ينظر: الشعر والشعراء٢/٥٧٤.

(١١١) ديوان أبي فراس الحمداني، ص١٦٥، شرح: خليل الدويهي، ط٢ دار الكتاب العربي١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

(١١٢) ينظر: الأغاني ١/ ٤٢٨-٤٢٩.

(١١٣) ينظر في ذلك على الترتيب: الأشباه والنظائر للخالديين٢/٣٠٦، عيون الأخبار١/٢٨٤، الكامل لابن الأثير٥/١٦، الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي، أبو الفرج المعافى بن زكريا النهرواني، ١/٢٢٧، تح: محمد مرسي الخولي، ط١، عالم الكتب١٤١٣هـ-١٩٩٣م، والأبيات لبَشَامة بن الغدير المُرِّيِّ. ينظر: طبقات فحول الشعراء٢/٧٢٦ مع اختلاف يسير.

(١١٤) ربيع الأبرار ونصوص الأخيار للزمخشري، ٢/٣٤٣، ط١، مؤسسة الأعلمي، بيروت ١٤١٢ هـ، والبيت لسلامة بن جندل في المصدر نفسه.

(١١٥) ديوان أبي تمام بشرح التبريزي٤/٢٠٥.

(١١٦) الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي١/٤٥٧، والأبيات لطريف العنبري، ولم أقف على نسبتها له في غير هذا الموضع إلا في تاريخ دمشق.

(١١٧) ينظر: عيون الأخبار١/١٩٣، والبيت للحُصين بن الحُمام المُرِّي. ينظر: شرح حماسة أبي تمام للمرزوقي١/١٩٧حماسية رقم٤١.

(١١٨) تزيين الأسواق، داود بن عمر الأنطاكي، ٢/٢٥٤، تح: محمد التونجي، ط١، عالم الكتب بيروت ١٤١٣هـ - ١٩٩٣، وأشار المؤلف أن البيت لحاتم الطائي، ولم أقف على البيت في غير هذا الموضع.

(١١٩) ما بين معقوفين ورد في الكتاب هكذا، وأظنه تصحيف وصوابه (عروة).

(١٢٠) حياة الحيوان الكبرى، الدميري، ٢/٢١٣، ط٢، دار الكتب العلمية. بيروت ١٤٢٤ هـ.

(١٢١) ينظر: جمهرة الأمثال، أبو هلال العسكري، ٢/١٣٤، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، ط٢، دار الجيل .بيروت١٤٠٨هـ -١٩٨٨م.

(١٢٢) ينظر: وحي القلم للرافعي١/١٠.

(١٢٣) ديوان ابن عنين، ص٩٥، تح: خليل مردم بك، ط٢، دار صادر. بيروت.

(١٢٤) ينظر: العقد الفريد٥/١٣١، والبيت للحُصين بن الحُمام المُرِّيِّ. ينظر شرح الحماسة للمرزوقي١/١٩٩حماسية رقم٤١مع اختلاف يسير.

(١٢٥) ينظر على الترتيب: الأغاني١٥/١٩، زهر الآداب ٨٩/١.

(١٢٦) الروض المعطار في خبر الأقطار، الحميري، ص٢٩٨، تح: إحسان عباس، ط٢، مؤسسة ناصر للثقافة١٩٨٠م، والبيتان لعَدِيِّ بن زيد العبادي لما حبسه النعمان. ينظر: الشعر والشعراء٢٢٩/١.

(١٢٧) الكامل في التاريخ٥٥٩/٢، والتذكرة الحمدونية ٣٠/٢، والبيت منسوب للأعشى. ينظر: ديوان الأعشى، ص١٧٧، تح: محمد حسين، ط مكتبة الآداب بالجماميز.

(١٢٨) أنوار الربيع في أنواع البديع، ابن معصوم المدني، ٣٤/٥، تح: شاكر هادي شكر، ط١، مطبعة النجف الأشرف١٣٨٨هـ-١٩٦٩م، والأبيات للعَلَاء بن قَرَظَة الضَّبيِّ خال الفرزدق. ينظر: ينظر البيت الثاني والثالث في: الشعر والشعراء٤٧٨/٢.

(١٢٩) نفح الطيب١١١/٥.

سيل العرم وسد مأرب..
تساؤلات عن الانهيار الكبير

توفيق السامعي

مقدمة:

هطلت سيول جارفة في شهر (أبريل ٢٠٢٠م) على معظم اليمن، وخلفت أضرارًا بشرية ومادية كبيرة، وخاصة في محافظة مأرب، بعثت في مخيلة اليمنيين حادثة هي من أهم أحداث التاريخ اليمني، والتي دوَّنها القرآن الكريم دون غيره من المصادر، وهي حادثة «سيل العرم»، وما علق بها من أساطير وحكايات كثيرة صارت مضربَ الأمثال عند العرب.

دوّن القرآن الكريم قصة سيل العرم، الذي أرسله على قوم سبأ في اليمن، بسبب إعراضهم عن شكر نعمة الله بطلب الترحال وبُعد الأسفار وعدم الاستقرار، كما هو واضح من سياق الآيات القرآنية الواردة في سورة (سبأ) من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ

بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْأٓخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٞ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٖ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴿٢٢﴾﴾.

وتعتبر هذه القصة والحادثة محطةً مفصليةً في تاريخ اليمن؛ إذ ترتَّب عليها الكثير من الأشياء، والتي عدت بمثابة زلزال كبير في الجزيرة العربية برمتها، وتاريخًا فاصلاً في الجزيرة كلها.

امتلأت كتب السير والتاريخ عند الإخباريين بهذه القصة فزيد فيها وأُنقص، وكُتبت حولها الأساطير الكثيرة منها الخرافية ومنها الإبداعية في الخيال والتدوين والتنبيش في الذاكرة، ولم تكن كذلك لولا أن القرآن الكريم جعلها من إحدى عبره وقصصه وأحداثه الكثيرة.

فالكتب التاريخية الإخبارية تحكي عن هجرة كبيرة لليمنيين من أرضهم إلى مختلف البقاع، سواء داخل الجزيرة العربية أو خارجها، في الشام والعراق ومصر وأفريقيا.

ربما لم يثر هذا الأمر اهتمام الكثير من المؤرخين الآثاريين أو الباحثين، للتوفيق بين ما رواه الإخباريون في كتبهم والآثاريون الباحثون في النقوش والمدونات اليمنية بالخطوط المختلفة،وفي المساكن وما خلفه الإنسان اليمني والحضارة اليمنية، باستثناء المؤرخ الكبير جواد علي الذي فصَّل في هذه المسألة أيَّما تفصيل في موسوعته «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام»، وكذلك بشيء من الإشارات واللملمات المختلفة للبروفيسور يوسف محمد عبدالله، أو لبعض الباحثين الآثاريين الآخرين الذين يقفون عند النقوش المجردة بالإحصاء ودراسة تاريخها، وكل له غايته منها من استقصاء وجمع أو دراسة لغوية...إلخ.

وفي هذا البحث حاولنا –قدر الإمكان– أن نستقصي هذه المصادر التي

تحدثت عن سد مأرب وقصة سيل العرم المذكورة في القرآن الكريم،ونوفق بينها وبين الواقع.

مدخل:

عُرِفت اليمن على مرِّ العصور ببنائها للسدود وخزانات المياه، وإجراء السواقي/الأفلاج المختلفة كأنهار صناعية لوسائل ري متطورة تجلب المياه من أماكن بعيدة، من أودية وأنهار إلى المدن والقرى المختلفة للانتفاع بها، واشتهرت الكثير من السدود اليمنية في الدول السبأية والقتبانية والحميرية والحضرمية، ومن ذلك أبيات شعرية نسبت للملك الحميري أبي كرب أسعد (أسعد الكامل) يقول فيها:

ورَيْدَانُ قَصْري في ظَفَار ومَنزلي	بهَا أسَّ جدِّي دورَنا والمناهلا
على الجنَّة الخضراء من أرض يحصب	ثمانونَ سدًّا تقذفُ الماءَ سائلا
مآثرُنا في الأرضِ تصدقُ قولَنا	إذا ما طلبْنا شاهدًا أو دلائلا

ومن هذه السدود: «قصعان» و«ربوان»، وهو سدّ قتاب[1]، وشحران، وطمحان، وسد عباد، وسد لحج، وهو سد عرايس، وسد سحر، وسد ذي شمال، وسد ذي رعين، وسد نقاطة، وسد نضار وهران، وسد الشعباني، وسد النواسي، وسد الخانق بصعدة، وسد ريعان، وسد سيان، وسد شبام، وسد دعان وغيرها. وذكر «الهمداني» أن في مخلاف «يحضب العلو» [يحصب يريم] ثمانين سدًا[2].

وسدُّ «الخانق» سدٌّ ينسب إلى «نوال بن عتيك» مولى سيف بن ذي يزن، ومظهره في «الخنفرين«من رحبان. وقد خرَّبه»إبراهيم بن موسى العلوي[3]» بعد هدم صعدة[4].

وهناك آثار سدود جاهلية أخرى أقيمت في مواضع متعددة من العربية الجنوبية، منها آثار سدٍّ قتباني أقيم عند موضع «هجر بن حميد» بوادي بيحان، وقد درسه ووصفه «بوون»، كان يسقي بمائه منطقة واسعة من أرض مملكة قتبان[5].

وآثـار سـد «مرخـة»، وآثـار سدٍّ آخـر أقيم عنـد «شبـوة»، وسـدٍّ آخر عند «الحريضـة»، تفرعت منه شبكة من القنوات والمجـاري لإيصال الماء إلى المزارع والأرضين الخصبة التي تعيش عليها[٦].

«واستبـد سدُّ مأرب من بين سائر سدود جزيرة العرب بالاسم والذكر، ونال مكانـة كبـيرة في كتب التفسير والسِّـير والأخبار، ولذكر القـرآن لـ«سيل العرم»، نصيـبٌ كبير في توجُّه أنظار علماء التفسير واللغة والأخبار إليه، وفي خلود اسمه إلى الآن. وقد روى أهل الأخبار قصصًا عنه وعن كيفية خرابه، وتشتت شمل سبأ بسببه، ونزوحهم إلى مواضع بعيدة عن ديارهم القديمة.

ويعـدّ سدُّ «مأرب» من أهم السدود التي أقيمت في اليمن وفي جزيرة العرب، وقـد بني من أجـل السيطرة على مياه الأمطار والسيول التـي تتدفق منها لوقاية المـزارع والقرى منهـا، وللاحتفاظ بهذه السيـول للاستفادة منهـا إذا انقطعت الأمطار، وإرواء مناطق واسعة من الأرضين، جيدة التربة، خصبة مثمرة»[٧].

قصة سيل العرم التي أشار إليها القرآن ووثَّقها كحدث لمرة واحدة في التاريخ على إثرها تم تمزيق اليمنيين شذَرَ مذَرَ في البلاد المجاورة وحتى البلاد البعيدة، لتنشـأ على إثرها شعـوب وأوطان وممالك جديدة كوَّنت فيمـا بعد بعض شعوب العالم العربي، ظلت من أهم الأحداث المحيرة تاريخيًّا، وتلاعب بها الإخباريون.

فقـد مضت معظم التفاسـير والسير الإخباريـة التاريخية تقصُّ علينا أن سيل العرم أرسل على مأرب وسدها، والذي انهار بفعل السيل والقصة الخرافية للفـأر، وبسبب هذا الانهيـار كانت هجرة اليمنيين إلى مناطـق شتى من المحيط الإقليمي، وتكوين الكثير من الشعوب والممالك فيها.

ومـن ذلك مثلاً مـا جاء في تفسير ابـن كثير من قصص كثـيرة ملخصها: «وذكر غير واحد ومنهم ابن عباس ووهب بن منبه وقتادة والضحاك أن الله -عز وجل- لما أراد عقوبتهم [أهل سبأ] بإرسال العرم عليهم بعث على السدِّ دابةً من

الأرض، يقال لها: «الجرذ» نقبته. قال وهب بن منبه: وقد كانوا يجدون في كتبهم أن سبب خراب هذا السد هو الجرذ، فكانوا يرصدون عنده السنانير برهةً من الزمان، فلما جاء القدر غلبت الفأرُ السنانيرَ، وولجت إلى السد فنقبته، فانهار عليهم»[٨].

لكن وبقليل من الدراسة والتمحيص لكل تلك الروايات سنتوقف عند بعض المفاهيم والوقائع التاريخية بعيدًا عن الحكايات الأسطورية التي تفتقد لكثير من الدقة، كون كثير مما ذهبت إليه أقوال المفسرين كانت رجمًا بالغيب، لا تستند إلى شاهد أو دليل مادي على الأرض، وسنأخذ تلك الدراسات من خلال الآثار والتاريخ وإعمال الحجة والمنطق والعقل، لنصل إلى نتيجة مرضية للمنهج العقلي والبحثي اليوم، وكذلك سنسرد من خلال هذه الدراسة عدد المرات التي تدمَّر فيها السد، وإعادة إعماره وترميمه من جديد.

بناء السد وتهدمه:

تفتقر الأراضي اليمنية إلى أنهار طبيعية تجري فيها طوال العام للاعتماد عليها في الزراعة، كما هو الحال مثلاً في مصر والسودان مع وجود نهر النيل، أو بلاد الرافدين مع وجود نهري دجلة والفرات، وهي أنهار كونت حضارات زراعية في تلك الدول، واستقرارًا سكانيًّا كبيرًا، فاليمنيون يعتمدون في زراعتهم على مياه الأمطار الموسمية في الصيف وقليل من الربيع والخريف.

تلك الحاجة للمياه جعلت الإنسان اليمني يفكر في إنشاء نمط ريٍّ زراعي يعوضه عن الأنهار الطبيعية التي تجري طوال العام، فاهتدى إلى فكرة بناء السدود والحواجز المائية والمآجل والبرك، وإنشاء القنوات والأفلاج التي تنقل المياه من أماكن بعيدة ليخزنها ويستفيد منها عند الحاجة إليها شتاءً.

من هنا جاءت فكرة بناء سد مأرب في مملكة سبأ القديمة، وغيره من السدود اليمنية الأخرى، وتم دراسة موقع إنشائه بعناية فائقة؛ فإقامته في ميزاب اليمن

الشرقـي، ومن خلفـه سلسلة جبلية مفتوحـة عبارة عن حوض صخـري بإمكانه خزن ملايين الأطنان من المياه.

و«شيد سـدٌّ مأرب في وادي أذنة بين مأزمي الجبلـين؛ البلق الشمالي والبلق الأوسط، وجبـال البلق هي سلسلة من الجبال تؤلـف الحاجز الأخير للمرتفعات الشرقيـة، قبل أن تلتقي بالصحراء، والصحراء المعنية هي ذلك الجزء من فلاة اليمـن أو (جرز اليمن الشرقي) الذي يمتد بين مأرب وشبوة، وتصب فيه معظم أودية المشرق، ويسميه الجغرافيون العرب بمفازة صيهد، ويطلق عليه حاليًّا اسم (رملـة السبعتين). وبين مأزمي الجبلين المذكورين يضيق وادي أذنة بحيث يكون موقعًـا طبيعيًّا يصلـح لإقامة سدٍّ، وتتسع منطقة التجمـع في أعلى المضيق، حيث تبدو وكأنها حوض مثالي لاحتواء المياه. ووادي أذنة هو (أذنت في النقوش اليمنية القديمة) وهو أعظـم أودية اليمن وميزابه الشرقي»[٩]. تنظر الصورة رقم (١) (صورة السد والوادي).

ولبناء السد وظيفتـان رئيستان؛ الأولى: حفظ الأراضي الزراعية من جرف السيـول المتدفقة، والثـاني تخزين المياه للاستفادة منهـا في الري في غير موسم الأمطار.

ويعتـبر سـد مأرب أول السـدود في اليمن وفي جزيرة العـرب على الإطلاق، حيث لم يُذكر سدٌّ في الجزيرة العربية قبل هذا السد.

لكـن خـلال هذه الفترة أو مـا قبلها في القرن الثامن الميـلادي، لم يكن سد مـأرب (رحاب) هو وحده الـذي شيد، فقد وجد سد خاصـ؛ ملكية خاصة لأحد المواطنـين، وقد ذكـره نقش مسندي صغير في متحف مـأرب بنوع خط المحراث، يتحدث عن امتلاك هذا الرجل لسد خاص.

ويعـود تاريخ هذا النقش إلى نهاية القـرن الثامن قبل الميلاد[١٠]، وربما كان أقـدم النقوش التي تتحدث عن السـدود الأخرى حتى الآن، كونـه يسبق تواريخ

النقوش التي تتحدث عن سد مأرب الكبير (رحاب) وبخط المحراث القديم[١١].

يقول النقش المكون من ثلاثة أسطر:

ل ي ح ي/ ع س ي

و ب ن ي/ م أ

خ ذ ن

والمعنى:

ليحيى امتلك

وبنى

سدهو[١٢].

ومن خلال الأبحاث ومراجعة تاريخ إنشاء سد مأرب نجد أن سد مأرب تم بناؤه وترميمه أكثر من ثماني مرات بين فترات متباعدة، وتهدم أكثر من ثماني مرات أيضًا، منها تهدُّم كلي، ومنها تهدُّم جزئي، وفي كل مرة يتم إعادة بنائه وترميمه.

ويعود بناء سد مأرب البناء الأول، على رأي أكثر الباحثين والمؤرخين، إلى القرن الثامن قبل الميلاد، أي حوالي بعد بلقيس بقرنين من الزمن، ومنهم من يعيد بناءه إلى نهاية الألف الثانية قبل الميلاد، أي قبل عهد بلقيس بحوالي مائة عام أو يزيد.

ويرى العالم الآثاري النمساوي «GLASER" أن عهد البناء الأول للسد يعود إلى ما بين ٧٠٠و٧٥٠ قبل الميلاد (القرن الثامن)، وقد بقي قائمًا يؤدي واجبه إلى حوالى السنة «٥٧٥» بعد الميلاد[١٣].

وانفرد عالم الآثار اليمنية البروفيسور يوسف محمد عبدالله من بين

المؤرخين والباحثين بالقول إن إنشاء السد يعود إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد[١٤].

ولا توجد بين أيدينا نصوص مسندية عن أول رجل أو حاكم أقام هذا السد، وعن العهد الذي تم فيه البناء، كما هو حال النصوص الأخرى، سواء عن الاستحداثات والبناءات والترميمات الأخرى أو تدوين أحداث السيول، وعلى وجه الخصوص «سيل العرم»، رغم أن اليمنيين القدامى كانوا لا يتركون شاردة ولا واردة إلا ودونوها بشكل نقوش مسندية، وتفسير هذا الأمر الأقرب للواقع هو أنه لم يتم العثور بعدُ على مثل هذه النقوش، وقد يأتي زمن تكتشف وتظهر للعيان.

فقد دوَّن اليمنيون حادثة حمم بركان سائل أصاب حوالي صنعاء وعمران من قرب جبل «ضين»، ولا تزال آثاره حتى اليوم، وقد ذكره النقش بـ«الثيل»، وهذا النقش حققه المؤرخ مطهر الإرياني، ويوجد النقش في خربة همدان، وهو من أهم النقوش التي تدل على الكوارث الطبيعية وخاصة ما عرف في القرآن الكريم بقصة أصحاب الجنة من ضروان، في سورة القلم، والتي يرجحها الإرياني في هذه الحادثة[١٥]، غير أنها لم تكن كذلك لاختلاف مواصفاتها في القرآن الكريم عما هو في النقش.

صحيح أن النقوش تذكر أن سيولاً مختلفة هدمت السد بين فترة وأخرى، لكن لم يذكر أيٌّ منها الآثار الكبرى المترتبة على تلك التهدمات والتصدعات؛ لأن ما ذكر في القرآن الكريم يعتبر حدثًا جللاً وضخمًا ترتب عليه التمزيق والتهجير كما تذكره الآيات.

ويظهر من بعض الكتابات المحفورة على جدران السد بالمسند أن جملة تحسينات وتعميرات أدخلت عليه في أوقات مختلفة قبل الميلاد وبعدها، وآخرها هو إصلاح أبرهة الحبشي الذي تم على إثر تصدعه سنة ٥٤٢ للميلاد. ويظهر

أن تصدعًا آخر وقع للسدّ في أيام طفولة الرسول صلى الله عليه وسلم، وذلك في حوالي السنة «٥٧٥» للميلاد، ولم يتم إصلاحه بعد ذلك، بسبب التدهور الاقتصادي لليمن الذي حدث في هذا العهد، وارتباك الأوضاع السياسية، واضطراب الأمن، وانتشار الثورات في كل مكان، وتدخل الأجانب في شؤون البلاد، فتصدع قسم كبير منه، ولم يهتم أحد من الحكام بإعادته إلى أصله بإصلاحه وترميمه، وتحولت بذلك الأرضون الخصبة التي كانت تروى بمائه، والتي كانت واسعة إلى أرضين موات، غطتها الطبيعة بطبقة من الرمال والأتربة، وألبستها أكسية الصحراء الحزينة، حدادًا على فراقها لذلك السدّ العتيد[١٦]، حتى تم إعادة بنائه في يوليو ١٩٨٤م من القرن الماضي في عهد الرئيس السابق علي عبدالله صالح على يد الشيخ زايد بن سلطان رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة.

توجد نقوش مسندية «على حجارة السد القديم الباقية إلى أيام تعود إلى عهد «المكاربة». وأول اسم يرد في هذه النقوش التوثيقية لعمل السد أو إصلاحه هو سمهعلي ينوف بن ذمار علي[١٧]، وذلك في النقش المرموز إليه بـ CIH ٦٢٣[١٨]، والنقش يذكر عملية إصلاح في السد، وليس إنشائه من الصفر، وقام بحفر ساقية في السد فقط.ونفس الأمر ما قام به من بعده ابنه المكرب «يثع أمر بين» من عملية إصلاح وإجراء ساقية من السد.

في حين يذكر جواد علي أن المكرب «كرب إل بين بن يثع أمر»، ببناء جزء من السد وتقوية أجزائه الأخرى. كما قام الملوك بإضافة أجزاء جديدة إليه، وتقوية الأجزاء القديمة منه، ومن هؤلاء الملك «ذمار علي ذرح» ملك سبأ، والملك «يدع إيل وتر»[١٩]. لكن بالعودة إلى النقش فقد عمل عملية إصلاح فقط.

وهناك إشارة بسيطة إلى بناء السدود والحواجز المائية وقنوات الري المختلفة في مأرب وردت في الفقرة الثانية من نقش النصر ل«كرب إيل وتار»،

لكنها لم تفصل في هذا البناء أو تنسبه إلى «العرم» مثلاً، كما جاء في نقش أبرهة الحبشي كآخر الإصلاحات والترميمات لهذا السد.

تقول فقرة نقش النصر، كما أوردها المؤرخ جواد علي: «ووهبت أرض سبأ مطرًا سال في الأودية، فأخذت الأرض زخرفها بالنبات، وإذ مكنته من إنشاء السدود، وحصر السيول حتى صار في الإمكان إسقاء الأرضين المرتفعة، وإحياء الأماكن التي حرمت الماء، كذلك إحياء أرضين واسعة بإنشاء سد لحصر مياه الأمطار يتصل بقناة «عهل» لسقي «ماودن» «مأدون» والأرضين الأخرى التي لم تكن المياه تصل إليها، فوصلت إليها بامتلاء حوض السد بالماء، حتى سقت «موترم» «موتر» التي جاءها الماء من «هودم» «هوديم» «هودي»، وبإنشائه مسايل أوصلت المياه إلى «ميدعم» «ميدع» و«وتر» و«وقه»، ونظم الري في «ريمن» «ريمان» حتى صارت المياه تسقي كل أرض»[٢٠]، مع اختلاف القراءات للنقش من قبل باحثين آخرين ولكن بتقارب كبير.

في بعض النقوش الموجودة على حائط السد تذكر إما عمليات الترميم والإصلاح، وإما أسماء المكاربة (الملوك) بدون تحديد عمل لهم في السد، كما هو حال نقش المكرب «سمه علي ينوف بن ذمار علي» وابنه «يثع أمر بين» مثلاً اللذين ورد اسمهما وصفتهما دون أي ذكر للعمل[٢١]، وهذا يدل على أن السد لم يكن من إنشائهما، وإنما من عمل من قبلهم من المكاربة/الزعماء والملوك، وهم رمموا وأصلحوا فقط، الأمر الذي يعني قدم تأسيس السد عن زمنهم.

وهناك إشارة مهمة أخرى أيضًا عن تاريخ تأسيس السد بأنها تعود إلى ما قبل الألف الأول قبل الميلاد، وهي أن مختلف المؤرخين والباحثين يجمعون على أن زمن المكاربة سبقت بكثير فترة الملوك، ونحن نجد أن بلقيس مثلاً كانت في القرن العاشر ق.م، وقد ذكرها القرآن الكريم بوصفها ملكة لا مكربة، وهناك فرق بين المكرب والملك كما هو معلوم،فالمكرب المقدم

وكبير الكهنة المقرب من الإله أو كبير سدنة المعبد، في حين الملك كبير القوم وسيدهم والمتحكم في شؤونهم، ومن هنا كان وصف بلقيس بالملكة: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةً تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾﴾. وفي النقوش على السد وردت صفة «مكرب» وليس «ملك» بمعنى أن إنشاء السد كان أقدم من الفترة المحددة بالقرن الثامن قبل الميلاد.

ويرى «فون وزمن» أن الملك الحميري ذمار علي يهبر (١٠٠ ب.م) غزا مأرب وقام هو وابنه «ثاران» بترميم سد مأرب وبناء المواضع التي تخربت منه؛ وذلك لأنه كان قد تخرب، وذكر أن تخرُّب السد هذا هو تخرُّب لم يصل خبره إلينا[٢٢].

كما تهدم سد مأرب للمرة الثانية في عهد الملك الحميري «ثاران يهنعم» بحسب نقش مسندي يرمز له بـJamme ٦٧١، وقيام الملك "ثاران يهنعم" بإصلاحه وإعادته إلى ما كان عليه. ويكون هذا الخبر هو ثاني خبر يصل إلينا مدونًا في كتابات المسند عن تصدع السد إلى هذا العهد[٢٣].

وكذلك أصلح الملك «شمر يهرعش» هذا السد، كما رممه الملك «شرحبيل يعفر» في سنة «٤٤٩» للميلاد، ولكن المياه جرفت أقسامًا منه سنة «٤٥٠» للميلاد، أي بعد سنة من الترميمات، فاضطر إلى إعادة إصلاحه وتقويته[٢٤].

واستخدم اليمنيون في بناء السد الرصاص والبرونز، وهي نفس التقنية التي استخدمها ذو القرنين في بناء سد يأجوج ومأجوج، وهي إحدى الأدلة على أن ذا القرنين ملك يمني والتقنية يمنية[٢٥].

في بناء السد والحواجز استخدمت حجارة اقتطعت من الصخور، وعولجت بمهارة وحذق حتى توضع بعضها فوق بعض، وتثبت وتتماسك وتكون كأنها قطعة صلدة واحدة. ونحتت الصخور، بحيث صارت تتداخل بعضها في بعض، بأن يدخل رأس من صخرة في فتحة مقابلة لها، فتكون كالمفتاح في القفل، وبذلك تتماسك هذه الصخور وترتبط ارتباطًا وثيقًا، وتكون كأنها صخرة واحدة. وقد وجد أن

بعض الأحجار قد ربطت بعضها ببعض بقطع من قضبان أسطوانية من المعدن المكون من الرصاص والنحاس يبلغ طول الواحد منها حوالى «١٦» سنتميترًا، وقطرها حوالى الثلاثة سنتمترات ونصف، وذلك بصب المعدن في ثقب الحجر، فإذا جمد وصار على شكل «مسمار»، يوضع الحجر المطابق الذي صمم ليكون فوقه في موضعه بإدخال «المسمار» في الثقب المعمول في الجهة السفلى من ذلك الحجر، وبذلك يرتبط الحجران بعضهما ببعض برباط قوي محكم.

وقد اتخذت هذه الطريقة لشد أزر السد، وليكون في إمكانه الوقوف أمام ضغط الماء وخطر وقوع الزلازل. أما المادة التي استعملت في البناء لربط الأحجار بعضها ببعض فهي من أحسن أنواع الجبس Gips، وقد تصلب هذا الجبس الذي طليت به واجهات السد أيضًا حتى صار كأصلب أنواع السمنت[٢٦].

وقد أقام المهندسون أبوابًا لدخول المياه منها وخروجها، كما أنشأوا فتحات لتقسيم المياه وتوزيعها على المجاري والسواقي تفتح وتقفل بحسب حاجة المزارع والأماكن إلى المياه. ولا يزال بعض جدر السد قائمًا، وآثار السواقي والمجاري التي كانت تجري فيها المياه من الحوض باقية، وهي تدل على مهارة مهندسي الري في ذلك العهد، وعلى براعتهم في كيفية الاستفادة من الأرض ومن الطبيعة لخدمة الإنسان.

صُمِّم السد تصميمًا بديعًا وبارعًا لاستيعاب الكثير من المتغيرات والمؤثرات من خلال السيول، مثل الطاقة الاستيعابية للمياه، وكذلك كمية الطمي الذي يمكن أن يصاحب السيول لتستقر في السد.

وعمل السبئيون للسد مصدات تحويلية مدعمة بالمعدن كي تتلقى صدمات السيول الواثبة والساقطة من الجبال فتخفف الصدمة على حائط السد حتى لا يتحطم مع كمية الطمي الكبيرة التي تحملها السيول، كما استبقوه بسدود تحويلية صغيرة على حوافه، وبالقرب سدود أخرى ومنها سد حبابض.

حيث «قدر العلماء الذين عنوا بدراسة الترسبات في باطن السد أن انكسار (العرم) بسبب الترسبات الخشنة ممكن أن يحدث كل قرن مرة واحدة. ومما قد يؤيد مثل هذا الاستنتاج ما رود في النقوش اليمنية القديمة، حيث تذكر تصدع سد مأرب في الفترات المتأخرة ثلاث مرات، وتؤرخ لذلك مباشرة أو بطريقة غير مباشرة بالتقويم الحميري»[٢٧].

ويرى (Bruno) أنه إذا كان سعة سد مأرب الكبير في بداية أمره حوالي ٥٥ مليون متر مكعب، وكان حجم الطمي النازل سنويًّا إلى داخل بحيرة السد حوالي اثنين ونصف مليون متر مكعب، وإذا كان بالتالي متوسط قوة اندفاع السيول في السد لمدة عامين حوالي ٩٥٠ مترًا مكعبًا في الثانية، ومتوسط عشر سنوات ٣٧٥٠ متراً مكعباً في الثانية؛ فإن طاقة أي سد عادي حينئذٍ لا تقدر على استيعاب تلك السيول وطميها وقوة اندفاعها، بل إن جسم أي سد عادي لا يمكن أن يصمد أمامها لفترة أكثر من قرن. ولهذا فإن سد مأرب العظيم قد صُمِّم وشيد بدقة ومتانة وإحكام بحيث يخدم الغرض منه قروناً طويلة، وبحيث لا يتهدم السد ومرافقه جميعها إن انكسر جداره مرة في كل قرن، وإنما يكون الانكسار بمثابة تنفيس لباطن السد الممتلئ بالطمي[٢٨].

دونت النقوش عمليات بناء السد وترميماته المختلفة وإصلاحه بعد انهياراته المتعددة، وذكرت تلك النقوش بعض أسباب وعوامل تهدم السد، ومنها السيول، لكنها لم تشر إلى أية أسباب أخرى من التي رواها الإخباريون كالفأر مثلاً وغير ذلك، وكذلك لم تذكر تواريخها إلا قليلاً لاقترانها ببعض فترات الملوك، ولم تذكر هجرة ولا أسبابها، لكنها تذكر إعادة إصلاحه وترميمه وتستمر الحياة بشكل طبيعي.

باستثناء نقش باسمjamme٦٥١ ذكر أن سيولاً كبيرة كانت تهدد مأرب في زمن الملك "شمر يهرعش"، فأمر قائد الجيش بأن يقوم على رأس قوة كبيرة من

جيش سبأ ومن كبار (همدان) و(آل بتع) بتقوية سور مأرب وتحصينه وحمايته من مداهمة السيول له، وبإنشاء سدود وموانع لمنع الأمواج العاتية من اكتساح مأرب والأماكن الأخرى وذلك بمن جمعهم من الناس من سوادهم وساداتهم للقيام بهذه الأعمال[٢٩]. وهذه إشارة مهمة إلى أن مأرب تظل مهددة بالسيول طوال فترتها، الأمر الذي يدعم القول إن سيل العرم فعلاً كان مسلطاً على مأرب وسدها في مختلف الفترات.

وهذا يذهب بنا بعيداً عن كل تلك التفاسير القائمة على التخرص أو رواة الأخبار بمبالغاتهم وعدم تنقيحهم للمعلومة والبحث عن مصادر موثوقة لها.

وبناء على هذه الدلائل المادية من النقوش؛ فعلى أية حادثة تهدُّم من أحداثه المختلفة يمكن أن نسقط عليها حادثة سيل العرم؟ وهل في كل حادثة تهدم يكون قد حدث سيل عرم فكان يتجدد بتجدد بناء السد، وبين بنائه وتهدُّمه عوامل مطردة؟!

إذا ما أُسقطت الآيات على مأرب وسدها فقط، فإننا من خلال الرؤية المجردة للمكان وبحثه سنلاحظ أنه لا يوجد خراب كبير حتى يضطر السكان للهجرة وانتهاء حضارة سبأ بهذا التهدم، ولا يمكن لليمنيين كلهم ترك بلادهم والهجرة منها إلى العالم بسبب السد؛ لأن الخراب سيكون محصوراً في مأرب فقط، واليمن وإمبراطوريتها كانت مترامية الأطراف، فإذا حصل خراب في مأرب فأين ذهبت بقية المدن وبقية السكان؟!

ومن خلال النقوش التي مرت بنا على ذكر من أقاموا سدوداً مختلفة وترميمات متعددة سنجد أن في مأرب حوالي ستة سدود مختلفة ذكرتها النقوش، ولم يذكر أي من تلك النقوش سد العرم (سد مأرب الكبير) إلا في الفترة المتأخرة بعد الميلاد، وقد كان السد يسمى بسد «رحبم» (رحاب).

فمثلاً: المكرب «سمه علي ينوف» ذكر أنه بنى سد «رحبم» (رحاب)، ولم يحدد مكان هذا السد، ثم جاء من بعده ابنه الملك «يثع أمر بين» وبنى سد

«حبيضم» (حبابض) ولم يعـرف مكانه بالضبط أيضاً، كما قام بتوسيع وترميم سـد «رحـاب»، وجاء مـن بعدهما «كرب إيل وتـر» وذكر أنه أنشأ سـدوداً، ونظم قنـوات للري، ووسَّع بعض السدود ليصل الماء إلى الحرتين اللتين لم يصل إليهما الماء للسقي.

لكن النقش الموسوم بـ Glaser ٥١٤ كان أكثر تخصيصاً للعمل الذي قام به المكرب "سمه علي ينوف" في أنه "ثقب حاجزًا من الحجر، وفتح ثغرة فيه لمرور الميـاه منها إلى سد "رحبم" "رحاب" لتسيل إلـى منطقة "يسرن" (يسران)، وهي منطقـة ورد اسمها في كتابات عديدة، وكانت تغذيها مسايل وقنوات عديدة تأتي بالماء من حوض هذا المسند، وتبتلع ماءها من مسيل "ذنَّة" وهو من المسايل الكبـيرة، فتغذي أرضًا خصبـة"[٣٠]، وهذا يكشف أنه لم يكن أول من بنى السد، فقد جاء على سد قائم وموجود، وإنما رمم بعض أجزائه ووسعه وقام بإصلاحات واستحداثات معينة فيه.

وهنـا تبرز العديد من الأسئلة: أيّ من هـذه السدود هو سد مأرب التاريخي والذي يسمى بسد العرم؟ وأين ذهبت كل تلك السدود التي لم يتبقَ لها أثر اليوم سـوى سد مأرب الكبير؟ أم إنها اندثرت وتهدمت فعلاً بفعل سيل العرم المذكور، أم إن سـد «رحبم» (رحاب) هو نفسه سد مـأرب فذاك اسم تخصيص والأخير نسبة للبلد؟!

الإجابة على هذه الأسئلة ستقودنا إلى تحديد خراب السدود، وتحديد تاريخ وزمـن سيـل العرم، وما شهدته اليمـن من هجرات أولية بطبيعـة الحال وليست هجـرات كبـيرة؛ لأن الحياة في مـأرب استمـرت والمملكة قائمـة والنقوش تدلنا علـى ذلك، إلا أن توجد فجوة تاريخية واكتشافات جديدة تقلب كل الاستنتاجات والمسلمات التاريخية وترتيبات الأحداث التي رتبها المؤرخون حتى اليوم.

وقـد ذُكر اسم السـد في كتابات عدة من أهمها كتابة تشـير إلى تعمير هذا

المكـرب [سمه علـي ينوف] سـد «رحبم» «رحـاب» للسيطرة على ميـاه الأمطار والاستفـادة من السيول. وهو جزء من المشـروع المعروف بـ «سد مأرب» الذي نما على مرور الأيام، وتوسع حتى كمل في زمن «شمر يهرعش» في نهاية القرن الثالث للميلاد، فصارت تستفيد منه مساحة واسعة من الأرض، وقد بقي قائمًا إلى قبيل الإسـلام، وعُـدَّ سقوطه نكبة كبيرة من النكبات التـي أصابت العربية الجنوبية، حتـى ضُرب بسقوطه المثل، فقيل: «تفرقوا أيدي سبأ»؛ ذلك لأن سقوطه أدى إلى تفـرق السبئيين، وإلى هجرتهم من بلادهم التـي ولدوا فيها، وإلى تفرقهم شذرَ مذرَ في البلاد[٣١].

لكـن جواد علـي كان أكثر تحديداً وتخصيصاً للانهيـار الكبير الذي ورد في القـرآن و«أن تلفًا أصابه بعد ذلك فيما بين السنة «٥٤٢ ب. م.» والسنة «٥٧٠ ب. م.»، فلـم يصلح فترك الناس مزارعهم، واضطروا إلى الهجرة منها، وإلى ذلك وردت الإشـارة في القرآن الكـريم»[٣٢] أي قبل إعادة أبرهة الحبشي بناءه، وتمثل هذه الحادثـة قاعدة أساسية اعتمد عليها الإخباريـون في رواياتهم حول التهدم والتهجير.

وهنـا لابـد أن نشـير إلـى أن الآيـات في القـرآن الكـريم خصت أهـل سبأ بهـذا الخـراب، في حين لم تأتِ الأعـوام ٥٤٢ – ٥٧٠ إلا وقد كانـت نهاية الدولة الحميرية –بحسـب بعض التصنيفات والتقسيمات– التـي حكمت اليمن ونقلت العاصمة إلى ظفار يحصب، ومأرب لم تمثل بعدها أي ثقل لا سياسي ولا سكاني، والقـرآن الكـريم أكثر تحديـداً وتخصيصـاً ودقة وهو يذكـر أهل سبـأ، لو أراد الحميريـين لأشار إلـى التبابعة مثلاً، كما أشار إليهم في سـور أخرى من القرآن ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ الدخان[٣٧]. والقـوم الذين عاقبهم الله أهل سبأ لا حمير، خاصـة أن الذيـن طلبوا المباعـدة في الأسفار هـم السبئيون التجـار المشتهرون بالتجارة وليـس الحميريين، وبالتالي فإن السبئيين هـم المخصوصون بالعقوبة،

ولـو خص بسيل العرم السدود فقد كانت السدود منتشرة أكثر في يحصب وأكثر مـن مـكان في اليمن في زمن الحميريين، وإليها تشير الأبيـات المنسوبة إلى التبع أسعد الكامل بقوله:

ورَيْـدَانُ قَصْـري في ظَفَـار ومَـنـزلي ... بـهـا أسَّـس جـدِّي دورَنـا والمنـاهـلا
على الجنَّة الخضراء من أرض يحصب ... ثـمـانونَ سـدًّا تـقـذفُ المـاءَ سائلا
مـآثـرُنـا في الأرضِ تـصـدقُ قولَنـا ... إذا مـا طـلبْـنـا شـاهـدًا أو دلائـلا

كذلك فإن الفترة الحميرية وتاريخها هي من أصدق الفترات اليمنية تاريخاً وترابطاً ووضوحاً في تواريخها وأحداثها، ولم تكن فيها فجوات زمنية وحدثية كما هـو الحال مع سبـأ أو معين أو قتبان وأوسان وحضرمـوت، وأكثر الفترات تدويناً واهتمامـاً بالنقوش، فلو كان حدث السيـل في عهدها لوجدناه مدوناً في نقش من النقوش إلا أن تكون هذه النقوش غير مكتشفة بعد.

غـير أن كثيراً من المؤرخين والباحثـين الآثاريين يقولون لا وجود لمسمى دولة حمير؛ فالدولة هي دولة سبأ تعاقبت عليها بعض الأسر ومنها أسر من الحميريين الريدانيـين، خاصة وأن تسمية سبأ ظلـت حتى الاحتلال الحبشي ومجيء أبرهة وهو آخر من تسمى بملوك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت وأعرابهم في طود وتهامة، وبالتالي فإن نعتهم في القرآن بالسبئيين صحيحة مائة في المائة.

مـا نشاهده من بقايـا سد مأرب اليـوم ليس بما كان عليه مـن البناء الأول المتقـدم لدولـة سبأ، بل هو مـن آخر عملية للبنـاء في عهد أبرهـة؛ لأننا لا نجد تلك المواصفات الأولى لاستخدام بعض المواد في البناء كالرصاص المذاب وغيره، ونظـراً لتهدمه حـوالي سبع مرات فإن مـا بقي من أطلاله هو لآخـر عملية بناء وترميم.

وعلى هذا الأمر فإن النقوش الموجودة اليوم على ما تبقى من آثار السد إنما هـي نقوش قديمة في حجارة أعيـد البناء بها وإضافتها إلـى حائط السد، الأمر

الذي يعني ضيـاع الكثير منها في حوادث السيول المختلفة، وقد تكون مطمورة في الطمـي والأتربة حول السد، وقد يتم الكشـف يوماً ما عن نقوش أخرى للسد من تلك الحجارة المفقودة تقودنا إلى الباني الأول المؤسس للسد.

وهـذا يـؤازره التسمية الجديـدة للسـد (العرم) علـى اعتبار أنهـا تسمية حميرية ولفظ حميري دخيل على سبأ بدليل أن اللفظ (العرم) لم تذكره أيٌّ من النقوش السبئية بعكس النقوش الحميرية التي ثبتت هذه التسمية؛ إذ إن النقوش السبئيـة والمعينية والقتبانيـة كانت تطلق عليه اسم "مأذن" (سد) وليس "ع رم ن" (العرم) الذي ثبته القرآن الكريم.

كانـت تسميـة السد/الحاجـز في القـرن الأول ق.م يسمـى "ك ل و ت ن" (كلوتن) كما في نقش RES- ٣٩١٣[٣٣].

كمـا أطلق الاسـم «ح ر ت» (سد)، ولكن هنا يقصد بـه السد الصغير قليل الارتفاع وهو سد تصريف. وكذلك يسمى «ع ض د م» (سد تحويل).

في عهـد الملـك «شمر يهرعش» في القرن الثالـث الميلادي حصلـت أمطار وسيول جارفة أدت إلى تهدم سور المدينة وقصري همدان وبتع، وأمر الملك «شمر يهرعش» بإعادة أسوار وأبراج سور مدينة سبأ الذي تهدم بفعل السيول الجارفة (ذ ع ب ن).

كذلـك فـإن المسافة الزمنيـة بين آخر تهدم لـه أو بين عمليـة إصلاح له في عهـد السبئيين كان في زمن «يدع إل وتر» قبل الميـلاد، وبين عملية إنشاء وترميم وإصـلاح في العهـد الحميري بعد الميلاد وتحديداً في زمـن الملك «شمر يهرعش» ومـا قام به من إصلاح، تعتبر مسافة زمنية بعيدة يرجح فيها أن سيل العرم كان ما بين هاتين الفترتين.

وهذه تعتبر ثلاث قرائن متتالية قد ترقى إلى مستوى أدلة بأن السيل حصل خلال هذه الفترة، وخرجت بعضـ الهجرات منها لتكوِّن الممالك الأخرى ولتكون

المسافـة الزمنية معقولة خلال القرن الأول قبل الميلاد أو القرن الأول بعد الميلاد لتكوين هذه الممالك؛ إذ لا يعقل أن يتم إنشاء ممالك قوية إلى حد ما (الغساسنة في الشـام والمناذرة في العراق، والأزد في عمان) في الفترة البسيطة قبل الإسلام علـى رأي مـن يقـول إن العرم جاء بعـد إنشاء أبرهـة الحبشي السـد أو في آخر إصلاح له قبل أبرهة في عهد شرح إل يعفر.

هنـاك قرينة رابعة أيضـاً ترقى إلى مستوى الدليـل وهي في نقش (GAM ٦٧١) في عهـد الملكين «ثاران يهنعم» وابنه «ملك كرب يأمن»، ذكر هذا النقش أن الملك «ثاران يهنعم» أمر الجيش والأعراب المناصرين التوجه إلى السد (عرمن) الذي تهدم عند موضع حبابض (ثبرت عرمن بحبيض) وموضع رحبتن (الرحبة) فتداعت جدرانـه ومبانيه وأحواضـه وسدوده الفرعية و«مضرفـن» (مضارفه) وخرب ما مقـداره سبعون (شوحطم) وحمدوا الإله المقه وسبحوه؛ لأنه استجاب لدعائهم فحبـس الأمطار والسيول والأمواج عنهم حتى تم العمل وأقاموا الأسس والجدران والسد[٣٤].

وهنـا في هذه الفترة، وفي هذا النقش، ظهـر أول ذكر لتسمية السد بالعرم، وذكره بلفظ «ع ر م ن» (العرم).

ويظهر من خلال النقش أنهم مازالوا على دين الوثنية قبل أن يؤمنوا بديانة التوحيـد التي آمنوا بها من بعد هذا الملك، من خلال هذا المعتقد بغير الله يمكن أن يكون السيل هذا أيضاً ضمن العقوبة المرسلة عليهم.

ومـن خلال سياق النصـ فإن هذا الخـراب والتهدم لم يكـن بذلك الكبير الـذي يدمر المنطقـة ويهجر أهلهـا ويمزقهم في الأرض، فقـد تم تلافي الخراب وإصلاحـه، لكن ما يستشهد منه على وجه التحديد أن أمر السيول مشكلة مؤرقة لمأرب وللسدود عموماً، وتظل تهديداً قائماً.

ولذلك نجد معظم النقوش في الفترة السبئية المتأخرة، والتي يسميها البعض بالعهد الحميري (بعد الميلاد)، والتي تذكر سد مأرب وسيولها، تتحدث هذه النقوش إما عن خراب السد، أو تقديم نذور وقرابين لحمايته من التلف والضرر، بعكس بعض النقوش القديمة التي لم تذكر إلا تهدم السد وعملية إصلاحه وترميمه، وهي قليلة بالنظر إلى العهود المتأخرة، مما يعزز القول إن سيل العرم المذكور في القرآن إنما كان في العهود المتأخرة لسبأ، ومن دقة القرآن لتقرير واقع الحال أنه ذكرها باسم سبأ ولم تذكر باسم حمير.

فنجد هذا الخراب المتعدد للسد، حتى في إطار حكم الملك الواحد يتعرض السد لعدة انهيارات وإصلاحات، سواء كانت جزئية أم كلية، مما يعكس أهميته الكبرى لدى السبئيين.

ففي عهد الملك «شرح إل يعفر بن أبي كرب أسعد» [أسعد الكامل] تهدم السد مرتين؛ حيث قام بإصلاحه الإصلاح الأول سنة ٥٦٤ح و٥٦٥ح = ٤٤٩م و٤٥٠م، بحسب نص مسندي (GLASER ٥٥٤)، وهو وثيقة تتعلق بسد مأرب الشهير، ذكر فيه هذين الإصلاحين وحجم الإنفاق عليهما، ومقدار المشاركة المجتمعية في البناء، وخارطة توزيع العمل والمشاركة بين القبائل اليمنية[٣٥].

لم يلبث هذا الإصلاح فترة بسيطة،فنقشٌ يذكره بعام واحد، ونقش آخر يذكر بستة أعوام حتى أتى سيل كبير خرَّبه مجدداً، ثم تم الإصلاح الآخر في السنة التي تليها (أيضاً موضح في نفس النقش المسندي)، ما اضطر بعض المزارعين إلى الهجرة وترك المنطقة.

في حين ذُكر، في موضع آخر عند دارسين آخرين وبنقش آخر، أن عملية الإصلاح الثالثة كانت سنة ٤٥٧م، أي بعد سبعة أعوام من التهدم الأول وليس عاماً واحداً، كما يذكره النقش الآخر الذي يرمز إليه بـB.Gar Sharahbil A[٣٦].مما يعني أن عملية انهيار السد وإصلاحه،ففي عهد «شرحبئل» حدثت ثلاثة تهدمات وإصلاحات؛ الأول وقد قام بإصلاحه، والثاني الذي حدث بعد

الإصلاح الأول بعام واحد، والثالث الذي تم إصلاحه بعد سبع سنوات من الحادثة الأولى، خاصة وأن نقشين لـ «شرحبئل يعفر» يذكران العام الأول وسبعة أعوام أخرى، مما يعني أن هذه الحوادث المتعاقبة جعلت هؤلاء القوم ييأسون، وربما ترتبت عليه بعض الهجرات.

ومع كل عملية إصلاح من هذه الإصلاحات يتم إدخال مواد جديدة تكون متينة وداعمة لهذه الإصلاحات وتقوية السد، ومن ذلك ما ذكره النقش السابق لشرحبئل يعفر الذي يرمز إليه بـ CIH٥٤٠ من أنهم طعَّموا الحجارة وشقوق السد بصفائح الحديد وبالقمط (الملازم) المثبتة للجدران، كما دعموا أسفل السد بحجارة أخرى، وأزالوا الطمي والترسبات من أسفل السد[٣٧].

ومن ناحية الشواهد المادية وذكر هذه الهجرة في النص، تعتبر الأقرب إلى رواية الإخباريين بتفرق أيادي سبأ، وحادثة سيل العرم في القرآن، لكن تلك الهجرات كانت بسيطة جداً لبعض المزارعين المقيمين حوالي السد الذين خافوا من تكرار مداهمة السيول لأراضيهم، وكانت الهجرة الداخلية إلى المناطق الجبلية ومنها صنعاء، وهنا بدأ نجم صنعاء في الظهور، لكن على أية حال تظل هي الأقرب إلى واقع الهدم والتهجير ولو بنسبة معينة.

فقد ذكر في النص هجرة بعض المزارعين والقبائل من حول السد، ولكن اقتصر على منطقة الرحبة الذي يسمى السد باسمها، ولم تُذكر أسماء القبائل التي هاجرت، ولو كان النص دوَّن اسم القبائل التي هاجرت لكان سهَّل على المؤرخين والباحثين اليوم كثيراً من تلك المعضلات.

لكن من نواحي أخرى لم تكن بمقدار تلك الهجرة التي تم المبالغة فيها، وأن شعوباً وممالك أخرى نمت وترعرعت بسببها، ولم تكن هجرة خارجية كبيرة، فهي قبل البعثة النبوية بأقل من مائتي عام، إلا أن تكون هجرة أسرية تغلبت على ملك قبائل أخرى بعد فترة من الزمن فصارت تنسب إليها.

الأمـر الآخـر من شواهـد النص اللغويـة والعقائدية الدينيـة لم تذكر لفظ «العـرم»، ولم تصوِّر حجم السيـل إن كان كبيراً أو أقل من كبير، ذلك الذي ترك صـدىً تاريخيـاً حد نزول آيات قرآنيـة توثقه، والذي كان يعتـبر أكبر من زلزال للمنطقة.

فالآيـات القرآنيـة تقـول إن السيـل أرسـل عقوبـة علـى أهـل سبـأ بسبـب الإعراض والكفـر بأنعـم الله، وبسبـب تجـاري وطلـب بعـد الأسفـار ﴿ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَعِدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ... ﴾ سبـأ (٢١٩) أيضاً، في حين النص المسندي يوثق أنهم كانوا على ديانة التوحيد المؤمنة بإله السموات والأرض، ومفتتح النص يذكر هـذا الأمر بالقول: «بنصر ورداء إلهن بعل سمـين وأرضن...»، أي: بنصر وعون إله السموات والأرض تم هذا العمل!

الملاحـظ في النقش الأول ((CIH ٥٥٤لشرحبئل أنه لم يذكر إله السموات، وكان فيـه نقصـ....، ولا أية آلهـة أخرى، في حين ذكر النقـش الأخير (B.Gar Sharahbil A) إله السموات والأرض، وهذا يعني تحولاً عقائدياً في عهده.

لكـن يبقى هذا النصـ، وهذا الحدث، هو أقرب الشواهـد والدلائل للحدث وللواقـع الجديد بعده مـن هجرة وغـيره، باستثناء معارضة الآيـات في الجانب العقائدي، والترحال أيضاً (باعد بين أسفارنا)، وهذا يدعم ما أشرنا إليه سابقاً أن الإعراض والكفر لم يكونا كفراً عقائدياً دينيـاً، بل كفر النعمة والبطر وعدم الشكر.

لكن في كل الأحوال استمرت مأرب في الزراعة، واستمرت واحدة من العواصم السياسيـة للدولة، ولم يتم هجرها هجراً كاملاً، واستمرت كذلك عمليات إعادة بنـاء السد وإصلاحاته وترميماته، كما تقول الشواهد النصية للنقوش المسندية، وبعدهـا كان الإصلاح الأخـير لأبرهة الحبشي وتهدمه بعـد ذلك التهدم الأخير أيضاً.

ونجـد أن بين عمليـة الإصلاح الأخـيرة (الثالثة) في عهد الملـك «شرحبئل يعفـر» وبـين إصـلاح أبرهة قرابـة مائة عـام، إذ كان الإصـلاح الأخير في عهد شرحبئـل عام ٤٥٧م، وفي عهد أبرهة ٥٤٣م، بمعنـى أن التهدم الرابع للسد كان بعد شرحبئل مما اضطر أبرهة الحبشي لإعادة بنائه، وكان هو البناء الأخير.

خلال هذه الفترة حصلت صراعات داخلية وضعف داخل الدولة السبئية، فكان الاحتلال الحبشي الثالث لليمن، وهي قرينة تساند الآيات ﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾.

مـن يزر أرض السد ومجرى السيل منه لا يجد آثـاراً لخراب كبير يمكن له تهجـير كافة السكان مـن مأرب، فما وجدنـاه عبارة عن قنـاة (سائلة) بسيطة انسيابيـة للماء حتى يصل وجهته، وقد كانت مدن وقرى مأرب تقع على هضابها المرتفعة قليلاً عن مستوى سطح الأرض، لا تصل إليها مياه السد بالخراب، وخير شاهـد علـى ذلك عاصمة المدينة القديمة التي كانـت في أجمة مرتفعة قليلاً عن سطح الأرض.

ثـم إن السد لم يكن كافياً لسقيا جنتين لحضارة ممتدة طولاً وعرضاً ولو في مأرب وحدها كحقول زراعية مترامية الأطراف؛ فلقد كان السد أقل حجماً بكثير ممـا هو عليه اليوم، وأراضي مـأرب الزراعية لم تكن هي المعروفة اليوم، بل إنها على امتداد المنطقة كلهـا، وقد غطتها الرمال بفعل التصحر الزاحف عليها؛ أي أن هنـاك عوامل ريٍّ أخرى غير السد. فالسد الـذي كان مبنياً بالمواصفات التي وردت في نقش أبرهة الحبشـي بارتفاع واحد وأربعين ذراعـاً، وطول ٤٥ ذراعاً، وعرض أربعة عشر ذراعاً، كمـا قدر أنه يسقـي ٩٦٠٠ هكتار. وعلى المجمل فقد «كان سعة السد المائية تقدر «بحوالي ٥٥ مليون متر مكعب»[٣٨].

في اعتقادي أن السيل لم يكن مقتصراً على مأرب فقط، وإن كان هو الأبرز، بـل كان في عموم اليمن، وربما في وقت واحد بسبب دخول اليمن بما يسمى اليوم منخفضاً جوياً داهم معظم الأراضي اليمنية بحيث خربت معظم زراعة اليمنيين،

خاصــة وأن اليمنيين يعتمدون على سيــول الأمطار وجريان الأودية لري زراعتهم كما هو حال أودية تهامة وأبين وتعز وغيرها، وما بين فترة زمنية وأخرى تتعرض كثـير من الأودية اليمنية لسيول جارفة تخرب معها الكثير من المزارع، وهو أشبه بطوفان نوح الذي عمَّ الأرض، وهذا باعتقادي عمَّ اليمن كلها.

تسمية العرم:

بإلقاء نظرة جوية على جبلي السد عن يمين وشمال سنجد أنه أشبه بحاجب وسد جبلي طبيعي منتهى سلسلة الجبال الغربية والشمالية الغربية وبداية السهل والصحراء، جعلت وسطها ثغرة بشكل ميزاب إذا سُدت كونت بحيرة طبيعية.

هــذا الحاجــب الحاجز من خلال صفتــه، فهو يشبه «العُــرم»، وربما جاءت التسميــة من هــذه الصفة المكانية والجغرافية.ففي اللغــة اليمنية القديمة والتي مــا زالت محكية إلى اليوم فإن كثيراً مــن اليمنيين يسمي حاجب العين «عُرماً».. (تنظر الصورة رقم١).

وكثـيرة هي المناطق في اليمن التي تسمى «العُــرْم» من مناطق جبلية، ومنها منطقة العرم بين شبوة وأبين مثلاً.

وغالباً تطلــق التسميات عند اليمنيين على الأماكن من خلال صفاتها وواقع حالها.

«ويقــال للسد (عرمن) في العربيات الجنوبيــة، أي: العرم، فلفظة (العرم) تعني السد عند اليمانيين القدماء، ولم تكن علماً على سد معين، أعني سد مأرب. وقد وردت في القرآن الكريم في قوله تعالى:﴿ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ ﴾» (٣٩).

وهنــاك عدة تفسيرات لمسمى «العــرم» في القرآن، فمن قائل أنه لفظ يماني يطلــق على السيل الكبير، ومن قائل بأنــه الحاجب وهو السد، ومن قائل هو اسم السد، ومن قائل إنه اسم المنطقة والجبل القائم عليها السد.

ونجد في لسان العرب لابن منظور أن للفظ عدة معانٍ وأوصاف كلها تنطبق على حال سد مأرب، فهو يعني السد، ويعني الحاجز، ويعني الوادي، واسم من أسماء الجرذ، وهو المسناة (ثغرة جبل، ثغرة الشيء)، والشديد، والكثير، والسيل، والمُزارِع ...إلخ. وأنشد بن بري للجعدي:

من سبأ الحاضرين مأرب إذ يبنون من دون سيله العرما[٤٠]

ويبدو تعاضد كل هذه الألفاظ التعريفية لمكان واحد هو الذي غلب رواية أن سيل العرم تم إسقاطه على السد.

فالنقوش السبئية تسمي السيل الجارف«ذ ع ب ن»، كما في نقش(JA٧٣٥) الذي يؤرخ بسنة تبع «كرب بن ودد إل بن كبر»، ويتحدث عن أمطار غزيرة وسيول جارفة في مأرب[٤١]، ويعود للقرن الثالث الميلادي في عهد الملك «نشأ كرب يأمن يهرجب».

من خلال التاريخ القديم لإنشاء السد، كما دونته النقوش، لم تذكر نقوش ما قبل الميلاد اسم «العرم» على السد، وإنما ظهرت التسمية بنقوش ما بعد الميلاد، مثل نقش (GAM٦٧١) أو نقش أبرهة الحبشي فقط.

يقول نقش GAM: "بكن/ ثبرت/ عرمن" أي: عندما تصدع العرم (السد). والنقش -في مجمله- يتحدث عن عملية إصلاح سد مأرب في عهد الملكين "ثأران يهنعم" وابنه "ملكي كرب يهأمن" في منتصف القرن الرابع الميلادي..والعرم والعريم هو الحاجز في لهجة أهل اليمن اليوم[٤٢].

لم نجد هذه التسمية (العرم) في النقوش السبئية الأولى، لكننا وجدناها في النقوش السبئية المتأخرة، والتي تسمى بالفترة الحميرية، مما يعني أن لفظ «العرم» حميري مستحدث، وسمي السد باسمه لاحقاً في الفترة الحميرية، وهذه إشارة هامة على أن سيل العرم حدث في الفترة الحميرية المتأخرة.

بـدأت تسمية السد بالعـرم مع بداية القرن الرابع الميـلادي في عهد الملكين «ثـاران يهنعـم» وابنه «ملـك كرب يهأمـن»، ورد ذلك في نقش الملكـين السابقين والمرمـوز لـه بـ(JA ٦٧١ =MaMB ٢٩٤)[٤٣]، ثـم بعد ذلك تكـررت التسمية في نقش «شرحبئـل يعفـر» وما بعد ذلك مـن النقوش إلى العهـد الأخير لأبرهة الحبشي.

كمـا إن تسميـة «العرم» ليست عامة على كل سد مـن سدود اليمن المختلفة، وإنمـا اسـم خاص بسد مـأرب، والـذي كان قبل الميـلاد يسمى سـد «ر ح ب م» (رحـاب)، وهذه دلالة أخرى على أن السيل فعلاً كان مسلطاً على سد مأرب دون غيره من السدود، وهو المهدد دائماً بالانهيار جراء السيول المتدفقة.

وقـد جاء في نقش أبرهة الحبشي، الذي جدد فيه بنـاء السد سنة ٦٥٨ح= ٥٤٣م اسمـه (عرن) وليس عرم، ومعلوم عملية إبدال الحروف في لهجات اليمن بين الميم والنون، فيسمى أحيانًا «عرم» وأخرى «عرن»، أو أنه قد سقط حرف الميم عن الناقل أو انمحى أثره، ويعني (ع ر م ن) كما هو الاسم في نقش GAM٧٦١.

مع أن "العرن" يقصد به أحياناً (الحصن)، كما جاء في نقش RES ٢٦٣٣ وCIH ٦٢١الذي يتحدث عن ترميم "ع ر ن/ مو ي ت" (حصن ماوية) في شوبة قديما، والذي يسمى اليوم بئر علي[٤٤].

وأيـا تكن التفسيرات لهـذا اللفظ، ولو افترضنا أيضـاً صحة إسقاطها على السد والسيل معاً، فإننا لا نستطيع تجاوز وتغافل الأدلة المادية على أن السد تهدم بالسيـل لحوالي ٦ مرات أو تزيد، وأن الخراب كان محدوداً للغاية، وبقيت البلاد عامرة بأهلها ولم يهاجروا بشكل كلي.

وكمـا هو الحـال والوضـع والتساؤل الذي يتكـرر في كل مـرة: لم تذكر تلك النقوش هجـرات كبـيرة، وعلـى أي عهد منها يمكـن أن نسقط تلـك الهجرات والسيل المخصص في القرآن؟!

فهل في كل سيل من تلك السيول التي هدمت السد يمكننا أن نطلق عليه نفس التسمية (العرم)؟!

لتحليل اللفظ الوارد في القرآن الكريم فإن اللفظ «سيل» كان نكرة، لكن بإضافته إلى معرفة وهو (العرم) يصير معرفة لا نكرة، و«العرم» هنا اسم معرف أيضاً للسد لا صفة للسيل، بل إن السيل هو المضاف لهذا «العلم»، وبالتالي فإن «العرم» هو اسم للمكان الذي انطلق منه السيل أو الذي جرفه السيل مثلاً.

وإذا كان الاسم معرفاً فإنه يكون مقصوراً وأكثر تمييزاً وتحديداً للأشياء وعلى استعمال اسم بعينه، بعكس التنكير الذي يكون مبهماً ومفتوحاً على كثير من التأويلات والاستعمالات.

قصة الفأر/الجرذ:

راجت عند الإخباريين قصة خرافية كانت العامل الأهم في تهدم سد مأرب، وهي قصة الفأر أو الجرذ الذي نحت حجارة السد لينخره من الداخل ليسهل على السيل بعد ذلك تحطيم السد وجرفه.

فلا يكاد يذكر سد مأرب عند الإخباريين إلا وذكر معه الفأر (السبب)، وقصة التنجيم الحاصلة في تهدم السد.

فقد جاءت في تفسير ابن كثير مثلاً قصص كثيرة ملخصها: «وذكر غير واحد ومنهم ابن عباس ووهب بن منبه وقتادة والضحاك أن الله -عز وجل- لما أراد عقوبتهم بإرسال العرم عليهم بعث على السد دابة من الأرض، يقال لها «الجرذ» نقبته، قال وهب بن منبه: وقد كانوا يجدون في كتبهم أن سبب خراب

هذا السد هو الجرذ، فكانوا يرصدون عنده السنانير برهةً من الزمان، فلما جاء القَدر غلبت الفأرُ السنانير، وولجت إلى السد فنقبته، فانهار عليهم»[٤٥].

ومضى أكثر الإخباريين في مثل هذه القصة التي وردت عندهم كابن إسحاق وابن الأثير وغيرهما، حتى صارت مصادر يستقي منها كلُّ باحث مقلد غير حصيف، وتُردد في أبحاث اليوم، وتغرق بها وسائل الإعلام المرئية والمقروءة والمسموعة.

فمن ذلك مثلاً ما ذكره البلاذري: «ثم إن من كان باليمن من ولد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بغوا وطغوا وكفروا نعمة ربهم فيما آتاهم من الخصب ورفاهة العيش، فخلق الله جرذاناً جعلت تنقب سداً كان لهم بين جبلين فيه أنابيب يفتحونها إذا شاؤوا فيأتيهم الماء منها على قدر حاجتهم وإرادتهم. والسد العرم فلم تزل تلك الجرذان تعمل في ذلك العرم حتى خرقته، فأغرق الله تعالى جناتهم وذهب بأشجارهم، وأبدلهم خمطًا وأثلاً وشيئاً من سدر قليل!»[٤٦].

وورد في مروج الذهب للمسعودي كذلك: «ولا خلاف بين ذوي الدراية منهم، أن العرم هو المسناة التي قد أحكموا عملها لتكون حاجزاً بين ضياعهم وبين السيل ففجرته فأرة، ليكون ذلك أظهر في الأعجوبة...»[٤٧].

فتعالوا نفند هذه القصة عقلاً ومنطقاً وواقعاً.

ومما جاء عند هؤلاء في مواصفات الجرذ/الفأر أنه بمقدار الخنزير البري يقلب الصخرة الكبيرة التي لا يستطيع قلبها عشرة رجال. وذكرت قصة الكاهنة طريفة مع عمرو مزيقياء، ومما قالته لهم: «انطلقوا إلى رأس الوادي وسترون الجُرَّذ العادي يجر كل صخرة صيخاد، بأنياب حداد، وأظفار شداد. فانطلق عمران في نفر من قومه حتى أشرفوا على السد، فإذا هم بجرذان حمر يحفرن السد الذي يليها بأنيابها، فتقتلع الحجر الذي لا يستقله مائة رجل، ثم تدفعه

بمخاليب رجليها حتى يسد به الوادي مما يلي البحر ويفتح مما يلي السد، فلما نظروا ذلك علموا أنها صدقت...إلخ!»[٤٨].

لا تستطيع الجرذان نحت الصخور الصلبة؛ إذ لا تمتلك الوسيلة لذلك أصلاً، فأسنانها لا تؤهلها لذلك النحت، ولن تكون أقوى صلابة من الصخر، في حين هؤلاء جعلوا لها أنياباً من حديد، وأظفاراً صلبة!!

حتى لو تم مجاراتهم بوسائلها تلك، فإن أنيابها وأظفارها تكون صغيرة جداً بالقياس إلى جرذ أو فأر، لنفترض حتى أنه قدر الخنزير فإن الصخر الكبير ذاك لا تقتلعه إلا الزبر الصلبة، ولم يعرف في الأرض منذ أن خلقها الله مواصفات حيوان بهذه الصلابة والحدة والشدة على صغره!

ولم يُسلِّم الكثير من المؤلفين والباحثين العرب بهذه الروايات التي اعتبروها خرافية وبعيدة عن الحقائق والواقع. وقد جاء في كتاب المعجم الجامع..، أنه «أوردت عدد من كتب التفسير والتاريخ قصصاً وحكايات حول كيفية انهيار السد وبداية السيل، ومن هو أول من تنبأ به وكيف بدأت هجرة القبائل من اليمن بعد أن عاشوا في رغد من العيش. ويروى أن الله تعالى أرسل إليهم عدداً من الرسل والأنبياء أوصلهم البعض إلى ١٢ ألف نبي يدعونهم إلى الإسلام. وتورد هذه المصادر قصة الفأر ذي المخالب الحديدية الذي حفر صخور السد وتمكن من قلب حجارته الضخمة، إلى غير ذلك من القصص الخرافية التي تبعد عن الحقيقة والواقع التاريخي والآثاري»[٤٩].

وللأسف الشديد فإن بعض المؤرخين اليمنيين المقلدين للإخباريين القدماء، وكذلك الإعلاميين اليوم، ما زالوا يرددون أساطيرهم تلك في رواياتهم وكتبهم، ووسائل الإعلام المختلفة تشويهًا لتاريخهم وتسليماً بأساطير مفتراة، ومن ذلك مثلاً ما نسب لعمارة الحكمي من أبيات يقول فيها:

إذا لم يسالمك الزمانُ فحاربِ وباعِد إذا لم تنتفعْ بالأقاربِ
ولا تحتقر كيدَ الضَّعيف فربما تموت الأفاعي من سموم العقاربِ
فقد هدم عرشَ بلقيس هدهدٌ وخرَّب فأر قبل ذا سدّ مأربِ[٥٠]

ونجد أن المؤرخ جواد علي، كمؤرخ حصيف، لم يتطرق حتى إلى رواية الإخباريين في قصة الفأر، لا من قريب ولا من بعيد، ويبدو أنه تجاهلها عن عمد، مع أنه كان يفند آراءهم الأخرى بشأن الأساطير التاريخية.

فعوامل اندفاع السيول وتقادم أبنية السدود هي التي تهدم السدود لا شيء آخر، مهما ألفت الأساطير والقصص حول ذلك.

وبحسب المهندسين المعماريين اليوم فإنهم يتجنبون إنشاء السدود والحواجز المائية عند مساقط الجبال المرتفعة؛ لأن اندفاعات السيول تكون أكبر، فلا يصمد سدٌّ مهما كانت صلابته وقوته أمام هذه المساقط واندفاعة السيول.

وقد كان سد مأرب حاجزاً عند أهم ثغرة ومسناة/ميزاب لسلاسل متعددة من الجبال التي تتجمع سيولها في وادي أذنة، فتمر من تلك الثغرة/الميزاب من مكان السد، حيث تأتي هذه السيول من صنعاء وخولان وذمار وجهران ورداع وغيرها من المناطق، فتتجمع من كل شرايين وميازيب تلك المناطق والجبال، وتصل إلى حيث السد، مما يعني اندفاعة شديدة لسيول ضخمة جاءت في توقيت واحد طمت كل منطقة السد بما فيها السد، فهدمته، ولا تحتاج لفتح ثغرة وسط حائط السد.

وخلال هذه السيول تتجمع ملايين الأطنان من الطمي التي تحمله السيول، فتزيد من قوة السيل في اصطدام الجدار.

هذا الطمي لابد وأن السبئيين قد وضعوه في الاعتبار أثناء التشييد، لذلك «أقام السبئيون القدماء سد مأرب لاحتواء تلك السيول للسيطرة عليها مع ما

تحمله من طمي وأحجار وأشجار، ثم ليصمد أمام قوة اندفاعها دون أن يتصدع، مؤدياً الغرض من إقامته، وهو تحويل السيول إلى قنوات الري التي تسقي الحقول على جانبي وادي أذنة أطول فترة ممكنة. ولا ريب أنهم كانوا يدركون أن ذلك يقتضي تشييد سد قوي ومحكم يفوق طاقته إمكانات سدٍّ عادي»[٥١].

عن يمين وشمال:

ما المقصود عن يمين وشمال؟ هل عن يمين السد وشماله أم عن يمين اليمن كلها وشمالها؟ أم عن يمين البحر الأحمر وشماله على اعتبار التمدد الجغرافي لمملكة سبأ إلى أفريقيا؟

تكاد تجمع كل الروايات التي تحدثت عن حادثة السيل، وكما وردت في القرآن الكريم على أنها في مأرب؛ عن يمين وشمال السد لا في مكان آخر. وهذا وارد في سياق الآيات القرآنية المتحدثة عن الجنتين والسيل.

مع أنه قد لا يكون المقصود بها جنتين عن يمين السد وشماله بالمعنى الحرفي، فمن ينظر لمنطقة السد عبر الخرائط والإسقاطات الجوية باستعمال تقنية "جوجل إرث" مثلاً سيجد أن يمين السد وشماله عبارة عن سلاسل جبلية بركانية نارية على هيئة حِرار لا تزرع، وبعضها رملية صحراوية، ولم تكن أراضي زراعية منبسطة، فالأراضي الزراعية الخصبة لم تكن إلا ما دون السد شمالاً، وقد يكون المقصود بذكر الاتجاهات بالقرآن معناه التعدد والكثرة في كل الأراضي اليمنية، كما في ألفاظ أخرى (ذات اليمين وذات الشمال) مثلاً.

حتى النقوش المختلفة التي ذكرت السد والسيول والأراضي لم تكن تصفها بذلك الوصف المبهر في القرآن الكريم (جنتين)، أو كما عند المفسرين والإخباريين، وإنما كانت تتحدث عن أراضٍ زراعية تسقى من السد، وتظل مهددة بالسيول.

كمـا إن الأراضـي الزراعية خلف السد في ذات الـوادي ليست بالكبيرة التي يمكـن وصفهـا بـ(الآية)، مع أن الجنـة قد تكون صغيرة كمـا في آيات أخرى من القرآن، كما في سورة الكهف أو سورة القلم أو سورة البقرة: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢﴾ الكهف (٣٢)، لكن هاتـين الجنتين المذكورتين في سورة «سبأ» علاوة على وصفهما بالجنتين فقد زاد مـن وصفهمـا وإيضاحهما بأنهما (آيـة) وبلدة طيبة. فمعظـم الأراضي اليمنية في أوديتهـا المختلفـة هي جنـان متعددة وتـزرع أفضل أنواع الفواكـه والمحاصيل الزراعية المختلفة، وأيـاً اتجهت منها ستجدها جناناً عن اليمين وعن الشمال في الوديان أيضاً.

غـير أن المقصود بالجنة هنا هـو البستان الذي يحوي كل أنـواع الثمار، ولا توصـف الأرض الزراعية المقتصرة على نـوع أو نوعين من الزراعة بالجنة إلا أن تكون شاملة لكل أنواع الفواكه.

مـن خـلال الإسقاطـات الجويـة لجغرافية سبـأ الممتدة حتـى الحبشة من أفريقيـا، نجـد أن كل هـذه الأراضي يفصلهـا أخدود البحر الأحمـر ويشطرها إلى نصفين، وبالتـالي قد يكون المقصود بيمين وشمال هما يمين البحر وشماله، وكلاهمـا تزرع أنواع الثمـار، ومظهرها يكون أثناء الزراعـة خلاباً يمكن أن يتم وصفهمـا بجنتين عن يمين وشمال، وبعد الإعراض عـن شكر النعمة تم التمزيق والمباعدة بين شعوب الدولة المختلفة وصارت عملية التمزيق المختلفة.

لكن النقوش اليمنية وهي تتحدث عن السد وأحداثه تعتبر من الزمن المتأخر الذي صارت فيه الحبشة (أكسوم) دولة قوية ومستقلة بعيدة عن النفوذ السبئي، وهـذا يجعل من مجرد التفكير في أمـر سبأ والبحر الأحمـر والحبشة شيئاً غير منطقي.

هجرة اليمنيين بعد السد:

بعـد كل تلك الأحداث التي رويت في كتـب الإخباريين عن سيل العرم وتهدم السد وتفرق اليمنيين؛ راجت مقولة عن التفرق وصارت مضرب المثل بين العرب، وهـي مقولة «تفرقت أيدي سبـأ»، أي:خرجوا من اليمن متفرقين في البلاد، فقيل لكل جماعة تفرقت «ذهبوا أيدي سبأ»[٥٢].

من خلال الواقع الميداني للزائر لمنطقة السد وما حولها لا نجد خراباً كبيراً بحيـث يهجِّر هذا الخرابُ اليمنيين من موطنهم، فالخراب محدود جداً، ويمكن إصلاحـه من قبل البسطاء؛ لأن مجرى السيل كان صغيراً، وهو عبارة عن جدول كبـير، وبقيت معظـم الأراضي حول الجدول صالحة إلى اليـوم؛ لأن السد تأثيره محدود فيما حوله فقط،وبالتالي بقيت معظم أراضي مأرب صالحة للزراعة، ولم يصبها الأذى، وهي تلك البعيدة عن السد ومجرى سيوله.

ولنفترضـ أن خراب السيل فعلاً كان للسد، فإن الأراضي المخربة قليلة جداً حـول السـد في وادٍ بسيط ومحـدود لم يطَل خرابه الأرض كلهـا، وهذا ما يتضح للزائـر على الأرض، ومعظم مأرب بقيـت صالحة على حالها، إلا أن يكون لحقها جدب فترة من الزمن جعلها بيئة غير صالحة للإقامة وطاردة لأهلها السكان.

لكـن تعالوا بنا إلـى ناحية أخرى من خلال النقوش المتعاقبة؛ إذ لم يدوِّن أيٌّ من النقوش هجـرة لليمنيين ورحيلاً كبيراً ولا جدباً ولا آفات أو هلاكًا، باستثناء نقش «شرحبئـل يعفر» الذي يحمل رمـز (GLASER – ٥٥٤ وCIH ٥٤٠)، فقد بـيَّن بعض الهجـرات البسيطـة، والأمراضـ والموت الـذي خلفه التهـدم الثاني للسـد في عهـد شرحبئل يعفـر سنـة ٥٦٤ح و٥٦٥ح = ٤٤٩م و٤٥٠م، لكن تعاقب النقوشـ في مأرب كلهـا وما حولها، وتدوين مختلف الأحـداث يدل على استقرار تـام للسبئيين والمعينيـين والحميريين الساكنين تلك الأراضـي، إلا من صراعات سياسية وعسكرية، وهذا سيكون واحداً من أسباب الهجرات.

كل سلسلة المكاربة والملوك التي وضعها المؤرخون والباحثون الآثاريون من خلال سلسلة النقوش المستفيضة في مأرب لم تذكر هجرة ورحيلاً لليمنيين منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد وحتى القرن السادس الميلادي، الذي شهد هجرات متعددة بفعل تحولات الأحداث في الجزيرة العربية والتحاق اليمنيين بالإسلام وبالعاصمة الإسلامية المدينة المنورة، والتفرق بعد ذلك في جيوش الفاتحين للأمصار والاستقرار فيها.

وكذلك لم تذكر كل تلك السلسلة أن انقطع الحكم والملوك عن الممالك اليمنية المختلفة من معينية وسبئية وقتبانية وحضرمية باستثناء انقطاع أوسان لمداهمتها من قبل سبأ، أو معين أثناء الانقلاب السبئي عليها ودخولها ضمن مملكة سبأ والانصهار فيها.

وهنا إما أن يكون الرحيل والهجرة الخارجية بشكل قبلي وأسري، بدليل أن الشعوب التي نشأت في شمال الجزيرة العربية وشرقها وبلاد الشام والعراق وعمان كانت على أساس من الوحدة المجتمعية الأسرية والقبلية من غساسنة ومناذرة وأزد أو يثرب من أوس وخزرج وغيرها، أو أن الهجرة كانت في الألفية الثانية قبل الميلاد، وهناك احتمال ثالث وارد هنا وهو نظراً للفجوات التاريخية اليمنية في التدوين، فقد تكون وقعت الهجرة فعلاً في أواخر الألفية الأولى قبل الميلاد، وما تزال طي الكتمان والاندثار، قد تظهر من خلال نقوش مدونة في اكتشافات لاحقة.

كانت هجرة الأوسانيين، وبعد ذلك بزمن القتبانيين، على أساس من تكوين سياسي، وكانت هجرتهم بفعل الصراع السياسي والتهجير التي قام بها «كرب إيل وتر»، وبشكل جماعي نحو الحبشة والقرن الأفريقي، وتشتتهم وسط الجزيرة، ومحلياً داخل الوطن الأم.

وحتى الأوسانيون الذين تم تهجيرهم في القرن السابع ق.م إلى أفريقيا

إنما رحلوا إليها ليلحقـوا بأهلهم اليمنيين هناك، المتواجدين من قبل، فالنقوش السبئيـة في الحبشـة تعود إلى القـرن العاشر ق.م، مما يدل علـى أن سبأ كانت مزدهـرة قبـل تلك القرون، تمدد حكمهـا إلى أثيوبيا وموزمبيـق وزيمباوي، كما تقـول النقوش السبئية هناك، وما ذكره المؤرخـون أن تاريخ سبأ يعود إلى القرن الثامـن أو العاشـر قبـل الميلاد، كما يذكـر فيلبي وجلازر وجـام وريكمنسورودو كناكـس وهومـل ومن بعدهم جواد علـي، إنما حكموا على ذلـك من خلال أقدم النقوش في عهدهم قبل الاكتشافات الأخيرة التي وصلت إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد؛ أي الضعف من الفترة التي تحدثوا عنها عن تكوين سبأ.

وتفسـير هذا الأمر يعود مـن ناحية للاكتشافات المتأخـرة، وكذلك يبدو أن سبـأ في القرن الثامن وما بعده وصولاً إلى الحملـة الكبرى لكرب إيل وتار، الذي باعتقـاد المؤرخين أنه أول مـن تسمى باسم «ملك» وقبله كانـوا يسمون «مكاربة» «مكـرب»، إنمـا كان في عهـده الانتعاش الثـاني للدولة السبئيـة وتجديد عهدها وفتوتها بعد ضعف وانحسار.

بطبيعـة الحال،فالمتأمـل والباحـث في أمـر الهجـرة فإنها قد تمـت بشكل هجرتـين: خارجية وداخليـة؛ الخارجية كانت إلى الشـام والعراق وعمان ووسط الجزيرة (الحجاز ونجد)، وكذلك إلى أفريقيا الحبشة والقرن الأفريقي أو حتى إلـى أطراف شمال أفريقيا، حيث البربر ولغتهم الأمازيغية وخطهم المسندي من أكبر الدلائل التي لا تخفى على الباحثين.

أمـا الهجرات الداخلية فقـد حدثت هجرات إلى المعافـر (تعز وإب ولحج) وصنعـاء وتهامة؛ إذ إن تكوين كثير مـن القبائل والأسر في تلك المناطق يعود إلى أصول سبئية ومعينية وأوسانية وحضرمية أيضاً.

تذكـر الكثير من الكتب التاريخية عند الإخباريين، ومنها كتاب السيرة لابن إسحـاق أن الملك «أب كرب أسعد» قام بمحاربة سكان يثرب من الأوس والخزرج

واليهـود، ولم ينتصـر عليهم، وتراجع عن محاربتهم بفعـل نصائح أحبار اليهود هناك أن المنطقة ستكون هجرة النبي العربي من قريش، وعاد وعظَّم يثرب حتى أنه دخل في الدين اليهودي[٥٣].

وعليـه فإن الأوس والخزرج هاجروا من قبل تهـدم سد مأرب لثلاث مرات، كون السد انهار ثلاث مرات بعد أب كرب أسعد، وذلك رداً لمن يقول إن الهجرات كانت عقب تهدم السد في عهد الملك شرحبئل سنة ٤٥٠م.

مـن خلال بعض العوامل الطبيعية من الجدب والجفاف الذي أصاب مأرب لمـدة ثلاثة مواسم؛ أي ثلاث سنوات متتاليات، مما تسبب بموت الأراضي زراعياً وجفـاف الحقول وجفاف الآبار، يمكـن أن نستنتج وجود هجرات لهذه الأسباب، خاصـة وهي من أكثر العوامل التـي تجعل السكان يتركـون أراضيهم ويهاجرون بحثاً عن لقمة العيش والماء والمرعى والزراعة.

فقـد ذكر هذه العوامـل النقش المرموز بـJA ٧٣٥والمـؤرخ بسنة تبع كرب بن ودد إل بن كبر خليل التاسعة[٥٤]، وذلك في بداية القرن الثالث الميلادي، وتحديداً في عهـد الملك شمـر يهرعش، الذي صاحب تبع كرب بـن ودد إل كبير الكهنة في معبد أوام.

صحيـح أن النقش لم يذكر الهجرات، لكن العوامـل الطبيعية والحتمية من هـذا الجفاف واستمراره لثلاثة مواسـم يعني هجرة مؤكدة، وهذا ما نعرفه عبر التاريخ لكثير من الدول والأحداث المشابهة.

التمزيق والقرآن:

ذكرنا أن النقوش على اختلافها لم تذكر تهجير اليمنيين بعد حوادث انهيار السـد؛ لأنـه لم يكـن مقوم معيشتهـم الوحيد، مـع أن مثل ذلك الصـدى الكبير الـذي أحدثته انهيارات السد المختلفة لم يـدوَّن إلا في القرآن الكريم، وعليه سار الإخباريون في كتبهم.

مرجع ذلك إلى سبب مهم، وهو أنه حتى الآن ربما لم تكشف كل النقوش حول السد ومأرب وسبأ، وربما ظهرت نقوش أخرى تدوِّن هذه الأحداث أو الهجرات، وخاصة إذا ما تم الحفر والتنقيب في مجرى السيول أسفل السد للكشف عن هذه النقوش.

ومن خلال النقوش والأبحاث التاريخية المختلفة على كثرتها، ودراسة مختلف الفترات التي تلت حوادث انهيارات السد، وخاصة منذ القرن الثالث الميلادي وحتى القرن السادس، فقد دخلت البلاد في اضطرابات سياسية مختلفة؛ حروب بين سبأ وحمير، وبين حمير وحضرموت، وسبأ وقتبان، وقتبان وحمير، وهكذا دواليك.

لكن أهم تلك الصراعات التي كانت تجري بين تلك الممالك واستعانتها بالأحباش ومملكة أكسوم في محاولة التغلب كل طرف على الآخر، حتى استغل الأحباش تلك الصراعات وبدأوا احتلالهم التدريجي لليمن، والذي بدأ من القرن الثاني الميلادي وصولاً للاحتلال العام والكبير في القرن السادس الميلادي.

هذه الصراعات والتمزقات اشتدت منذ القرن الثالث الميلادي صعوداً إلى إنهاء الدولة على يد الأحباش في القرن السادس حوالي ٥٤٥م، ويمكن أن تكون العقوبة الأخرى إلى جانب انهيارات السد المختلفة، وبعدها لم تقم لليمن قائمة، وهي تدعم الوصف الوارد في القرآن الكريم من حالة الشتات والتمزق، وهي قرينة وربما من بعض الدلائل غير القاطعة أن سيل العرم والانهيار الكبير حدث خلال القرون الثلاثة الأخيرة.

كما إن الصراعات عادة تخلف المآسي المختلفة التي ينتج عنها التهجير للمهزوم أو المعتدى عليه، وهذا يعتبر دافعاً من دوافع الهجرة، سواء كانت الهجرات الذاتية أم القسرية.

اندثار مأرب وإحياؤها:

بدأت مأرب بالاندثار بشكل تدريجي وليس بشكل كلي بعد أن تغلب الحميريون على السبئيين في القرن الثاني قبل الميلاد، وكانت ما تزال تسمى سبأ، بالإضافة إلى مسميات مصاحبة مثل مملكة سبأ وذي ريدان ويمنات وحضرموت وتهامة وطود وأعرابهم، مع أن هذه التسمية استمرت إلى عهد أبرهة الذي سمى نفسه ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت وتهامة وطود وأعرابهم، بحسب نقشه المذكور عند سد مأرب، واقتصرت تسمية «دولة حمير» على الإخباريين فقط، وتم نقل العاصمة بعد الميلاد إلى ظفار، وأحياناً إلى صنعاء وناعط في عمران، وهنا انتهت «سبأ»، وبدأت الهجرة الكبيرة من مأرب، هجرة داخلية وخارجية، وبقي بعض سكانها مقيمين فيها مع وجود السد وبقائه أيضاً، وتم في الفترات المتلاحقة تهدمه وإعماره وإصلاحه عدة مرات حتى آخر بناء له في عهد أبرهة الحبشي، مما يعني أن مأرب كانت ما تزال حاضرة وعامرة.

ومن الطبيعي جداً في عهد الدول أن ينزاح بعض السكان من المدن تبعاً للتحولات الجديدة في الحكومات والممالك التي تجذب عواصمها المتغيرة السكان من كل مكان لارتباط مصالحهم بالمركز، سواء كانت مصالح سياسية أو اقتصادية أو إدارية، وقد شاهدنا ذلك مثلاً في تحول العاصمة إلى ظفار أو صنعاء من خلال السكان والارتباط بالدولة هناك، أو ما شاهدناه ولمسناه من التحول بعد ذلك إلى صنعاء في عهد الحميريين المتأخرين، وكذلك الحكم الحبشي وصولاً إلى الحكم الإسلامي حينما ازدهرت صنعاء ونمت بفعل هذه التحولات من عهد سيف بن ذي يزن والفرس والأبناء وعبهلة (الأسود العنسي)، أو بعد ذلك في عهد عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فروة بن مسيك المرادي الذي هو من مأرب أساساً، أو وبر بن يحنس الخزاعي، وبعد ذلك عهود ارتباطها بالدولة الأموية فالعباسية وصولاً إلى اليوم. أو كذلك حينما تحولت

العاصمــة إلى تعز بفعــل الدولتين الأيوبية والرسولية وشهــدت جذباً للسكان من أنحاء اليمن لارتباط مصالحهم بالدولة هناك.

وكذلــك من أسباب تدهور مأرب تحويل طريق التجارة من مأرب إلى الغرب والهضبــة الشماليــة الغربيــة من قبــل أبي كــرب أسعد فيما عرف بــدرب أسعد الكامــل، خاصة طريــق التجارة للقوافــل القادمة من الموانــئ الجنوبية الغربية؛ المخا وعدن وذو باب.

بعد الإسلام كانت الدفعات الكبيرة من الهجرات، سواء إلى عاصمة الدولة الإسلاميــة في المدينــة وما بعدهــا في دمشق وبغداد بسبب الانخــراط في جيوش الفتوحــات وما تتناقله الأسماع مــن الاستقرار والإعمار في أراض جديدة أو حتى إلــى عواصم الدولة الإسلامية في اليمن كصنعاء والجند وزبيد وغيرها، وانتقال الجنــود أو الدعاة والعلمــاء أو حتى من سمع بالأراضي الجديدة من بقية الأسر، انتقــل الجميع بأسرهم إلى البلدان الجديــدة، وكانت من أعظم وأكبر الهجرات اليمنية عبر التاريخ، وهذه الهجرات مستمرة حتى اليوم.

بسبــب هذه الهجرات والصراعات المختلفــة، علاوة على الظروف الطبيعية من جفاف وتصحر وغيرها، زحفت الرمال على مأرب وطمرتها ردحاً من الزمن، وكل مــا يعرف عنها من تاريخ اليوم إنمــا بفعل الاستكشافات الأثرية والدراسات التاريخيــة لهذه الاستكشافات، ولم تكــن السيول التي هدمت السد عدة مرات أو التــي عمت أرجاء اليمن إلا واحدة من عشــرات الأسباب الأخرى لهذه الهجرات التي لم يعرف زمنها على وجه التحديد حتى اليوم.

واللافــت في أمر هــذه الهجرات،على أن ظاهرها في القــرآن الكريم عقوبة إلهيــة مسلطة عليهم بفعل الإعراض والكفر، والكفــر هنا كفر النعمة وليس كفر الديــن والعقيدة، أنها كانت من وجه آخر رحمة باليمنيين وإيذاناً إلهياً باستزراع

شعوب أخرى جديدة من هذا التمزيق، فقد زرعوا قبائل وكوَّنوا شعوباً مختلفة في المنطقة، وكانوا أصل العرب بحق.

ولم يكن السبئيون معتمدين على الزراعة فقط حتى يهاجروا بسبب تهدم السد، فقد كانوا رواد التجارة العالمية يومها، وكانت بلادهم على طريق البخور المتحكمين بها، وجعلوا لها محطات يومية يأوون إليها بشكل حاميات عسكرية تابعة للمملكة كما هو الفاو (كندة) مثلاً ودادان العلا وغيرها، وهذا ما وضحته الآيات السابقة أيضاً ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾سبأ(١٨)، والظهور يعني هنا القوة والمنعة والنصرة كما هو تفسير اللفظ ودلالاته في بقية الآيات القرآنية: ﴿يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾غافر(٢٩)، ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ التوبة (٨)، ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾الأحزاب (٢٦)، ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ الصف (١٤)، بمعنى أنها كانت محميات عسكرية لطرق التجارة؛ أي إن الهدف من كل هذا أن اليمنيين لم يتأثروا كثيراً بتهدم السد فيكون سبب هجرتهم.

حيث إن هذه التجارة كانت تعتبر لهم المورد الأول قبل الزراعة في بعض الأحيان، وبالتالي فبإمكانهم عبر هذه التجارة تأمين توريد أغذيتهم المختلفة كبدائل مؤقتة عن التي تلفت جراء تهدم السد وتلف زراعتهم.

وقد يكون كثير ممن عرف التجارة واشتغل بها ذهاباً وإياباً إلى الأمصار المختلفة في الشام ومصر وأفريقيا وأواسط آسيا وفارس، أعجب بأرض من الأراضي التي تاجروا إليها فاستقروا فيها وهاجروا إليها.

وبالنظر إلى الآثار الظاهرة اليوم في مأرب فقد كانت كنتونات بسيطة لا

ترقـى إلى مستوى المدن العملاقة، والتي إن تفرقت نتج عنها شعوب ودول كثيرة، ويبدو أن هناك مدناً مطمورة تحت الأرض الحالية لمأرب نتيجة التصحر وعوامل القدم والدهرية الزاحفة وغيرها، وهو ما لم ينقب عنه حتى الآن إلا قليلاً، وعلى سبيـل المثال مدينـة صغير مطمـورة في منطقة «يلا»[1] من مـأرب والتي كشفت عنهـا ونقبتها بعثـة إيطالية في ثمانينات القـرن الماضي برئاسـة أليساندرو دي مجريـت، وأيضاً الدليل طمر معبـدي أوام وبرآن (عرش بلقيس) اللذين لم يكن ظاهراً منهما سوى الرأس فقط، وهناك مدن يمنية كثيرة مطمورة أصبح الناس يزرعـون فوقهـا وفي أسطح منازلها على أنها حقـول زراعية كما في الجوف وتعز ولحج وحضرموت.

وقـد تكشف التنقيبات الآثاريـة المستقبلية عن مكان الجنتـين اللتين صارتا مطمورتين بالكثبان الرملية وزحف التصحر عليها، وكذلك عن بقية المدن هناك.

فحضـارة عاد إرم مثلاً مطمـورة في رمال حضرموت وشبوة والربع الخالي، وهناك مدينـة مطمورة تحت رمال مدينة صبر لحج ظهر بعض آثارها بالتنقيب الصـدفي عام ١٩٩٦[2]، فما من أرضٍ يمنية يتم اليوم البحث في الأعماق لإرساء مداميك البيوت والأبنية إلا وجد بعضٌ آثار البناء والسكن في الأسفل مطمورًا ما بين ٤ و٦ أمتار.

معظـم الدراسـات والأبحـاث تفيـد أن جزيرة العـرب وصحـراء الربع الخـالي إنما كانت أودية وغابات ومروجاً وأنهـاراً قبل ٤ آلاف عام، وطمرت بفعـل التصحـر وعوامل أخرى كعقوبات الأمم البائـدة التي كذبت الرسالات السماويـة وأفسـدت في الأرض فعاقبهـا الله بعقوبـات مختلفـة كالخسـف والتدمير والإغراق والرياح التي تدمر وتطمر كل شيء، وبالسحب والعواصف الرمليـة ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾ الأحقاف (٢٤).

ففي مصر مثلاً كل القصور والمعابد الفرعونية التي تم التنقيب عنها وجدت مطمورة تحت ركام رمال الصحراء في الجيزة وطيبة وغيرها.

فأغلب الظن عندي أن كلاً من محافظات لحج ومأرب وأبين وشبوة وحضرموت والجوف فيها مدن مطمورة بالرمال، خاصة ونحن نعلم أن بعض الحضارات القديمة البائدة أقيمت في هذه المحافظات ولم تكشف عنها الأبحاث الآثارية حتى اليوم، ومنها على سبيل المثال سبأ ومعين وأوسان وقتبان التي وجدت بعض نقوشها وما زالت غير مكتملة المعالم، والأخص منها أوسان التي تتضارب حولها المعلومات حتى اللحظة.

وكذلك من أسباب وعوامل اندثار مأرب تغيير الديانة الرسمية لسبأ من عبادة النجوم والكواكب إلى المسيحية واليهودية، فتم هجران مأرب على اعتبار أنها مقر المعابد الكبيرة للسبئيين مثل معبد أوام ومعبد برآن، وبناء الكنائس في ظفار وغيرها، وتقلصت أهمية مأرب بسبب انهيارات السد المختلفة والتحول في العبادات وتحول العاصمة إلى ظفار وصنعاء وناعط...ودخلت اليمن المسيحية في عهد الملك ثاران يهنعم بين الأعوام ٣٤٩ و٣٥١م بسبب حملة التأثير والتبشير التي قادها ثيوفيلوس مندوب الإمبراطور قسطنطين الثاني «الذي كان قد تمكن من إقناع ملك حمير في الدخول في النصرانية، فدان بها وأمر ببناء كنائس في ظفار وفي عدن. وكان القيصر قسطنطين الثاني (٣٥٠-٣٦١م) هو الذي أرسله إلى العربية الجنوبية ليدعو إلى النصرانية بين أهلها، ويؤيدون رأيهم بالكتابة المذكورة التي يرجع عهدها إلى سنة ٣٧٨م أو ٣٨٤م، فهي غير بعيدة عن أيام الملك ثارانيهنعم، ويحتمل أن يكون لذلك هو الملك الحميري الذي بدل دينه الوثني ودخل في ديانة التوحيد»[٣].

وبدأت تظهر كتابة إلهن ذي سموي إلى الملك ملك كرب يهأمن ابن الملك ثاران يهنعم[٤].

وبعد الملك ثاران جاء ابنه الملك أب كرب أسعد (أبو كرب أسعد الملقب

عنـد الإخباريين بأسعد الكامـل)، الذي اعتنق اليهودية وبـدل الديانة المسيحية والكوكبيـة إلـى اليهودية وقتله أخوه عمرو بتآمر مع عليـة القوم لهذا السبب، ثم انتشرت بعده اليهودية. فكانت تمارس في اليمن ثلاث ديانات: الوثنية، والمسيحية واليهودية، ويطلق على الأخيرتين (التوحيدية).

ويدعـم هذا القول دليل مادي هو مجسم مريم العذراء وابنها عيسى المسيح عبارة عـن إطار مرايا من البرونز عليه صورة مريم العـذراء وابنها المسيح دون أيـة إشارة للصليب عليه مما يعني أنه كان في الزمن التوحيدي الأول للمسيحية، وعثرنا عليه في ماوية من محافظة تعز، تم فحصه في مقر المعهد الألماني للدراسات الآثارية بصنعاء، وأفادوا بأن تاريخه يعود للخمسين السنة الأولى الميلادية[٥].

وتذكـر بعض المصادر أنه أقيمـت كنيسة في إحدى جبـال ماوية شرقي تعز في الفـترات الأولى للدولة الحميرية، قبل الاحتـلال الحبشي لليمن وقبل انتشار عقيـدة التثليث المسيحية. إذ لم تكن هناك بقايا أطـلال لكنيسة مسيحية، لقلنا إن هـذا الدليـل ربما جاء عن طريـق بعض التجارة التي اشتهـر بها اليمنيون في تجارتهم الخارجية قديماً.

***

وتحيا مأرب اليوم مجدداً وتنبعث من تحت الركام بفعل عوامل عديدة، منها الاستكشافات النفطية والغازية وتراكم ثروتها، وكذلك عملية إعادة إنشاء السد من جديد بعد بنائه في عام ١٩٨٤م.

لكـن أهـم عوامـل إحيائها اليوم هو لجـوء كل اليمنيـين الهاربين من بطش المليشيـات الحوثيـة الإمامية إلى مـأرب، وتم إحياؤها بشـكل لم يسبق له مثيل، وعمليـة الإحياء هـذه تذكرنا بعـودة الفرع إلـى الأصل، وأن النـار المتقدة تحت الرمـاد إنما كشفـت عنها الرياح التغييريـة اليوم، وعادت مـأرب مدينة مكتظة بالسكان مـن كل مكان، مزدهرة بعوامل البناء والاستقرار والتجارة، خاصة وأن

أبناءهـا لم ينزعوا إلى النزعات العنصرية والمناطقية المقيتة التي شهدتها بعض المناطق اليمنية، وهو عامل جذب للإنسان اليمني.

وتعـد محافظة مأرب اليوم هي العاصمة الفعلية للشرعية اليمنية التي تأوي كل اليمنيين، ولا أعتقد البتة بعد الاستقرار فيها اليوم أن يتم النزوح منها مجدداً وهجرهـا كما تم مـن قبل حتى لو أعيدت العاصمة صنعـاء لحكم الشرعية وعاد أهلها المهجرون منها، فهي دورة كونية لإعمار الأرض والمدن تجري سنة الله عليها إيذانـاً بإحيائها كما أحيـا مكة الجرداء القاحلة شديدة الحـرارة بفعل الأماكن المقدسة، فإذا أراد الله إحياء أرض هيأ لها أسباب هذا الإحياء.

الخلاصة:

- سد مأرب بني على الأرجح في نهاية الألف الثاني قبل الميلاد.
- لم يكشـف حتـى اليوم(٦) بدليل مادي مـن نقوش ونحوهـا عن الزمن الأول لبناء سد مأرب التاريخي ولا أول من أنشأه.
- سيل العرم وخراب السد حقيقة واقعة مسلم بها بتسليمنا للنص المقدس في القـرآن الكـريم؛ كونه أوثـق الأدلة والتدوين، عضـده نقش شرحبئل يعفر (Glaser٥٥٤) بنسبة كبيرة.
- الجنتـان عن يمين وشمال قـد لا يكون المقصود بهما جنتي مأرب، وإنما جنـان ممتـدة على يمين وشمـال أرض سبـأ التاريخية، ويمـين وشمال البحر الأحمر في ضفتي الدولة الشرقية اليمن الحالية، والغربية أثيوبيا وأرض الحبشة.

- قصة الفأر الذي ساعد في هدم السد قصة خرافية أسطورية لا يصدقها عقل ولا منطق، ولم توجد أدنى الأدلة عليها، وهي من رواية وتدليس الإخباريين وبفعل التنافس والصراع بين العصبيات التي ظهرت بين القحطانية والعدنانية في فترات الدولتين الأموية والعباسية، وكانت تلفق الكثير من القصص الخرافية تحط من شأن ومكانة كل فريق.
- تهدم السد أكثر من ثماني مرات،وبُني وأُصلح لأكثر من ثماني مرات أيضاً، وبالتالي فلا يستطيع أي باحثٍ كان أن يسقط هذا التهدم المتكرر على سيل العرم لمرة واحدة، ويكون استمرار السيل مهدداً في كل مرة لهذا السد بدليل تعدد الخراب والإصلاحات.
- هجرة اليمنيين لم تكن بسبب تهدم السد وحسب، وإنما بفعل الصراعات السياسية بين الممالك المختلفة والأسر الداخلية للملوك، وحب التوسع، والاحتلال الحبشي، وعامل التجارة أيضاً،واستيطان أراضٍ جديدة أكثر خصوبة من بلادهم، وكذلك الجفاف والقحط، وسيل العرم واحد من تلك الأسباب، لا كلها، وكانت هجرات على مراحل متعددة تحدث بين فترة وأخرى لأكثر من سبب، وتكون هجرات من مختلف مناطق اليمن لا من منطقة معينة، وهي مستمرة حتى اليوم.
- لم يكن اليمنيون يعتمدون اعتماداً كلياً على الزراعة حتى يهجروا أوطانهم بفعل القحط والجدب وخراب السدود وسيل العرم، فقد كانوا رواد التجارة العالمية القديمة المتحكمين بطرقها البرية والبحرية، والمتحكمين بالسلع النادرة، وقد ذكر المؤرخون اليونانيون بذخهم وغناهم اللامحدود بفعل هذه التجارة.
- كانت هناك هجرات تدريجية ومتتالية من بعض المناطق اليمنية وخاصة مأرب والجوف وما حولهما، وأوسان بفعل التنكيل السبئي بهم، وهجران

مدينة مأرب قبل الإسلام وبعده، وهو ما كشفته الرمال الزاحفة وعوامل التصحر وقلة المياه، وانتقال العاصمة السياسية منها إلى ظفار وصنعاء.

- قصة التمزيق المذكورة في القرآن توحي بعقوبة تجارية ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾، والسفر والتنقل لم يكن إلا للتجارة التي كان السبئيون روادها، وحينما حلت عليهم العقوبة أقام كثير منهم في البلاد التي كانوا يتاجرون إليها.
- آثار السد الموجودة اليوم ليست للبناء الأول للسد، وإنما لبناء الملكين شرحبئل يعفر وأبرهة الحبشي، كون النقشين يذكران إعادة بناء كاملة.

تم بحمد الله

ملحق الصور

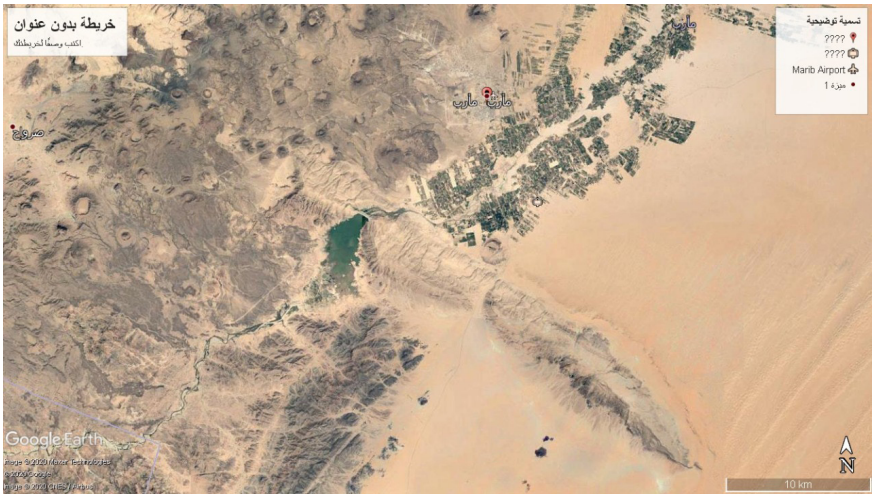

الشكل رقم (١)

صورة جوية لمنطقة السد والعرم الجبلي الطبيعي

الشكل رقم (٢)

ما تبقى من السد القديم

الشكل رقم (٣)

سيول مأرب حوالي السد توضح كيف جرت السيول القديمة لتهديم السد

الشكل رقم (٤)

حجر نقش السد يذكر اسم كرب إل بين بن يثع أمر دون تحديد ماهية العمل في السد

الشكل رقم (٥)

نقش يثع أمر بين في صرواح والذي كتب فيه إنجازاته ومنها إصلاح السد

الشكل رقم (٦)

نقش كرب إل وتر والمسمى نقش النصر في صرواح، وعملية ترميم السد من ضمن ما ورد في النقش

الشكل رقم (٧)

نقش شرحبئل يعفر

الشكل رقم (٨)

نقش ومسلة أبرهة الحبشي الذي يذكر فيه إعادة بناء السد وإصلاحه

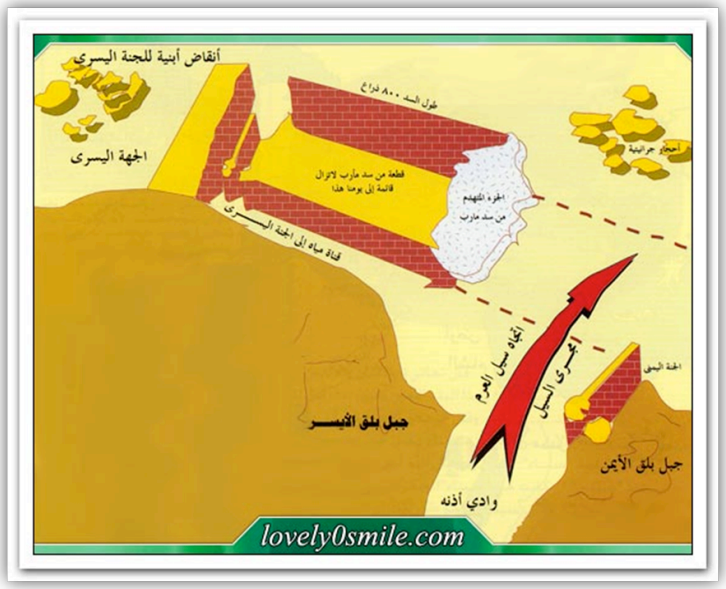

الشكل رقم (٩)

خارطة لمنطقة السد

الشكل رقم (١٠)

السد الحديث الذي بني في عام ١٩٨٤م بتمويل الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان

المصادر والمراجع

١. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: الدكتور جواد علي – ط٢ – جامعة بغداد ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م.

٢. أوراق في تاريخ اليمن وآثاره: للدكتور يوسف محمد عبد الله رئيس قسم الآثار بجامعة صنعاء – دار الفكر –بيروت – لبنان –ط١٩٩٠م.

٣. تفسير ابن كثير: لابن كثير الدمشقي–دار طيبة للنشر والتوزيع – الرياض –ط١ – ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.

٤. لسان العرب لابن منظور – نسخة إلكترونية.

٥. السير والمغازي: لابن إسحاق: – ط دار الفكر – ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م.

٦. رسالة ماجستير غير منشورة: فيصل محمد إسماعيل البارد – /١٩٩، ٢٠٣ – ٢٠٠٩، ٢٠١٠م.

٧. موسوعة علوم اللغة العربية: إميلبديع يعقوب– دار الكتب العلمية – ١٤٢٧ – ٢٠٠٦م.

٨. المعجم الجامع لما صرح به وأبهم في القرآن الكريم من المواضع: حمد محمد صراي، يوسف محمد الشمسي – مركز زايد للتراث –ط١ –٢٠٠٠م.

٩. حياة الحيوان الكبرى: كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى الدميري – ط دار الفكر – دمشق – ١٩٧١م.

١٠. التنقيبات الإيطالية في «يلا» في اليمن الشمالي: معطيات جديدة حول التسلسل الزمني للحضارة العربية الجنوبية قبل الإسلام: الدكتور أليساندرو دي مجريت، والدكتور كريستيان روبان – ترجمة الدكتور منير عربش – المركز الفرنسي للدراسات اليمنية – صنعاء– ١٩٩٩م.

١١. فتوح البلدان: أبي الحسن أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري – دار الكتب العلمية.

١٢. مروج الذهب ومعادن الجوهر: لأبي الحسن علي بن الحسين المسعودي– ط مؤسسة دار الهجرة – ١٩٨٤م.

١٣. معالم تاريخ العرب قبل الإسلام: للدكتور أحمد أمين سليم – مكتب كريديه إخوان – بيروت – لبنان.

١٤. تاريخ الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري – بيت الأفكار الدولية للطباعة والنشر.

١٥. معجم البلدان: ياقوت الحموي – ط دار صادر بيروت – ١٩٧٧م.

١٦. نار ضروان وأصحاب الجنة (دراسة): مطهر الإرياني – المؤتمر نت – الاثنين، ٢٨مايو-٢٠٠٧م.

١٧. معمر الشرجبي: دراسة نقوش مسندية – صفحة النقوش على فيسبوك. ذو القرنين وجنسيته: قراءة جديدة: توفيق السامعي – ٢٩ أبريل ٢٠١٨م.

الهوامش

(١) هو ما يطلق عليه اليوم سدُّ كِتاب من يريم، وكتاب تسمية متأخرة والأصل «قتاب».

(٢) جواد علي: المفصل/ج٧/٢١٢.

(٣) الملقب بالجزار، أرسله أخوه محمد بن إبراهيم (طباطبا) لنشر دعوته في اليمن سنة ١٩٨هـ، فقام بأبشع المجازر والقتل بحق اليمنيين، ولقب على إثرها بالجزار لكثرة مجازره، وهو الذي هدم مدينة صعدة وسد الخانق الحميري فيها سنة١٩٩هـ، واتخذت أفعاله تلك ديناً وتشريعًا من قبل الهادي الرسي ومن جاء بعده من الأئمة بحق اليمنيين، وهو باذر بذرة الإمامة الأولى قبل الرسي، وما كل المجازر التي أقيمت عبر التاريخ من قبل الأئمة بحق اليمنيين إلا من بذرة هذا الخبيث السفاح.

(٤) جواد علي: المفصل/ج٧/٢١٢.

(٥) المصدر السابق/ج٧/٢١٢.

(٦) المصدر السابق /ج٧/٢١٣.

(٧) المصدر السابق /ج٧/٢٠٩.

(٨) تفسير ابن كثير: ج٦/٥٠٧

(٩) يوسف محمد عبدالله: أوراق في تاريخ اليمن وآثاره، دار الفكر –بيروت/ لبنان –ط١٩٩٠م، صـ٨٠، ٨١.

(١٠) المصدر السابق/٣٢٤.

(١١) خط المحراث القديم: هو أولى الخطوط اليمنية المعروفة للفترة المتقدمة من استكشافات النقوش السبئية، عرفت به الفترة السبئية دون غيرها، ويكتب من اليمين إلى اليسار، ثم العكس من اليسار إلى اليمين ولذلك سمي خط المحراث.

(١٢) فيصل البارد: رسالة ماجستير/٣٢٥.

(١٣) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ج٧/٢١٠.

(١٤) يوسف محمد عبدالله: أوراق في تاريخ اليمن وآثاره، دار الفكر، بيروت/ لبنان، ط١٩٩٠م،صـ٨٠، ٨١.

(١٥) نار «ضروان» وأصحاب الجنة.. في نقش مسندي: مطهر الإرياني، المؤتمر نت – الاثنين، ٢٨-مايو-٢٠٠٧م.

(١٦) جواد علي: المفصل/ج٧/٢١٠.

(١٧) يرد اسم: سمهلي ينوف في كل النقوش اليمنية وتفسيراتها لدى كل أو معظم الباحثين مفصولاً (سمه علي ينوف) عدا المؤرخ جواد علي يذكره مشتبكاً (سمهلي ينوف) ومرة يورده مفصولاً أيضاً كما في ج٢/٢٨٢ س٢٠.

(١٨) فيصل البارد: رسالة ماجستير/٦/ ٢٠٠٩ – ٢٠١٠م.

(١٩) جواد علي: المفصل/ ج٧/٢١٠.

(٢٠) المصدر السابق/ ج٢/٢٨٨.

(٢١) انظر الصورة المرفقة من السد رقم٢.

(٢٢) جواد علي/ المفصل/ج٢/٥٢٢.

(٢٣) المصدر السابق/ج٢/ ٥٦٧.

(٢٤) المصدر السابق/ج٧-٢١١.

(٢٥) معمر الشرجبي: دراسة نقوش مسندية – صفحة النقوش على فيسبوك، توفيق السامعي: من هو

ذو القرنين وما جنسيته/ مأرب برس/ ٢٩ أبريل ٢٠١٨م.

(٢٦) جواد علي: المفصل/ج٧ /٢١١.

(٢٧) يوسف محمد عبدالله: أوراق في تاريخ اليمن وآثاره/ صـ٨٨.

(٢٨) المصدر السابق/ صـ٨٨.

(٢٩) جواد علي: المفصل/ج٢/٥٤٦.

(٣٠)المصدر السابق ج٢/ ٢٨١.

(٣١)المصدر السابق ج٢/٢٨١.

(٣٢) المصدر السابق: ج٢/٢٨٣.

(٣٣) فيصل البارد: رسالة ماجستير غير منشورة /٢٠٠٩-٢٠١٠م، ص٣٦.

(٣٤) جواد علي: المفصل/ ج٢/٥٦٦، فيصل البارد: رسالة ماجستير/٢٣١-٢٣٣.

(٣٥) لمزيد من التفاصيل ينظر جواد علي: المفصل: ج٢/٥٨٠، ٥٨١.

(٣٦) فيصل البارد: رسالة ماجستير/٢٠٠٩ -٢٠١٠م، ص٣٤٤، ٣٤٧.

(٣٧)المصدر السابق: ص٣٣٩.

(٣٨) يوسف محمد عبدالله: أوراق في تاريخ اليمن وآثاره/ ص٨٥.

(٣٩) جواد علي: المفصل/ ج٧/٢٠١.

(٤٠) ابن منظور: لسان العرب: ج٣٢/٢٩١٤.

(٤١) فيصل البارد - رسالة ماجستير/ ٢٠٠٩، ٢٠١٠م، ص١٩٩، ٢٠٣.

(٤٢) يوسف محمد عبدالله: أوراق في تاريخ اليمن/ صـ٩٠.

(٤٣) فيصل البارد: رسالة ماجستير/٢٣١.

(٤٤) المصدر السابق/٣٣٠.

(٤٥) تفسير ابن كثير: ج٦/٥٠٧.

(٤٦) البلاذري: فتوح البلدان/ ص٢٤، ٢٥- دار الفكر.

(٤٧) المسعودي: مروج الذهب/ ج٢/١٦٤ – ط مؤسسة دار الهجرة -١٩٨٤م.

(٤٨) ياقوت الحموي: معجم البلدان/ –ج٥/٣٥ – مادة مأرب – ط دار صادر بيروت – ١٩٧٧م.

(٤٩) حمد محمد صراي، يوسف محمد الشمسي: المعجم الجامع لما صرح به وأبهم في القرآن الكريم من المواضع/مركز زايد للتراث –ط١ -٢٠٠٠م، ص٢٢٥.

(٥٠) كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى الدميري: حياة الحيوان الكبرى/ ط دار الفكر – دمشق – ١٩٧١م، ج٢/١٨٦.

(٥١) يوسف محمد عبدالله: أوراق في تاريخ اليمن - صـ٨٥.

(٥٢) موسوعة علوم اللغة العربية: ج٣/ ٤٧٤.

(٥٣) ابن إسحاق: سيرة، ط دار الفكر – ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ص٥٢.

(٥٤) فيصل البارد: رسالة ماجستير/ ١٩٩.

(٥٥) التنقيبات الإيطالية في يلا (اليمن الشمالي سابقا): معطيات جديدة حول التسلسل الزمني للحضارة العربية الجنوبية قبل الإسلام: الدكتور إليساندرو دي مجريت، والدكتور كريستيان روبان:صـ٣٦ – ترجمة منير عربش.

(٥٦) كنت أحد المشاركين في بعثة جامعة صنعاء الآثارية إلى هذا المكان للوقوف على هذا الكشف الأثري الهام والمشاركة في دراسته.

(٥٧) جواد علي: المفصل: ج٢/ ٥٦٨.

(٥٨) المصدر السابق/ج٢/ ٥٦٨.

(٥٩) يحتفظ الباحث بهذا الرمز الأثري كدليل على ما ذهب إليه من المعلومات الواردة أعلاه.

(٦٠) مع استمرار أعمال التنقيب عن النقوش والآثار قد تظهر نقوش جديدة تفصل في هذا الموضوع.

أبجديات منهجية غائبة في الدراسات التراثية المعاصرة

أميرة الشنّاوي

في حياتنا الثقافية والفكرية الحاضرة، ثمة ظواهر عديدة تدلل على أن خللاً خطيرًا بدأ يدبُّ في هذه الحياة، وعلى وجه التحديد فإن الخلل قد أصاب مادة هذه الحركة الثقافية والفكرية وقوامها، أعني الحقيقة ومكانتها ومفاهيمها وضوابط البحث عنها.

فقد تحولت الأبحاث الثقافية والفكرية المعاصرة عن دورها الأساسي، العلمي والأخلاقي في الكشف عن الحقيقة وتجليتها للأذهان وإضاءة جوانبها والتجرد لها، إلى نوع من الاستثمار والتوظيف لهذه الأبحاث من أجل طمس الحقيقة والتعتيم على معالمها، والاحتيال على مرتكزات البحث فيها وضوابطه البديهية، يحدث هذا الخلل تحت تأثير دوافع شتى ونوازع متباينة من الاستئجار السياسي، إلى الانتماء التنظيمي أو العقائدي، إلى الولاء المادي والأدبي لمؤسسات أجنبية سخية لا شرقية ولا غربية، إلا أن الجريمة على كل حال واحدة وثابتة، ألا وهي قتل الحقيقة.

ولم ينأَ البحث في تراثنا العربي والإسلامي عن انعكاسات هذه الحالة المرضية المؤسفة[1]، بل لا نتجاوز العدل إذا قلنا إن هذا التراث بفعل التحولات الاجتماعية الجديدة قد ناله القسط الأكبر من هذا الطمس والتعتيم والاحتيال

مـن كافـة الاتجاهات الرافضـة أو المعاديـة له، وعلـى الرغم من براعـة هؤلاء (المحترفـين) إلا أننـا لا نعدم الوقوف على إشارة هنـا أو لمحة هناك من عثرات القلـب وفلتـات القلم التي يشاء الله تعالـى أن يكشف للناس مـن خلالها الهوية الحقيقيـة لهذه الأبحاث والنوايا الفاسدة لأصحابها تجاه التراث، وهكذا وجدنا مـن يقرر منهـم في بحثه حول الـتراث أن مثل هذا البحـث، لا يعنيه البحث عن قيمة ذاتية متجردة في التراث، وإنما هو طريقة لازمة لأصحاب (الأيديولوجيات التقدمية)؛كي يستطيعوا النفاذ من خلالها إلى الجماهير المسلمة عن طريق لغة التراث وتحت رايته، بحيث يدمجون قضايا التراث في قوالبهم الأيديولوجية[٢].

أي أن الأمـر بوضـوح شديـد لا يعدو كونـه خداعًا للأمـة في تراثها ودينها، واحتيـالاً على قضايا التراث، بل إن الموقف يتعـرى تمامًا حينما نقف على عبارة واضحة وحاسمة لأحد هؤلاء يصف فيها بحثه للتراث العربي الإسلامي بأنه كان بمثابة (تصفية حساب مع هذا التراث)! ولنا أن نتخيل ما يمكن أن يخرج به قلم يحركـه ضمير ينضح بـكل هذا الحقد، وبكل تلك المـرارة التي لخصتها لنا هذه العبارة.

إن ممـا لا ريـب فيـه أن مثل هـذه الظواهـر وتلـك المواقف تعطينـا المبرر الأخلاقي والموضوعي لتعرية أصحابها، وكشف زيف كتاباتهم، وإضاءة الجوانب الخفية والخطـيرة التي يتحركون من خلالها، بهدف محاولة تدمير هذا التراث أو التعتيم على جوانب الحقيقة فيه.

وعلى هذا السبيل نرى من الضروري في هذا المقام الكشفَ عن بعض القواعد العلميـة والضوابـط المنهجية المشروطة لأي بحث في الـتراث، ولا سيما تلك التي أهـدرت عمـدًا في العديد من دراسات المعاصرين، وبدايـة ينبغي التنبيه على أن المراد بالـتراث بالضبط الاصطلاحي المتواضع عليه هـو النتاج العقلي والنفسي والحركـي والوجداني بـكل تشعباته، والتي أفرزها الوجـود العربي الإسلامي في

حِقَبه المختلفة، وأن الحديث عن القرآن المجيد والسنة المشرفة بوصفهما تراثاً هو مـن قبيـل التجوز غير المحمود –من وجهة نظرنا– في أحيان كثيرة، فالتراث هو النتـاج الإنساني الذي يخلفه السابق للاحق، ومن ثم فلا يجوز بحال الخلطُ بين الوحـي الرباني وهذا النتاج البشري، فلكلٍّ خصائصُه ومعالمه ومقوماته الذاتية، وبالتالي فلكلٍّ منهجـه في النظر والبحث الذي تقتضيه خصوصياته، وأن الخلط بـين كلا المنهجين من شأنه أن يسقط كافة نتائج البحث، حيث ترتبت على فساد منهجي، وفوق ذلك فإن من شأنه أن يسقط وصف النزاهة العلمية عن صاحبه.

وفي الإجمـال فإن النظر في الوحي وما ارتبط به من اجتهاد، سواء كان هذا النظـر على وجه الإنشاء أو على وجه المفاضلة والترجيح، لا يجوز إلا لمن استكمل شرائـط الاجتهاد الشرعي وقواعده العلمية المثبتة في كتب أهل العلم، ونتجه الآن بعـون الله إلـى بيـان الضوابط المهدرة في الأبحـاث المعاصرة التـي تعالج قضية التراث.

أولاً: حيادية البحث وموضوعية التحليل

إن الموقـف التاريخـي بوصفه حالةً إنسانيـة صاغتها عدة حـوادث جزئية، ينبغـي للباحث أن يقرأه من خلال هذه الجزئيات المفـردة التي شكلته وصاغته، ولا يجوز لباحث أن يتقدم بإضافة أو حذف حسب رؤيته الشخصية عند محاولته استحضـار الموقف التاريخـي، إذ من المتقرر أن التاريـخ –بوصفه علمًا– هو ما يُـرى لا ما يُتخيَّل، وأن الموقـف التاريخي –بوصفه نتاجًا لحادثات وقعت– هو ما كان فعلاً لا ما يجب –حسب رأي الباحث– أن يكون.

وبالتـالي فنحن مضطرون إلى إسقاط كافة النتائـج والتحليلات التي خرج بهـا باحثٌ قد قرر سلفًا أن النظريـة الاشتراكية العلمية (الماركسية) هي المنظار الذي يجب أن ننظر من خلاله إلى التراث، فما استقام منه لها قبلناه «وأما مالا يستجيب منه لذلك فإنه يعزل تاريخيًّا»[٢].

وأقـول: يجـب إسقـاط كافة نتائـج هذا البحـث وتحليلاته؛ لأنهـا –حسب منهجـه– لن تخرج عن كونها حلمًا موهومًا انقدح في مخيلة الباحث تحت ضغط أهواء فاسدة مترسبة فيها، ولن تتحول أبدًا إلى تحقيق علمي تاريخي أو تراثي.

وكذلـك نحن مضطـرون إلى اطِّـراح ما زعمـه باحثٌ معاصـر آخر عندما تحـدث عن مفهوم (الأمة) كظاهرة حية مـن مظاهر الوحدة الإسلامية، فيقرر «أن العـرب هم الذين أقاموا هذه الوحدة، أقاموها لحسابهم الخاص أيام النبي عليه السلام وأبي بكر رضي الله عنه»[٤].

فإننـا إذا جردنـا هذه العبارة من لغة الحوانيـت والتجار، فلن نجد فيها إلا تخليطًـا شائنًا وتحليـلاً فاسدًا يقفز فـوق الأسس العلمية للبحـث، فمن الثابت المتقرر أن مفهوم الأمة مفهوم قرآني أصيل، بل إن هذا المفهوم الذي جسد وحدة المسلمـين في الواقع التاريخي والإنساني القـديم في أروع صورة عرفتها الإنسانية هو تكليف شرعي لا يسع العربي ولا غير العربي من المسلمين أن يتجاوزه[٥].

ولقد ألحَّ النبي الكريم في الشائع المستفيض عنه على ترسيخ هذا المفهوم في ضمائر المسلمين (المسلم للمسلـم كالبنيان)، وقوله: (المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم)، ولقد قاتل العربيُّ أخاه وأباه وعمـه وعصبيته على هذا الدين، ولقد نصر العربيُّ الروميَّ والزنجيَّ والفارسيَّ علـى العربي المشرك، فأين وجد الباحـث في روافد هذه الحقيقة الرائعة ما سوغ له طرحه الغريب.

المؤسـف أن هذا الباحث تحت تأثير إيمانـه بالنظرية القومية العلمانية أراد –أو زعم– التحيُّزَ للعرب والتعصب لهم على حساب الحقيقة، ولكنه قد انتهى فعلاً إلى سب العرب بأشنع سبة، حيث أظهرهم كنفر من الانتهازيين والمتحايلين الذين سعـوا إلى استعباد الشعـوب بطريق المخادعة والسيطـرة على مقدراتهم (لحسابهـم الخاصـ)، فهل يجد حانق على العرب خيرًا مـن هذه المقولة ليطير

بهـا كل مطير؟ ناهيك عن تجريح النبـي نفسه وأصحابه خير القرون، والإسلام ذاته من وراء العبث.

ثانيًا: صرامة البحث وأخلاقياته

وذلـك أن هذا التراث مـن حيث جذوره العميقة وروافـده الجوهرية وروحه العامـة، يمثل إفـرازًا دينيًّا بكل أبعاده هذا من جانب، ومـن جانب آخر فإن هذا الـتراث من حيـث نتائجه العقليـة والمعرفيـة، وحركاتـه السياسيـة، وإبداعاته الوجدانيـة والإنسانيـة في شتى مناحـي النشاط الإنساني هـو بمثابة ضمير أمة بأسرها تناقلته وأثرته عبر أجيالها المتعددة، ومن ثم كان البحث في هذا التراث يتعرض حتمًا للخوض في ضمـير أمة أو قضية دين، مما يكـون من شأنه فرض صرامة ودقة في البحث –أشد ما تكون الصرامة والدقة– وأخلاقيات في التناول –أسمى ما تكون الأخلاقيات– لجلال الأمر وخطورته.

نخلص من ذلك إلى بيان أننا حين ننسب حركة ما أو موقفًا ما أو مذهبًا ما إلـى الإسلام، فإنه يلزمنا ضـرورة أن نحاكم تلك الحركة أو ذلك الموقف أو هذا المذهـب إلى الإسلام ذاته ووفـق قواعده، وبالتالي يجب إخضاع ذلك كله لهيمنة القـرآن والسنـة بوصفهما مـادة الإسلام وقوامـه، وإن أيَّ تجـاوز لتلك المبدئية المنهجيـة تحـت أي دعوى كانت لن يعدو كونه افتئاتًا علـى الإسلام، وتعتيمًا على الحقيقة، وتعمُّدًا للإضلال.

لقـد كتب أحد الباحثين المعاصرين يقول:«وباسـم الذين يريدون أن يتمتعوا بحريـة الاختيار أمـام قوى المجهول.. أعلـن المعتزلة أن الإنسـان هو الذي يخلق عملـه، لا الله، ولا أي سلطان آخر، فالإنسـان ليس جماداً تحركه يد المجهول، يد السلطان»[٦].

وقضية خلق أفعال العباد كما هو ثابت في كافة كتب الأصول والعقائد والفرق مسألـة عقائديـة خالصة تحكمها النصوص وقواعد النظر الصحيـح، ثم إنها

من حيث معطياتها العلمية والسلوكية لا يفترق فيها السلطان عن السوقة، بل إن السلطان نفسه، وفي ثلاثة أدوار متعاقبة من أدوار الخلافة العباسية – كان يدين بمذهب الاعتزال في ذلك، ثم آن لنا أن نسأل: هل حقاً طرح المعتزلة قضية (خلق أفعال العباد) ردًّا على من نسبها إلى (المجهول) وإلى (السلطان)؟ أم أن الأمر هو نوع من الفوضى العلمية، ومحاولة لتفريغ قضايا العقيدة من مضمونها الديني، وطرحها في سياق مادي لاديني فاسد؟

وقد انتهى الباحث فعلاً إلى أن زعم «كان الفكر المعتزلي هو المظهر الفلسفي للأهداف السياسية التي يريدها الشعب؟»[٧]، ونسأل من هو (الشعب) الذي يعني؟ وأي طائفة منه على وجه التحديد؟ وفي أي بقعة بالتحديد من ديار المسلمين الممتدة من الهند حتى الأندلس؟ وأين هو الإحصاء العلمي الموثق الذي بنى عليه الباحث (وهمه)؟ وكم نفسًا أحصاها فيه؟ ثم نسأل أخيرًا في عجب: لماذا يستبدل الباحث اسم (المسلمين) باسم علماني آخر (الشعب)؟ ألا يسعنا أن نقرر أن الباحث قد تعمد الهرب من الاسم الشرعي (والتراث) كذلك، لعامة الأمة لأنه في لفظه يعطي أن الأمة بوصفها مسلمة فهي تحتكم في عقائدها إلى قاعدة الإسلام ومادته (القرآن والسنة)، ومن ثم فإن تمييزها أو اعتقادها أو انتماءها لا يرتبط –في ذلك الأمر– بسلطان ولا بغيره؟ وهو الأمر الذي يفضح تحايل الباحث على الحقيقة في الموقف التراثي.

إن مثل هذا التدليس الفاحش في الموقف التراثي لا يقف عند مجرد الخلل في الرؤية للوقائع، بل إن من شأنه أن يحدث انعكاسات خطيرة على ذهن المسلم المعاصر، تمس صلب دينه ومعتقده، فضلاً عن إخلاله بنظرة هذا المسلم نحو تاريخ أمته وبنائها الحضاري كله وثقته فيه.

وبيان ذلك أن الباحث عندما يرسم الموقف على هذه الشاكلة الموهومة مبرزًا فيها موقف المعتزلة كموقف ثوري مستنير ضد الظلم والسلطان الجائر، فإنه ينتج

حتمًا من هذه الصورة الطعن والتشهير بخصوم المعتزلة في ذلك جميعًا، فترتسم صورة أهل السنة والجماعة وعامة المسلمين –من غير المعتزلة– كمُمالِئينَ للظلم والجور، ومبررين لأهواء السلطان الجائر، ومعاندين لدعاة الفضيلة والاستنارة، ولما كان هذا الموقف من أهل السنة –مثلاً– ينبثق من مذهب عقائدي، فإن هذا التشويه والطعن ينعكسان –ضرورة– على العقيدة ذاتها بوصفها الموجه للسلوك العملي، ثم لا يقف الأمر عند هذا الحد، بل يتعداه إلى اتهام الأمة وعلمائها وفقهائهاومتكلميها ودعاتها وأدبائها ومؤرخيها وساستها وعامتها، وعلى مر أجيالها المتعاقبة بالتواطؤ على الكذب ونصرة الباطل،وطمس الحقيقة من حيث أخفوا جميعًا الأسباب الحقيقية لموقف المعتزلة وخصومهم –والتي كشفها هذا الباحث العبقري واتفقت كافة نتاجاتهم وموروثاتهم العلمية والفكرية والتاريخية–إلا الشاذ– على الانتصار لأهل السنة في ذلك الأمر، ولفظ مذهب الاعتزال.

فماذا يُبقي الباحث بعد ذلك من شرف الأمة ونقاء ضميرها التاريخي؟ إن هذا الكلام ينتظم كافة الطروحات المعاصرة من أقلام معروفة، والتي تتعمد القلب الحاد لحقائق التاريخ الإسلامي ومعالمه الرئيسة، فيتوجهون إلى إبراز الحركات الإلحادية والمنحرفة في التراث، والإعلاء الكاذب من مكانتها ودورها في التاريخ، وتقديمها على أنها البديل (الإسلامي) العقلاني والمستنير، مهدرين في ذلك أبسط شرائط العلمية في البحث والأخلاقية عند الباحث.

ويستطيع القارئ والدارس مراجعة ترهات هذه الدراسات حول حركات مثل (القرامطة – والباطنية – والزنج)، أو شخصيات مثل (ابن الريوندي) وأشباهه، إن من حق الباحث أن يعيد النظر والتقليب ألف مرة في مواقف التراث أو حركاته واتجاهاته، ولكن شرط الالتزام بحدود الأمانة العلمية وضوابطها المنهجية والأخلاقية.

ثالثًا: خصوصية حركة التاريخ الإسلامي

إن الـتراث الإسلامي بوصفـه نتاجًا لخصوصيات حضاريـة متميزة قامت وارتبطت ببناء عقائدي وعبادي وتشريعي وقيمي متميز، لا يصح ولا يجوز ضبطه وفقًـا لقوالـب ومفاهيم ومصطلحـات غربية عنـه، تمثل إفـرازات لخصوصية حضارية أخـرى قامت وارتبطت ببناء عقائدي وعبادي وقيمي وتشريعي مخالف أو مناقض للخصوصية الإسلامية؛ لأن مثل هذا الإخضاع والضبط لن يخلو من أحد أمرين:

إمـا أن يؤدي بالباحث إلى تعديل هذا القالب أو المفهوم أو المصطلح الغريب في حـدوده ودلالته وإيحاءاته، وبذلك يفقد مصداقيته العلمية الذاتية مما يجعل اللجوء إليه على هذه الحال محضَ عبثٍ غير مبرر.

وإمـا أن يـؤدي بالباحث إلى تعديـل مفاهيم التراث ذاتـه وحقائقه ومعالمه بحيـث يمكن تفريغها في هـذه القوالب المجلوبة أو ضبطها وفـق هذه المفاهيم أو الاصطلاحـات الوافـدة، وفي ذلك ضـلال أي ضلال، وحيف أي حيـف، وإهدار للحقيقة بكل معاني الإهدار.

فمحاولـة إقحام تعبـير (القـرون الوسطي) –علـى سبيـل المثال– كقالب تاريخـي تضبط مـن خلاله حركة التاريـخ الإسلامي وتراثه، ستـؤدي حتمًا إلى أهدار الحقيقة العلمية والتاريخية على النحو الذي بيَّناه آنفاً.

إذ من المعروف أن تعبير (القرون الوسطي) كان إفرازًا لخصوصية تاريخية في الحضـارة الأوروبية، وهو موضـوع هناك –على وجـه التحديد– للتعبير عن العصـور الأوربية المظلمة التـي توسطت بين إشراقات الحضـارة الهيلينية وبين البعـث الحضـاري الأوربـي الحديث، أي أنـه يعني–في حركة التاريـخ الإنساني العـام– تلك المرحلـة التاريخية التي برزت فيها إشعاعـات الحضارة الإسلامية المبدعـة والخلاقة، حيث هيمنت على حركة الفكـر في التاريخ الإنساني، فإذا ما

أراد باحثٌ نقل هذا القالب التاريخي ليضبط من خلاله حركة التاريخ الإسلامي فهو –إن التزم حدوده ودلالته وإيحاءاته– سينتهي حتمًا إلى جعل عصور النهضة الحضارية الإسلامية الوضيئة عصورَ ظلام وانحطاط، وبالتالي يتعامل مع إفرازاتها الفكرية والثقافية والمعرفية والإنسانية من هذا المنظور، وهذا هو الغالب الشائع في دراسات المعاصرين ممن لجأوا إلى هذا القالب.

وإما أن يعمد الباحث إلى التبديل والتحوير والتغيير في حدود هذا القالب ومعطياته وإيحاءاته، وهنا يحق أن نسأل: فما هي إذن الضرورة العلمية الملحة التي تجعلني كباحث ألجأ إلى هذا القالب التاريخي الغريب إذا كنت قد تثبَّت من عدم مصداقيته للتعامل مع حركة التاريخ الإسلامي؟ اللهم إلا أن يكون الأمر تعبيرًا عن روح الهزيمة النفسية أمام النموذج الأوروبي، أو قصدًا إلى التشويش على العقول والتعتيم علي الحقيقة.

وقل مثل ذلك في العديد من المفاهيم والقوالب والمصطلحات الوافدة، والتي لا تتوافق بحال مع خصوصيات تراثنا الإسلامي وحركته التاريخية، مثل رجال الدين والكهنوت والثيوقراطية وغيرها، بل إن الأمر في ذلك قد تعدى إلى مراحل خطيرة، حيث بدأت بعض الدراسات المعاصرة تضبط العقائد والتشريعات الإسلامية ذاتها وفق قوالب واصطلاحات العقيدة النصرانية حتى وجدنا من يصف عصر الخلفاء الراشدين بأنه (عصر العلاقات البطريركية في الإسلام)[٨]،ووجدنا آخر يصف عقائد أهل السنة والشيعة بأنها تمثل (العقل الأرثوذكسي في الإسلام)[٩]، هذا مع التنبيه على أن ثمة طوائفَ تعمد إلى التلويح بمثل هذه القوالب والمصطلحات على سبيل الإرهاب المصطلحي ضد دعاة الفكر الإسلامي وحملته، بيد أن لذلك مقامًا آخر وحديثًا يختلف.

الهوامش:

(١) في تعليقه على دراسات الدكتور (محمد النويهي) في التراث، يقول الدكتور طيب تيزين إنها حلقة متقدمة من تكتيك فكري سياسي، (من التراث إلى الثورة) ص٣٦٧، ط بيروت الثالثة ١٩٧٩م.

(٢) في سبيل ثقافة عربية ذاتية، عبد الله النديم، ص ١١٢- ١١٣، ط بيروت الأولى ١٩٨٣م.

(٣) د. طيب تيزين، المصدر السابق، ص١١٠٣.

(٤) نفس المصدر ص٣٤٧.

(٥) الوحدتان، د. محمد أحمد خلف الله، مجلة الوحدة عربية تصدر في باريس، العدد الأول، السنة الأولى،أكتوبر ١٩٨٤م

(٦) قراءات في الفكر الإسلامي، عبد الرحمن الشرقاوي، ص١١، ط دار الوطن العربي، ١٩٧٥م.

(٧) المصدر نفسه ص١٥.

(٨) د . طيب تيزين، المصدر السابق ص٤٩.

(٩) محمد أركون ومكونات العقل الإسلامي الكلاسيكي، د/ هاشم صالح مجلة الوحدة، العدد الثالث، السنة الأولى، ١٩٨٤م.

أعلام في الظل:
يوسف الشيخ يعقوب

(١٣٥٠-١٤٣٢هـ/١٩٣١-٢٠١١م)

التقيته بمدينة الخبر، وكنت في زيارة لها مع الأستاذ عبدالكريم الجهيمان عند زيارته لأصدقائه بالمنطقة وكان أحدهم إذ كان يصدر جريدة (الفجر الجديد) بعيد صدور جريدة (أخبار الظهران) الذي كان يرأس تحريرها الجهيمان.

طلبت منه زيارته في منزله بالخبر والتسجيل معه ضمن برنامج (التاريخ الشفهي للمملكة) لمكتبة الملك فهد الوطنية فرحب بذلك، وكانت زيارته يوم ١٤٢٢/٣/١٢هـ. تحدث عن ولادته وطفولته بالجبيل، ودور والده الشيخ يعقوب اليوسف وعلاقته بالملك عبدالعزيز الذي أقنعه بالانتقال من قطر للمنطقة الشرقية لتولي القضاء وإدارة أول مدرسة ابتدائية تفتح بالجبيل على ضفاف الخليج العربي. ولنترك للأستاذ عبدالرحمن العبيّد رواية ترجمته التي كتبها في (الأدب في الخليج العربي) عام ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م. «يوسف الشيخ يعقوب: شخصية متوقدة، وافرة الفكر والإحساس، ولد بالجبيل، وأتم دراسته الابتدائية

فيها، ثم شغف بالمطالعة حتى برع في الكتابة، فأسهم في إحياء الحركة الفكرية في هذه المنطقة، وعني بكتابة البحوث الاجتماعية التي تدرس مشاكل المجتمع، وقد نشرها في بعض صحف الخليج والصحف المصرية، أسهم في مستهل شبابه بإحياء الحركة الرياضية، وله مؤلف مطبوع عن (نظام الرياضة)، وقد تحول عنها إلى الصحافة حيث أسس بالاشتراك مع أخيه أحمد جريدة أدبية أسبوعية باسم (الفجر الجديد)، وقد صدر منها ثلاثة أعداد في مدينة الدمام ثم أوقفت وهي في خطوها الأول».

- وترجم له الدكتور علي جواد الطاهر في (معجم المطبوعات العربية.. المملكة العربية السعودية) ج٢، ناقلاً ما سبق أن نشره العبيد في (الأدب في الخليج العربي)، ومحيلاً إلى مجلة المنهل وكتاب (ساحل الذهب الأسود لمحمد سعيد المسلم).
- كما ترجم له وكتب عن جريدة (الفجر الجديد) عثمان حافظ في (تطور الصحافة في المملكة العربية السعودية)، «الفجر الجديد: جريدة أسبوعية جامعة. يشرف على تحريرها نخبة من المثقفين هكذا جاء في صفحتها الأولى.. وجاء في ركن إحدى صفحاتها الداخلية، الفجر الجديد، جريدة أسبوعية جامعة تصدر مؤقتًا نصف شهريًّا، يحررها نخبة من الشباب المثقف، صاحب امتيازها ومدير التحرير أحمد الشيخ يعقوب، ورئيس التحرير يوسف الشيخ يعقوب، والاشتراكات ٢٥ ريالاً سنوياً و١٥ ريال عن ستة أشهر».

وقد أوضح أحمد يعقوب صاحب الامتياز في افتتاحية العدد الأول تحت عنوان: (كلمة الأسبوع.. اعتراف لا بد منه) موضحًا خطة الجريدة وسياستها، والمتاعب التي لاقاها في تأسيس الجريدة، والأسباب التي دعت لإصدارها. وقد جاء في هذه الافتتاحية: «..مرت حقبة طويلة على هذه المنطقة وهي تغط في نوم عميق

منعزلــة عن العالم وما يجري فيه من أحداث، وكان الأدب فيها آخذاً في الركود، أو الانــزواء إلا مــن أقلام ضئيلة يخطها الكتَّاب في الصحــف العربية البعيدة إن لم يذهــب أغلبها في سلة المهملات لا لهزالها، بل لعدم الاهتمام بأدب الغير، وأن الصحافــة تهيمن عليها النزعة الإقطاعيــة في الأدب، لكأن الأدب في مفاهيمهم هيــكل مقدســ لا يدخله إلا من يرضونه ما عدا بعضــ صحفنا الداخلية وصحف إحــدى جاراتنــا الشقيقة التي اهتمت اهتماماً بالغاً بإنتــاج أدبائنا... ولما عزمنا علــى فكرة إنشاء صحيفة تخدم الوعــي والأدب الشعبي، وتجاري قافلة الإصلاح في هذا العهد، وجدنا تشجيعاً عارماً من أصدقائنا، ثم رحنا نقدم ونؤخر خطانا عندما سمعنا كلمات (طوباوية) من بعض الذين يثبطون الهمم والعزائم معللين أقوالهــم الواهنة بشتى التعليــلات المختلفة... «ومضى السيــد يعقوب في حديثه عــن إصدار (الفجر الجديد) ذاكــرًا ما وجده من تشجيع الأصدقاء.. وقال: «إن كلمات التشجيع القوية والحماس الشديد من الأصدقاء قد دفعه لإصدارها..».

- وقــد ترجــم ليوسف الدكتــور عبدالعزيز بــن صالح بن سلمــة في كتابه (اليمامــة وكتابها من ١٣٧٢ إلى ١٣٨٢هــ)، وقال بعد أن أحصى له ١٦ مقــالاً في الأعــداد الأسبوعية وقبلهــا عددين في الإصــدار الشهري من اليمامــة. وقــال عنــه في الهامش: «يوســف الشيخ يعقــوب: أحد مثقفي وكتــاب المنطقــة الشرقيــة، نشرت المجلــة في عددها الثامــن من السنة الثانية شعبان ١٣٧٤هـ/أبريل ١٩٥٥م ص٣٩، خبراً عن صدور الصحيفة التــي أسسها هو وأخــوه أحمد بالعبارات التالية: صــدور الأعداد الأولى من الفجر الجديــد لصاحبيها أحمد ويوسف الشيخ يعقوب، وطبعت في المطبعة السعودية التي أنشأها خالد الفرج رحمه الله، وذكرت في العدد الخامس من السنة الأولى، في ربيع الثاني ١٣٧٣هـ، يناير ١٩٥٤م ص٣٦، أن يوسف الشيخ يعقوب مــن الجبيل فاز بالجائزة السابعة للقصة التي

نظمتهـا مجلة (صوت البحرين)، وذلـك عن قصته (ظلال القصور)، وابتـداء من العـدد ٣٠ نشرت له صحيفة اليمامـة مقالات مطولة، عدد منهـا أتى في مكان الافتتاحيـة، بعضها باسمه الصريـح وأغلبها باسم (فتـى الخليـج العربـي)، وتذكـر اليمامة في العـدد ١٩٦ أنـه مراسلها الخاص في المنطقة الشرقية «.

- وقد جـاء ذكر جريدة (الفجـر الجديد) وترجمـة لرئيس تحريرها في كتابـي (رواد الصحافـة المبكـرة – صحافة الأفراد) مـن إصدار نادي تبـوك الأدبي، وذكرت عنه: «عمـل في شركة الزيـت العربية (أرامكو) بالظهـران عـدة سنـوات. تنقـل في عدة وظائـف حكوميـة في المحكمة الشرعية والشرطة والجمارك».
- افتتح مكتباً للمحاماة في الخبر مع عبدالله الحقيل عام ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م.
- كتـب في عدد من الدوريات المحليـة والعربية، وله مساهمات في الحركة الرياضية.
- أصـدر مع شقيقه أحمـد الشيخ يعقوب جريدة الفجـر الجديد بالدمام عام ١٣٧٤هـ.
- كان يوقع مقالاته باسم (فتى الخليج العربي).
- أنشأ مكتبة أهلية تحتوي على مجموعة كبيرة من الكتب الدينية والأدبية.
- يكتب مقالاً أسبوعياً بجريدة اليوم بعنوان: (كلمات من القلب).

من مؤلفاته:

- نظام الرياضة.
- قوس قزح، رواية اجتماعية.

- تاريخ مدينة عينين [الجبيل].

- فلسفة الخوف.

- من أجل مكتبة أفضل.

وذلك نقلاً من (معجم الصحفيين في المملكة، سمير مرتضى)

- جريدة الفجر الجديد:

صدر العدد الأول يوم السبت ١١ رجب ١٣٧٤هـ، الموافق ٥ مارس ١٩٥٥م، وصدر العدد الثالث والأخير يوم السبت ٩ شعبان ١٣٧٤هـ، الموافق ٥ أبريل ١٩٥٥م.

كتب بها: الأساتذة: عبدالعزيز القاضي، عبدالله بن خميس، سعد البواردي، عبدالرسول الجشي، يوسف الشيخ يعقوب، حسن عبدالله القرشي، عبدالرحمن محمد المنصور، عبدالغني ناضرين، عبدالرحمن العبيد.

كتب افتتاحية العدد الثاني أبو عمر: محمد الهوشان (نريد فكرة لا أسلوباً)، وافتتاحية العدد الثالث رئيس التحرير يوسف الشيخ يعقوب بعنوان: (رئيس التحرير في قفص الاتهام) نختار منها قوله:

«مزقوا هذه الصحيفة.. ودوسوها بنعالكم.. وابصقوا عليها.. عندما تشق طريقاً ينحو بها إلى الخطل والباطل!!..». وقد نشر أو اختار بعض رسائل القراء التي تتهم الجريدة بالجبن عن قول الحقيقة، والخوف أن تجرفه عجلة (الدولار) عن قول الصدق.. وقال: «.. وهنا أكتفي بنشر نموذج هذه الرسائل، وأحس برعدة تسري في مفاصلي، فقد عشت بجو هادئ، بعيداً عن هذه الاتهامات والتهديدات، قبل أن آخذ على عاتقي تحرير صحيفة في منطقة يشتد فيها التفكير والوعي الاجتماعي، .. فليعذروني وليقبلوا عذري، فأنا لا أستطيع أن أتخطى الحدود

المرسومة لهذه الجريدة، بل لهذا (الوليد) فلا مناص لي من الوقوف أمام الأمر الواقع.. فلولا صبري وإيماني بالرسالة العظيمة التي أحملها لهذا الوطن العظيم لحطمت قلمي ولمزقت الورق. فهذه الرسائل التي تطعن المحرر في كيانه، والتي لو وجهت لغيري لأشرف على الجنون واليأس... فليكتبوا ما شاءوا لي من نقد أو تهجم، فأنا أستحق كل سخط لو انحرفت عن الصراط المستقيم، بل مزقوا هذه الصحيفة، ودوسوها بنعالكم، وابصقوا عليها عندما تشق طريقاً ينحو بها إلى الخطل والباطل». يوسف الشيخ يعقوب.

وبعد أن عرفته عن قرب وسجلت معه أهم المحطات المهمة في حياته العلمية والعملية طلبت منه تزويدي بشهادة مفصلة عن ظروف إصدار الجريدة وظروف إيقافها؛ لأنني بصدد إعداد كتاب عن البدايات الصحفية بالمنطقة، فرحب بالفكرة، وبعد أيام وصلتني منه الرسالة التالية:

شهادة رئيس التحرير..

في البدء كانت الكلمة، وكان الحرف!!

بقلم: يوسف الشيخ يعقوب

قبل أن أتلقى الرسالة الكريمة، المتفجرة من ينبوع تشجيع روح الثقافة والمعرفة، الذي يفتش القارئ للبحث عنه، في منطويات تاريخ المنطقة الشرقية، الذي أثاره ونبشه الأستاذ (محمد عبدالرزاق القشعمي) مسؤول الشؤون الثقافية بمكتبة الملك فهد الوطنية، في مدينة الرياض، منطلق الثقافة الكبرى إن شاء الله، ومن الصدف أن تلك الرسالة جاءت مشابهة للرسالة التي وردت لي من جريدة اليوم، وقمت بالرد عليها، وكان مضمونها حول بداية الصحافة في المنطقة الشرقية، التي كان لي الشرف أن أكون أحد كتاب زاوية الفكر والرأي

فيهـا، منذ بـدء إشراقة صدورها، والتـي حملت رسالة الفكـر والثقافة والأدب، واستمـرار نشاطهـا والحمـد لله حتـى هـذه اللحظة التي بـادرت بإعـداد هذه الرسالـة الموجهة (لأبي يعرب) حـول المشاركة بالكتابة عن بدايات الصحافة في المنطقـة الشرقية، كشاهد للعصـر الفكري الذي عشتـه وعاصرته وبالذات عن إصـدار صحيفـة (الفجـر الجديد) وحمل رسالـة تحريرهـا، أو بالأصح رئاسة صدورهـا وتحمل مسئوليتهـا، بمعاونة ومشاركة أخي (أحمـد) رحمه الله، كنوع مـن المعاضدة، وحمل شرف قداسة الكلمة والحرف، وإبرازها ورفعها في ظروف تدعـو لتحقيق ظهورها مهما كانت المتاعب المادية والفكرية ومهما كانت العقبات والتضحية، التي تقف في طريقنا في تلك الفترة الزمنية، للبارقة التي ستحقق لنا إضـاءة الطريق لتلك التجربة، التـي لا تتعدى ولا تخرج عن نطاق روح الإخلاص لتلك الرسالة التي حملناها، كمحاولة أدبية جادة لسباق الزمن والفرص، وبدافع عـن نطـاق روح الحاجـة الملحة لذلـك التعطش الـذي لا يخرج أيضـاً عن نطاق الإخلاص والمحبـة لهذا الوطن الغـالي، ولا غرابة في ذلك فمحبـة الأوطان من الإيمـان!! وعندما عدت لقراءة الرسالة الكريمة التـي تحمل الكثير من المشاعر الوطنية التي دفعت الأستاذ (أبا يعرب) والتي قال فيها متسائلاً:

(بعـد مضي هذه السنـوات الطويلة من العمر التي تقـارب نصف قرن، هل أنتم راضون عن هذه التجربة؟). والجواب على ذلك، أن قداسة الكلمة والتفاني بمحبـة الأوطـان وروح الإخلاص للأهداف، هي التي مهـدت الراحة والاستقرار النفسـي لذلك الواجب الذي قمنا بتأديته في تلـك التجربة الصعبة، التي سبقنا الكثـيرون لها ممن تجردوا وعملوا من أجل المغامرة والتضحية بالغالي والنفيس لأجـل نشـر الثقافة والإصرار على محبة الوطن وراحـة الضمير، وأرجو أن تكون هـذه المشاعر دعمـاً وسنداً من بعض مشاعري نحو مـا عزمتم تحقيقه من عمل ثقـافي وأدبي وتاريخي له أبعـاده لذلك الكتاب أو التأليف، الـذي تنوون إخراجه ونشـره، وتقديمه للقـارئ الذي يتعطش لقراءتـه، حول البدايـات الصحفية في

المنطقــة الشرقية، كما ألمحت عنه في تلــك الرسالة الكريمة التي تلقيتها، وسوف تجــدون ولا شك التقدير لكــم بإنجاز ذلك العمل كخطوة أولــى للعاملين في هذا القطاع الأدبي الفكري المشرف.

إن هــذا الطلب الذي ألح به الأستاذ (أبو يعرب) عن البدايات الصحفية في المنطقة الشرقية قد يحتاج إلى الكثير من التوسع الثقافي والتاريخي والجيولوجي أيضاً لكون هذه المنطقة لها دور واسع وبارز في العراقة لتاريخ الحضارات البعيدة التــي تزيد علــى السبعة آلاف سنة لتاريخ الجزيــرة العربية الحضاري فمن عهد بعيــد عرفت فيه، دلمون، والفينيق، والآشوريين، والسامريين، وكانت الحدود تبدأ مــن حوض الرافدين شمالاً، وحتــى هضاب الربع الخالي، أو واحة يبرين جنوباً، كما حددها علامــة الجزيرة العربية ومؤرخها الشيــخ (حمد الجاسر) –رحمه الله– في المعجــم الجغرافي للمنطقة الشرقيــة من البصرة، حتى أطراف عُمان، فهــذه المنطقة الشاسعــة التي أتى عليها حــين من الدهر، وتتالــت عليها ظروف جيولوجيــة وحضاريــة مختلفة ومتعــددة، ضاربة في أحقــاب سحيقة من القرون الواسعة لتكوين إنساني وحضاري عرفه وحدده التاريخ البشري لتلك الحضارات، ممــا يدعو الأمــر إلى تنقيــب واسع وجادّ عــن تلك الآثــار الشاسعــة والواسعة، فهــذه المنطقــة لا زالت تحمل بصمات لآثــار لا زالت تحت الرمــال الكثيفة ولكن الأجهزة العلمية الحديثة كفيلــة لاكتشافها وتحديد أزمانها، وأهميتها التاريخية والحضاريــة وبالذات على أطــراف البحار والسواحل التي رفعــت المفكر والمؤرخ الكبــير (ابن خلدون) رحمه الله، يؤكد لهذا الجيــل في فلسفة بروز الحضارات، بــأن الحضارات تنشأ وتبــدأ في التوسع والازدهار في الغالب على السواحل وقرب البحــار والأنهــار، وإن مثل هــذه الأماكن هي ولا بد أن تكــون منطلقاً للحضارات والأفكار العلمية، وقد حفظ التاريخ الشيء الضحل عمّا تناقلته الأجيال البعيدة، كما حفظ لنا البعض عن حضارة دلمون، أو البحرين، وعن رحلة ذلك المغامر بما

وثقتــه عنه تلك الرحلة الاكتشافية أو البحث عــن المعرفة البدائية بزيارة جريئة وموثقــة لدلمــون، للبحث عن الأسبــاب المؤدية لخلــود الحياة، واستفــاد من تلك الرحلــة بإجادة الغوص في أعماق بحر الخليج العربي، وربما أن ذلك المكان على ساحل مدينة (الجبيل) التاريخية أو (عينين) التي عرفت بمغاصات اللؤلؤ فيها، وقد توهم ذلك الرحالة أنه اكتشف سر الوجود أو الخلود في أرض الخلود في هذه المنطقة، وكان اسم ذلك المغامر (جلجامش). وفي المنطقة الشرقية، القريبة من مدن الأحســاء عرفت حضارة مدينة (الجرهاء)، وقد تعرضت تلك المدينة التي اشتهرت بالثروة والغناء وأن أبوابها وسقفها مزخرفة بالذهب والفضة والجواهر الثمينــة، وقد تعرضت هذه المدينة لغزو أحد ملــوك الفرس، الذي أراد أن يحقق حلمــه بالاستيلاء على هذه المدينة واحتلالها بالقــوة، وعندما رست سفنه قريباً مــن تلك المدينة شعــر أهلها بذلك الخطر المحيط بهم، فهــب رجال هذه المدينة للتخلص من ذلــك الشــر، فأرسلوا له بعض وجهائهم للتفاوض معــه، وعندما تمكنــوا مــن مواجهتــه على ظهر سفينتــه، تقدم لــه رئيس الوفــد وخاطب الملك الغازي قائلاً: أيها الملك العظيم، خذ منا ما شئت من الأموال والجواهر والذهب والفضــة، واترك لنا مــا أعطاه ووهبه الله لنا، وهو الحرية والاستقلال، ولما سمع الملك ذلك القول الحكيم والشجاع، أحس بالخجل من نفسه، وأمر جنوده بالعودة إلــى حيث أتــوا، دون أن يتعرض لهم بأي سوء، وكان هــذا الموقف من جانب أهل هذه المدينة، يدل على وعيهم وتمسكهم بالحرية والاستقلال، كما أن هذا الموقف مما يدل على أنهم سبقوا العالم في ذلك التاريخ، بتقديس الحرية والاستقلال.

وأعــود للرسالة التي تلقيتها مــن الأستاذ (محمد القشعمــي) الذي جعلني أكبر روحه الثقافية ونظرته البعيدة باهتمامه الفكري الواسع الذي اختار السرب مــن الذيــن طلب منهــم الاستعانة برأيهــم، حول عزمــه بالكتابــة والتأليف عن بدايــات الصحافــة في (المنطقة الشرقية) ما دام أن لهم الــدور الثقافي، بتنفيذ

الأخـذ بفكرة إصـدار الصحف في المنطقـة الشرقية، ذلـك الاجتهاد والحماس الثقـافي والأدبي، لتحقيق إصدار وخلق وإبداع أكثر مـن صحيفة، للحاجة الملحة التي دفعت بهم بتحقيق تلك الرغبة، لأهمية المنطقة من الناحية التاريخية، وكان خاتمـة تلك الأعمال الثقافية من أولئك الشبـاب أو الرجال تحقيق تلك الأعمال الثقافيـة التي لا تقدر بثمن، لقداسة وقيمة الكلمة والحرف، فكان لهم الدور، في نفض غبار التخلف ووضع أساس القواعد العلمية والأدبية، التي تغلبت بتوجيهها لمحاربة الجهل والتخلف، كما صور ذلك الشاعر العربي في قوله:

الجـهـلُ لا تُـبـنَـى عـلـيـه أمـةٌ كيفَ الحياةُ على يدي عزريلا

ولا شـك أن هـذه الصحـف التي صدرت شعَّ ضوؤها في المنطقة وما حولها، فاتحة نوافذها لكل محبي الثقافة والأدب.

وعودة ثانية لتحقيق ما طلبه الأستاذ في تلك الرسالة إكمالاً لتلك الرغبة بأنه استعان برأيي حـول العزم بتأليف كتاب يتناول فيه البدايات الصحفية بالمنطقة الشرقيـة بدءاً من عام ١٣٧٣ حتى ١٣٨٢هـ، إضافة إلى ما ورد في الرسالة، حول جريدة (الفجر الجديد) وما تحملته أنا وأخي أحمد رحمه الله الذي كان موظفاً حكومياً في كتابة عـدل المنطقة الشرقية، شاكراً للأستـاذ (أبا يعرب) اهتمامه بمساهمتـي الثقافية، أنا وأخي أحمد، في بدء بواكير الصحافة في المنطقة (رغم عـدم توفر الإمكانيات المادية، ولكنها روح التحدي والحماس لحمل المشعل لإنارة الطريـق) كمـا يقول أبو يعـرب، ومن منطلق أن هـذه المشاعـر، والكلمات وروح التقديـر الدافعة، هـي التي دفعتني أن أقـدر له تلك الروح العربيـة، التي دفعته وحملتـه لكشف روح الإخلاص والتقدير للدوافع الوطنيـة بالإقدام لتنفيذ فكرة إصـدار جريدة (الفجر الجديد) وكانت بالنسبـة لإصدارها فرحة لا حدود لها، عندمـا استطعـت إقناع أخـي أحمد رحمـه الله بتنفيذ فكرة التقـدم، لصاحب الجلالـة الملك (سعود بن عبدالعزيز) رحمه الله، ،وإدراكي الصادق والبعيد أنه من أحد المشجعين لمثل هذه الأعمال الثقافية والوطنية. وقد انتهزنا فرصة زيارتنا

لجلالتـه في مدينة الرياض بعد العودة مـن أداء فريضة الحـج بصحبة الوالد (الشيـخ يعقوب اليوسف) رحمه الله أحـد قضاة (الجبيل) -والذي رشح مديراً لأول مدرسـة حكوميـة فيها- وقد نجحت الفكرة بموافقـة جلالته بإصدار أمره الكـريم للجهات المختصة بالسماح لنا بإصدار جريـدة (الفجر الجديد)، وكان اختيـار ذلك الاسم تيمناً بعهده. وكانت موافقة جلالته فرحة بالنسبة لي ولأخي أحمـد لا حـدود لها، وعندما تم لنا إصـدار الأعداد الثلاثة، كانـت تلك الأعداد سابقـة للعصر الذي حققته، أنا وأخي أحمد، وكان اهتمام الأستاذ (أبي يعرب) في تلك الرسالة الكريمة بالفجر الجديد وزميلاتها من تلك الصحف التي اختفت قد أدت رسالتها -ولا شك- في معالجة الكثير من الأمور الاجتماعية والوطنية، وساهمـت ببناء روح النهضة الأدبية والعلمية في سلك الصحف الأخرى، بدءً من عهـد الملـك عبدالعزيز -خلـد الله روحه في الجنة- وأبنائه مـن بعده بما أبرزه وحققه المحررون والكتاب والأساتذة، الذين ساهموا في تلك الصحف. وكان اسم (الفجر الجديد) الذي اخترناه تفاؤلاً بتلك النهضة العلمية والفكرية التي بدأت منـذ عهد الملك عبدالعزيز الموحـد الأول لأطراف المملكة، وتثبيـت أعمدة العلم والمعرفـة، وتطبيق روح التحضر المستمد من الشريعة الإسلامية السمحاء التي لا زالت المنطلق الأول والأخير بالتمسك بها.

وبعد: إن المتاعب النفسية التي واجهتها وأخي (أحمد) رحمه الله بعد إيقاف (جريدة الفجر الجديد) الذي شبه أحد المازحين ذلك الإيقاف بقصة (سنمار) التاريخيـة، ولكن الذي أزاح سحب تلـك المتاعب الثقيلة، وفجر الفرحة في قلوبنا -بما في ذلك الآباء والأمهات والأطفال الذين كنا نعيلهم- صدور بيان الديوان الملكي الكريم، الذي أعاد وحقق الثقة بنا وبكرامتنا كما نص بذلك البيان المنشور في الصحف المحلية بتاريخ ربيع الأول عام١٣٩٥هـ، وجاء في النص ما يلي: (أسوة بمـا قـام به المغفور لـه جلالة (الملك فيصـل) طيب الله ثراه، مـن إطلاق قسم مـن المعتقلـين في قضايا سياسيـة، والسماح لبعض الذين فروا مـن بلدهم هرباً

من تنفيذ الأحـكام الصادرة بحقهم بالعودة لوطنهم، ونظراً لأن جميع من عفي عنهـم أصبحوا عناصر طيبة، وساهموا بإخلاص في خدمة دينهم ووطنهم، فقد أمـر حضرة صاحب الجلالة (الملك خالد بـن عبدالعزيز) بإطلاق سراح جميع الباقـين مـن المعتقلين المحكومـين، والعفو عـن جميع الموجوديـن في الخارج من المتهمـين والمحكومين في قضايا سياسية، ودعوتهم للعـودة إلى وطنهم ليساهموا جميعًـا، في خدمة البلد وتطوير ازدهـاره)، وإن هذا البيان الكريم الذي شمل الجميـع بالعفو، الذي حقق الفرحة في قلوبنـا ونفوسنا وجميع أهلنا الذين رفعوا أياديهم إلى السماء بالدعاء إلى الله أن يحفظ ويديم حكومتنا الرشيدة بعطفها على أبنائها مشيدة بذلك البيان بأن جميع من عفي عنهم عناصر طيبة ساهمت بالإخلاص في خدمة دينهم ووطنهم.

وختامًـا وحتـى أوضح ما طلبـه مني الأستـاذ (أبو يعـرب) في رسالته، بأن أعطيه معلومـات واسعة تتعلق بجريدة (الفجر الجديـد)، وإكمالاً لهذا البحث، فقـد كان لموقـف الأستاذ (خالـد الفرج) رحمه الله الدور الكبـير في حل مشكلة طباعـة الجريدة في مطابعه التي كانت تعمل في مدينة (الدمام)، فقد أوعز إلى ابنـه (محمـد) وكلفه بطباعـة الجريدة عنـده، وكنا ننوي طبعهـا في البحرين، وقـد رحب غايـة الترحيب. كمـا أن الشيخ (حمـد الجاسر) رحمـه الله عندما سمـع بالسماح لنا بإصدار الجريدة بارك لنا ذلـك وأبدى الاستعداد بطبعها في مطابعـه بمدينة الرياض، وقـد شكرنا له هذه الروح الوطنيـة. وكنت آنذاك من أحـد الذين يكتبـون في (اليمامة)، وعندما بدأنا في طبـع الجريدة وجدنا إقبال القـراء عليهـا، ضاعفنا العدد الثاني علـى ثلاثة آلاف نسخة، أمـا العدد الرابع الـذي جرى إيقافـه ومصادرته من قبل مديـر الأمن العام والـذي لم يوضح لنا الأسبـاب، فقد كانت الأعداد الجاهزة للتوزيع أربعة آلاف نسخة. أما عن أسباب الإيقـاف الذي طلب الأستـاذ (أبو يعرب) معرفة ذلك، فحتى الآن لم نعرف تلك الأسباب؟ وقد كثرت التخرصات والأقاويل، فمنهم من خمن أو ظن، أن الحديث

أو المقابلة التي تمت بين الأستاذ (محمد الهوشان) أحد المحررين في الجريدة ورئيس الأرامكو المستر (باركر) حول البترول، وقلة عدد توظيف السعوديين، وعدم تشجيعهم، ربما أن ذلك قد ضايق رئيس الشركة، ولكني أستبعده ولا أظنه، فقد كنت مستمعًا لذلك النقاش، والمقابلة الطيبة، دون أن تبدو منه أي مضايقة، بل رحب كثيراً في تلك الزيارة والحديث الشيق معه. وقد وعد بتشجيع الجريدة ما أمكن بالإعلانات، وما يتعلق بالنفط، وقد عرف عنه أنه من خيرة الرؤساء الأمريكيين الذين عملوا في المملكة. ومهما كانت الأسباب حول إيقاف الجريدة، فنحن على ثقة أن المواضيع الأدبية والثقافية والتعليقات التي نشرناها، تؤكد الروح والمشاعر الطيبة، ومدى إخلاصنا ومحبتنا للوطن. وتأكيدًا وإيضاحًا للتاريخ، فإنه بعد فترة من إيقاف العدد الرابع، وفي زيارة من أخي أحمد لسمو أمير المنطقة الشرقية المرحوم (عبدالعزيز بن جلوي) [نيابة عن والده الأمير سعود بن جلوي لسفره للعلاج بالخارج] طلب من أخي أحمد إعادة طبع ونشر الجريدة، ولكن أخي اعتذر من ذلك، وشكر لسموه تلك المشاعر والاهتمام تاركاً الأمر إلى فرصة أخرى.

يوسف الشيخ يعقوب

هذا وقد استمر الأستاذ يوسف يكتب مقاله الأسبوعي (كلمات من القلب) بجريدة اليوم حتى بلغ الثمانين من عمره فوهن عزمه، ولم نلبث أن سمعنا بوفاته رحمه الله يوم الأربعاء ١٤٣٢/١٠/١٧هـ الموافق ٢٠١١/٩/١٥م. والمعروف أنه من الأعضاء المؤسسين لجريدة اليوم في بداياتها مع عصر المؤسسات الصحفية ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م.

ولا ننسى أن الراحل قد عمل بعض الوقت في مكتب العمل عند إنشائه بالدمام برئاسة عبدالعزيز المعمر، ولقي مع بعض العمال كثيراً من المضايقات

مـن الشركـة بسبب انحيـازه لمصالح العمـال ومطالبته بحقوقهـم، مما عرضه للسجـن مرتـين الأولى خمس سنـوات، والثانية عشر سنـوات، وبعد خروجه من السجن عمل بالتجارة، واستمر يكتب في جريدة اليمامة، وأخيراً جريدة **اليوم**.

وأخـيراً تعرض في سنواتـه الأخـيرة لأمراض كثـيرة منها: فقـده للذاكرة (الزهايمـر). وقد كرمته الدولـة من خلال وزارة الثقافـة والإعلام ضمن رواد الصحافـة السعودية، عند افتتاح معرض الكتاب الدولي بالرياض عام ١٤٢٨هـ، وقد ناب عنه ابنه يعقوب.

وقـد أبَّنـه مركـز حمد الجاسـر الثقافي بُعيـد وفاته –رحمـه الله– بتاريخ ١٤٣٢/١١/١هـ الموافق ٢٠١١/٩/٢٩م. أقامت خميسيـة الجاسر ندوة تأبين له شـارك بها الأساتـذة: سعد البواردي، ومحمد القشعمـي، وإدارة الدكتور موسى مبروك بحضور عدد كبير يتقدمهم ابنه الأستاذ سمير.

محمد بن عبدالرزاق القشعمي